الطبعة الثانية

رائد العيد

دروب القراءة

أثر

دروب القراءة

دروب القراءة
تأليف: رائد العيد
الطبعة الثانية 1442 / 2021
ردمك: 978-603-91026-5-6
رقم الايداع: 1441/ 941

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة او أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

دروب القراءة

رائـــد العيـــد

إلى كل الذين تورّطوا بالقراءة.. أو سيفعلون.

في البدء

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ درب القراءة الأول الذي ينبغي أن يُسار عليه.

الكتب هي الدرب الذي يوصلك إلى غاياتك، لا يمكنك العيش على الطرقات أبد الدهر، حتمًا ستعبرها من مكان لآخر، وكذلك الكتاب، ليس هو الغاية، ولا الحياة، هو السبيل، والزاد في ذلك السبيل، والمؤنس كذلك. «ثمة من يقضي حياته كاملةً في القراءة من غير أن يحقق شيئًا أبعد من ذلك. يبقى ملتصقًا بالصفحات، ولا يُدرك أن الكلمات ماهي إلا أحجار مرصوصة نعبر من خلالها إلى الضفة الأخرى من النهر. وهذه الضفة هي الأهم» هكذا قال سارماغو في روايته الكهف، وصدق.

تاريخ القراءة هو تاريخ كل قارئ معها، وكلما كان القارئ علَمًا بارزًا في أي مجال، كانت تجربته مع القراءة حريّةً بالاهتمام والاطلاع، لهذا يحرص كثير من كتّاب السير الذاتية على تدوين بدايات قراءاتهم، سواء كانوا مع قناعة عبد الفتاح كيليطو التي تقول: «سيرتي الذاتية سيرة قراءاتي» وأنه ينبغي على كل مفكر قبل أن يخبرنا بأفكاره النهائية أن يرشدنا إلى منابع المعرفة التي نهل منها حتى فاض بآرائه الخاصة، أو يختلفون معه إذ لا تمثّل القراءة عندهم سوى عامل يسير من عوامل التشكيل الذاتي مع مصادر المعرفة المتنوعة.

كثيرة هي كتب القراءة، والرائع فيها كذلك. والقراء بمختلف مراتبهم لا يملّون من الاستئناس بتجارب غيرهم من القراء، إذ يشاركونهم معاناة

نهم المعرفة، ولذة المعلومة بعد لأي البحث عنها، ويستفيدون من خبراتهم في أدوات القراءة ومهاراتها، لهذا وأكثر آثرت جمع دروب القراءة التي سار عليها كبار الكتّاب من سيرهم الذاتية، وبألفاظهم؛ إذ هم أفضل من يعبّر عن ذواتهم، وحتى لا يمّل القارئ من اتحاد الأسلوب وتكرار الألفاظ.

فحاولت التعريف بالسيرة الذاتية التي أخذت التجربة منها، ثم أترك الكلمة لصاحبها للحديث عن قصصه مع الكتب ومؤلفيها. كما عنونت التجارب بما رأيته مفتاحًا لفهم التجربة، فخذه بالحسبان عند القراءة، وتأمل عناوين التجارب طيلة الكتاب لتنتظم لديك مفاتيح دروب القراءة.

قد تجد الآراء متعارضة عن بعض الكتب أو الكتّاب، وكذلك التباين في طرق القراءة، فلا تجزع؛ فالهدف أن تعرف، ثم تقرر بنفسك، فكما قلت: الكتب دروب، وأنت المسؤول عن الدرب الذي تسلكه، والوسيلة التي تعبر عليه بها، والزاد الذي تصطحبه معك، ومن يرافقك في تلك الدروب الوفيرة.

لا أدّعي أن التجارب التي جمعتها هي الأفضل، لكن أزعم أن فيها من الثراء ما يُمتع القارئ ويضيف له حتما، مهما كانت المسافة التي عبرها في تلك الدروب. الكتاب الرائع هو الذي يكون بمثابة اكتشاف طريق لا محطة وصول.

استثنيت من السير الذاتية ما كان خاصًّا بالقراءة، كمذكرات قارئ، وسنة القراءة الخطرة، والكتب في حياتي، إذ يصعب الاقتطاع منها، ولأنها تستحق وقت القارئ بأكملها.

وختمت الكتاب بحديث عن أدب السيرة الذاتية، ماهيّته وشيء من تاريخه، وأنواع السير الذاتية، وكذلك عرض لدوافع كتابتها، ولماذا وكيف تقرأ السير الذاتية.

القراءة ليست لأوقات الفراغ، بل تُفرّغ لها الأوقات.

إذا لم تجد الوقت للكتاب، فلم تحرص على ذلك بالقدر الكافي، لا يغرنّك ازدحام جدولك اليومي، ولا كثرة الرسائل التي تنتظر الرد، ولا مواعيد اجتماعاتك، فلست الوحيد المنهك في زمن السعي وراء الانشغال، وكأننا نهرب من الفراغ الذي يعيبنا عند الرفاق.

على الجسر

عائشة عبد الرحمن

على شاطئ المدينة المصرية دمياط نشأت عائشة عبد الرحمن في بيئة متصوفة محافظة أثرت فيها أعمق التأثير، وفي بيت كبير عتيق، تصافحه أمواج الشاطئ غادية رائحة، وتصطفق الموجات على جدرانه الراسخة، تملأ خزاناته كتبًا ومخطوطات إسلامية.

لكنها النشأة القاسية التي لم تسمح لطفولتها بأن تأخذ حقها من الحياة، فقد ذاقت المر وهي بنت خمس، وتفتّح إدراكها على الحزن والشجن، حتى حرمت من الاقتراب من النهر خشية عليها من الغرق، فقُيّدت حريتها، لكنها كانت تتسلل إليه، تمضي الساعات الطوال في تأمل مستغرق، تصغي لهدير أمواجه، وتنسج ما غاب عنها من مشاهد اللوعة والأسى.

ولم يكن شبابها منطلقا، وإنما خطط لها والدها طريق حياتها، وحرّم عليها الخروج إلى المدراس وألزمها البيت للدرس والتعلم، ووجّهها نحو تحصيل العلوم الدينية، فكانت تمضي أكثر ليلها ساهرة بين الكتب والمراجع، تقتات من العلم على ضوء مصباح ضئيل، وتنفق حياتها بين جدران دور العلم.

يقول جوزف لبّس: «كثيرةٌ هي الأسباب التي تدفع بالإنسان إلى كتابة سيرته الذاتية، أما أن يحدو الحبُّ الحبيبَ على كتابة سيرته الذاتية فأمرٌ نادرٌ حقا في تاريخ السير.

كتبت بنت الشاطئ سيرتها على الجسر تحت وطأة الحب والموت معًا، موتُ من كان الحبيب والزوج والمعلم. تجيب الكاتبة عن سؤال: كيف سارت بي الحياة قبل أن ألقاه؟ بالعودة إلى طفولتها الباكرة واسترجاع ذكريات بعيدة لم يطوها النسيان، وهدفها «أن تلتقي بتلك الصبية التي حملت ملامحها الأولى، وتميّز في آثارها خطاها، تلك المرحلة التي أسلمتها إلى دربه - درب الحبيب - من حيث لا تدري»، وتتقوى على موته باستحضار ذكرياته، فالذكرى السعيدة سعادة، تعين البائس على تحمّل بؤسه، لأن الالتفات إلى الماضي الجميل وإحيائه يهيبان بالمرء النهوض من حالة اليأس أو الإفلات منها». وفي مقدمة النص المختار لها ما يشهد بهذا.

تعلّم القراءة من جديد!

«كلما اقتربت، فيما أسترجع من آثار خطاي على الطريق إليه، من ذكرى لقائنا الأول، تمهلت أجتر الذكرى، لعلي أعود بها من حيث بدأت فأعيش حياتي معه مرة أخرى، بعد أن طواها الردى.

ومن بعيد، تلوح لي الرؤيا الباهرة التي تجلت لي عندما لقيته، فأتشبث بها في محاولة يائسة للإفلات من هول اليقظة والهروب من عالمي المنهار.

من بعيد، أرنو إلى مشارف الأفق المسحور الذي لاح لي بعد أن عبرت منطقة الضباب، فأجاهد لأطوي في رحابه النيرة حاضري البائس وواقعي الفاجع، وألم شتات ذاتي المبعثرة وأشلاءها الممزقة، عساي أن أنجو بها من لوثة الأسى ومتاهة الضياع، لتمضي عبر السنين الخوالي إلى حيث تراءى لها ذلك الأفق عبقري السنا والجلال، فتسامت نحوه لا تحيد عنه، فكلما عرجت إليه خطوة امتد أمامها رحب المدى عالي الذرى، وهي تزداد على مشاق العروج وتكاليف المجاهدة، جلاء بصيرة ونفاذ رؤية، وتتزود في كل خطوة بمدد متجدد من فيض اليقين ونور الإيمان.

من بعيد،

أقف عند نهاية المطاف أستجدي الزمن رجعة إلى الأمس السعيد الذي ولّى وراح، وأتسول غفوة حالمة تحملني إلى حيث أفضى بي المسعى إلى دربه، في يوم ميلاد لي جديد!

هناك..

حيث أخذت مكاني في قاعة الدرس بالجامعة، متحفزة للجولة الباقية

لي على الطريق، ومستجمعة كل رصيدي المتضخم من زهو الطموح وإرادة التفوق، ومتأهبة لعرض بضاعتي التي تزودت بها من مدرستي الأولى، في تحد واثق من النصر.

ودخل «الأستاذ الخولي» بسمته المهيب المتفرد، فألقى علينا التحية واقترح، لكي نتعارف، وأن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن، ولكل طالب أن يختار مبحثًا منها، يعده ويعرضه للمناقشة في الوقت الذي يحدده.

وبادرت فأعلنت اختياري للمبحث الأول، في «نزول القرآن».

وعندئذ سرت في القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته، لكنه لم يلق إليها بالاً، واستطرد يعرض بقية المباحث، وأنا أتشاغل عن غيظي المكظوم، بالتفرج على عدد من الزملاء، في صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة، إرجاءً للموقف الصعب.

وعاد الأستاذ يسأل كل طالب منا، عن الوقت الذي يحتاجه في إعداد بحثه، فأجبت في عناد وشموخ:

- يكفيني يوم أو بعض يوم! قال في نبرة إشفاق وتحذير: كذا!؟ فكري مليًا، فربما بدا لك أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت.

وأبيت أن أتراجع.. ولماذا أتراجع، ومبلغ علمي أن المادة مبذولة جاهزة، ومصادرها الأصيلة في متناول يدي، فلن يحتاج الأمر معي إلى أكثر من بضع الساعات للمراجعة، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة.

ولم يفتني أن الأستاذ يراني تورطت في هذا التعجل، فكأني خشيت أن يأخذ عني فكرة خاطئة، فقلت أسأله، مدلة بما أملك من ذخائر علمه:

- هل يكفي أن أراجع في موضوعي، بكتاب «البرهان» للبدر الزركشي، وكتابي «الإتقان» و«اللباب» للجلال السيوطي، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير الطبري؟

أجاب: كتاب واحد يكفي الآن، لو أنك عرفت حقا كيف تقرئين!

وكان هذا، آخر ما توقعت أن أسمع!

ألمثلي يقال ذلك؟ وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعيبني أن أقرأه؟

وكبحت غضبي وأنا ألتمس للأستاذ العذر، فلعله يتصور أنني كغيري من الطلاب، وفيهم حقا من لا يعرف كيف يقرأ!

- ما ذكرت هذه الكتب إلا لأني قرأتها واستوعبت ما فيها، وإنما كان سؤالي عن مصادر أجنبية، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعي!

فما زاد على أن قال:

- لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع، لما تورطت في مثل هذا السؤال المنكر!

وتحيرت لا أملك سؤالًا ولا ردًّا، فما كنت حتى تلك اللحظة، قد فكرت في التمييز بين المصدر والمرجع.

وتابعت الإصغاء إلى الأستاذ، وهو يلقي علينا مبادئ منهجه، حريصة على ألا تفوتني كلمة واحدة مما يقول!

وبجهد مرهق، تشاغلت عن عالمي النفسي المائج بشتى الخواطر، لأعي ما أسمع، ولا شيء يزعجني غير دقات ساعة الجامعة، معلنة عن سير الزمن.

وكنت أتمنى لو توقف الزمن، ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغي، وأتعلم!

من ذلك اللقاء الأول، ارتبطت به نفسيًّا وعقليًّا، وكأني قطعت العمر كله أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول.. ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالي بظروف وعوائق، قد تحول دون قربي منه، فما كان يعنيني قط، سوى أني لقيته، وما عدا ذلك، ليس بذي بال.

وقد انصرفت من درسه الأول، في اليوم السادس من نوفمبر عام 1936، وأنا أحس أني ولدت من جديد.

وحين وقفت بعد أسبوع أؤدي أمامه امتحاني الأول، لم أصمد! سوى دقائق معدودات، أقررت بعدها أن حصيلتي من كنز الثقافة الإسلامية، الذي حسبت أني ملكته، لا تعدو القشور والأصداف!

وأن بيني وبين ذخائره المكنونة حجبًا وأرصادًا تحول دون النفاذ إلى الجوهر واللباب.

وفهمت لماذا ارتاب الأستاذ في معرفتي للقراءة، فما كانت قراءتي لذخائر مكتبتنا، سوى مطالعة سريعة مرتجلة، تلتقط الدلالة العابرة والملحظ القريب المبذول، ويعوزها ضبط المنهج وأناة التمثل، فيخطئها لمح سر الكلمة وروح النص، ويفوتها الإصغاء إلى إيحاء النبرة ونبض الحرف!

وكان عليّ أن أعود فأبدأ القراءة في كتب قومي، من حيث ظننت أني بلغت منها أقصى ما تعطي.

وربما انقضت أيام وليال، وأنا عاكفة على قراءة فقرة من كتاب، كنت بحيث أتم قراءته كاملًا في أمسية واحدة!

بل ربما انقضت شهور وأنا مستغرقة في التماس سر كلمة من القرآن الكريم، وكنت أتلو السور الطوال عن ظهر قلب، لا أتوقف ولا أتعثر!

والمعارف المحدثة التي انزوت في منطقة معطلة من ذهني بمجرد أن أديت

الامتحان فيها، ما لبثت أن انتقلت إلى مجال الوعي والإدراك، بتأثير شعوري بالحاجة إلى روافد منها تخصب وجودي الفكري، وإلى منافذ مفتوحة تنطلق منها عقليتي إلى ما وراء الجدران العازلة الصماء التي حسبتها نهاية الحدود لعالم المعرفة.

وانجلى ما حسبته سرابًا، فإذا الجامعة تعطيني من جديدها ما لم يخطر لي قط على بال.

وإذا القديم الذي جئتها به، يجلوه منهج الأستاذ الخولي فيمنحه روح الحياة ونبض العصر!

ومضى وقت طويل، قبل أن أجرؤ على الوقوف مرة ثانية، لأقرأ على الأستاذ الخولي في قاعة الدرس، بتهيب وخشوع، فصلا من مقدمة «ابن الصلاح» في علوم الحديث، عن ضوابط المنهج النقلي للرواية.

بعد أن حشدت له كل طاقتي من تمثل منهج الأستاذ، وكل رصيدي من تراث السلف، وقطعت إليه رحلة ذهنية طويلة شاقة، مع مسار الإنسانية في طريق المعرفة، من تصورات العقلية الأسطورية في مدرسة السحر، إلى حكمة الفلاسفة الأقدمين، ومن جدل السوفسطائية ومنطق أرسطو ومقال ديكارت والمنهج التجريبي الاستقرائي، إلى مباحث الأصوليين والكلاميين، وضوابط علماء الحديث واللغة، ومناهج الفلاسفة المسلمين!».

الأمية

أغوتا كريستوف

الكتابة، الهجرة، اللجوء، اللغة، قضايا تناولتها أغوتا كريستوف في سيرتها القصيرة المعنونة بـ الأمية والتي كتبتها سدًّا لحاجتها المادية التي مرّت بها بعد هجرتها هربًا من الحرب، فكتبت كل شهر مقالة من صفحتين حتى وصلت أحد عشر مقالًا جمعتها في الكتاب.

تسرد رحلتها القاسية مهاجرة في الحادية والعشرين من عمرها، مع طفلة عمرها أربعة أشهر، بين هنجاريا والنمسا، حاملة معها شنطة احتياجات الطفلة، وشنطة مليئة بالمعاجم!

بحرقة تعبر عن مشاعر اللاجئين، وكيفية التعامل معهم، وخيبة الظن فيما كانوا يؤملون الحصول عليه وما وجدوه، رغم حسن التعامل الذي يلاقونه أحيانا إلا «أن الأمر لم يعد يشبه معسكرات الاعتقال وإنما حديقة الحيوانات».

بعد تجارب عديدة في كتابة المسرحيات، والقصائد، تجيب على سؤال: كيف يصير المرء كاتبا؟

«نصير كتابا، حين نكتب بإصرار وأناة، دون أن نفقد البتّة إيماننا فيما نكتبه».

الأمية المولعة بالمعجم

«أقرأ. الأمر أشبه بالمرض.

أقرأ كل ما تقع عليه يداي أو عيناي: الجرائد، كتب مدرسية، ملصقات، قصاصات ورق مطروحة في الطريق، وصفات مطبخ، كتب أطفال. كل شيء مطبوع.

أنا في الرابعة من عمري. الحرب بدأت لتوّها.

كنا نسكن آنذاك بلدة صغيرة لا محطة فيها، ولا يتوفر فيها الكهرباء، ولا المجاري، ولا خطوط الهاتف.

أبي هو المعلم الوحيد في البلدة. يدرّس الفصول جميعها، من المستوى الأول حتى المستوى السادس. يجمع تلاميذ الفصول كلها في قاعة واحدة. لا يفصل المدرسة عن بيتنا سوى الساحة، وتنفتح نوافذها على حديقة خضروات أمي. عندما أتسلق أعلى نوافذ القاعة الفسيحة، ألمح كل تلاميذ الفصل، وأرى أبي في الأمام، واقفا يكتب على سبورة سوداء.

تفوح قاعة أبي بالطباشير والمداد والورق والهدوء والصمت والثلج، حتى في أيام الصيف.

أما مطبخ أمي فيفوح برائحة الحيوانات المذبوحة واللحم المطبوخ والحليب والمربى والخبز والغسيل المبلول وبول الرضع والهياج والضجيج وحرارة الصيف، حتى في أيام الشتاء.

عندما لا يسمح لنا الطقس بأن نلعب في الخارج، أو عندما يصرخ الرضيع أعلى من المعتاد، أو عندما نحدث أنا وأخي ضجيجا مفرطا أو خسائر مفرطة

في المطبخ، ترسلنا أمي إلى أبي كي يعاقبنا.

نخرج من المنزل. يتوقف أخي أمام الحظيرة حيث نخزن حطب المدفأة ويقول:

سيفرح الأمر أمي.

أعبر أنا الساحة، وأدخل إلى القاعة الفسيحة، أتوقف عند الباب وأخفض عيني.

يقول لي أبي:

- اقتربي.

أقترب وأهمس في أذنه:

- أنا معاقبة.. أمي ...

- لا شي غير ذلك؟

يسألني «لا شيء غير ذلك؟»، لأنه تكون لدي أحيانا ورقة أمدها إليه دون أن أنبس بحرف، أو كلمة عليّ تبليغه إياها:

«الطبيب»، «الأمر مستعجل»، وأحيانا فقط رقم: 38، أو 40.

وكل ذلك بسبب الرضيع الذي تصيبه أمراض الطفولة طيلة الوقت.

قلت لأبي:

- كلا. لا شيء غير ذلك.

أعطاني كتابا مصورا وقال لي:

- اجلسي هناك.

أذهب أقصى القاعة، هناك حيث توجد دوما مقاعد فارغة خلف التلاميذ الأكبر سنًّا.

هكذا إذن، أصابني دون أن أنتبه مرض القراءة الذي لا شفاء منه.

عندما نذهب لزيارة والدَي أمي اللذين يسكنان في مدينة قريبة، في بيت يتوفر على الماء والكهرباء، يأخذني جدي من يدي ونجول معًا بيوت الجيران.

يخرج جدي جريدة من جيب كنزته ويقول للجيران:

- انظروا. أنصتوا.

ويقول لي:

- اقرئي.

وأقرأ. أقرأ بطلاقة، دون خطأ، وبالسرعة التي تطلب مني.

وباستثناء فخر جدي بي، لم تحمل لي القراءة إلا اللوم والاحتقار:

«إنها لا تفعل شيئا. تقرأ طيلة الوقت».

«لا تحسن شيئا آخر».

«إنها أكثر المشاغل خمولا».

«إنه الكسل».

«إنها تقرأ عوض أن...»

عوض ماذا؟

«ثمة العديد من الأشياء الأكثر أهمية، أليس كذلك؟»

وحتى اليوم، ما أزال أحس بتأنيب الضمير، حين يذهب جميع الجيران

إلى أعمالهم، وأجلس أنا على طاولة المطبخ كي أقرأ الجريدة لساعات عوض أن ... أرتب البيت أو أغسل أواني ليلة أمس، عوض أن أذهب إلى التسوق، عوض أن أغسل الملابس وأكويها، عوض أن أحضّر المربّى أو الحلويات ...

وخاصة، خاصة. عوض أن أكتب».

***

«بعد خمس سنوات من وصولي إلى سويسرا صرت أتحدث الفرنسية، لكني ما كنت قادرة على القراءة بها. لقد عدت امرأة أمية. أنا التي كنت أستطيع القراءة في سن الرابعة.

أعرف الكلمات. لكني حين أقرؤها لا أستطيع التعرف عليها. الحروف لا توافق أي شيء. إن المجرية لغة صواتية، بينما الفرنسية نقيض ذلك تماما.

لا أعرف كيف استطعت العيش خمس سنوات دون أن أقرأ.

كنت قد نشرت قصائدي؛ كانت ثمة أيضا الكتب الهنغارية التي كانت تصلنا بالمراسلة من خزانة جنيف، والتي قد سبق لي أن قرأت أغلبها، لكن ذلك أمر غير ذي بال، فخيرٌ للمرء أن يعيد قراءة ما سبق أن قرأه على ألا يقرأ البتة.

ولحسن الحظ كانت ثمة الكتابة.

أوشكت طفلتي على بلوغ سنتها السادسة، ستلتحق بالمدرسة.

وأنا أيضا التحقت بالمدرسة، أو بالأحرى عدت إلى المدرسة. وأنا في سن السادسة والعشرين سجلت نفسي في دروس الصيف بجامعة نيوشاتل كي أتعلم القراءة. إنها دروس في اللغة الفرنسية موجهة للطلبة الأجانب. كان

ثمة طلبة إنجليز وأمريكان وألمان ويابانيون وسويسريون - ألمان. امتحان الدخول كتابيّ. مستواي ضعيف جدًّا، لذا وجدت نفسي في صف المبتدئين.

بعد بضع حصص قال لي الأستاذ:

- إنك تتحدثين الفرنسية جيدًا، لم أنت في صف المبتدئين؟

قلت له:

- لا أعرف القراءة والكتابة. أنا أمية.

ضحك قائلا:

- سنرى كل ذلك.

سنتين بعد ذلك حصّلت شهادة الدراسات الفرنسية مع درجة الشرف.

صرت أعرف القراءة. ها أنا ذي أعرف القراءة مجددًا. أستطيع قراءة فيكتور هوجو وروسو وفولتير وسارتر وكامو وميشو وفرانسيس بونج وساد، كل ما بإمكاني الاطلاع عليه بالفرنسية، إضافة إلى المؤلفين غير الفرنسيين المترجمين إلى الفرنسية أمثال فولكنر وستاينبيك وهمنغواي. الكثير من الكتب، الكثير من الكتب صارت أخيرا مفهومة بالنسبة لي.

رُزقت بطفلين آخرين. معهما تمرنت على القراءة والكتابة السليمة وتصريف الأفعال.

عندما يسألانني عن معنى كلمة أو طريقة كتابتها لا أقول قط:

- لا أعرف.

وإنما أقول:

- سأرى.

وأرجع إلى المعجم، دون كلل، أرجع إلى المعجم. لقد صرت مولعة بالمعجم

أعرف أني لن أكتب قط الفرنسية كما يكتبها الكتاب الفرنسيون ولادة، بيد أني سأكتبها كما أستطيع، كأفضل ما أستطيع.

لم أختر هذه اللغة. لقد فرضتها عليّ الصدفة، فرضها القدر، فرضتها الظروف.

مُكرهة أنا على الكتابة بالفرنسية. إنها تحدٍّ.

تحدٍ تخوضه امرأة أمية».

الذكريات الصغيرة

جوزيه ساراماغو

حزن الطفل الصغير على اقتلاع شجر الزيتون المغطي لقريته الصغيرة، تأملاته في أنهار القرية وحدود تمددها وانحسارها، تنقلاته في الغابة، أشبه بتقرير ناشيونال جيوغرافيك لقرية أزنياجا من تصوير جوزيه ساراماغو!

ذكريات صغيرة طولًا وعرضًا، يستعرضها جوزيه - الذي كان سببًا في تغيير اسم والده كحالة فريدة من نوعها، والذي بدوره كذب في تسجيل موعد ولادة ابنه - عن شغب الطفولة، عن النوم مع ابن الخالة، الاستهزاء بمعلم المدرسة، إنقاذ كهل من الهلاك لجرعة زائدة من الخمر، توديع جار جُنّ من كثرة القراءة كدون كيخوته وهو يرأف عليه لفقدانه القناعة المترسخة بداخله «أبدًا لا نعرف كل شيء، ولن نحيط علما بكل شيء، إلا أننا نظن أحيانا أن بوسعنا أن نعرف، ربما لأن لا شيء في هذه الأحيان يستطيع أن يملأ روحنا أو ضميرنا أو عقلنا، أو أيًّا كان اسم هذه الكينونة التي تجعل منا بشرًا».

الطيران على أجنحة الكلمات

«سريعًا ما تعلمت القراءة، والفضل في ذلك يرجع إلى المدرسة الابتدائية بشارع مارتينس فيراو. في تلك المدرسة، ذات المدخل المظلم والسلم القاتم، أصبحتُ، ومن دون مرحلة انتقالية، معتادًا بانتظام على المستويات العليا من اللغة البرتغالية في جريدة الأخبار اليومية، التي كان أبي يحضرها إلى البيت، وأظن أن أحد أصدقائه من كان يهاديه بها، إما صديق يعمل في توزيع الجرائد أو آخر صاحب كشك. أما الشراء، فلا أعتقد أنه كان يشتريها، إذ لم يكن يتبقى مال فائض عن حاجتنا لينفقه في هذه الرفاهية. أعطيكم مثالا لتوضيح الفكرة: يكفي أن أقول إنه خلال سنوات، وبانتظام دوري مطلق، كانت أمي تحمل البطاطين إلى دار الرهن بمجرد انتهاء الشتاء، من أجل الحفاظ عليها فحسب، وتدخر السنت فوق السنت حتى تستطيع دفع الفوائد كل شهر وكذلك المبلغ النهائي عندما تبدأ قرصات البرد الأولى. لكني للحقيقة لم أستطع أن أقرأ جريدة «الصباح» الخطيرة حينذاك، وهنا ثمة شيء أود توضيحه: كانت أخبار الجريدة تكتب بالحروف نفسها (كنا نسميها حروفًا لا خطوطًا) التي تعلمتها في المدرسة، من حيث أسمائها ووظائفها والعلاقات بينها، وبمجرد أن تعلمت التهجئة، كنت أقرأ، رغم أني لم أكن أفهم ما أقرأه. كان تعرفي أثناء قراءة الجريدة على كل كلمة قد عرفتها بمثابة إشارة في الطريق تقول إني أسير راسخًا في الاتجاه الصحيح. وهكذا، وبطريقة غير معتادة، وجريدة وراء جريدة، شهرًا وراء شهر، متصنعًا عدم استماعي لسخرية أهل البيت حين يتسلّون عليّ وأنا أنظر إلى الجريدة كأنها جدار، جاءت لحظتي التي أدهشتهم فيها لمدة نصف ساعة، إذ مرة واحدة قرأت عدة أسطر متتالية بصوت مرتفع من دون أي تلعثم وإن كنت متوترًا لكني كنت مزهوًا. لم أكن

أفهم كل ما أقرأه، لكن ذلك لم يكن مهمًا. وبالإضافة لأبي وأمي، المرتابين قبل ذلك والمستسلمين الآن، كانت عائلة باراتا حاضرة معنا. ما حدث أني عثرت، في هذا البيت الخالي من الكتب، على كتاب، كتاب واحد، ضخم ومجلد، كتاب أنيق بلون أزرق سماوي، وكان عنوانه «اتوتينيجرا دو موينيو»، وكان مؤلفه، إذا كانت الذاكرة لا تزال تصيب، إميل ريتشيبورج، أعتقد أنه مؤلف لم تهتم به كتب تاريخ الأدب الفرنسي بما يستحق، ولا حتى أكثرها عمقا وإن كانت اهتمت به بقدر ما، مع ذلك هو مؤلف ماهر في فن الكشف بالكلمة عن القلوب مرهفة الحس والسنتمنتالية المتهورة. كانت صاحبة هذه الجوهرة الأدبية المطلقة، بكل الأدلة الظاهرة باقتناء أجزائها المختلفة، هي كونسيبسيون باراتا التي كانت تحتفظ به ككنز في درج الكومودينو، مغلفة إياه بغلاف من الحرير له رائحة النفتالين. لقد باتت هذه الرواية أكبر تجاربي الأولى كقارئ. كنت بعيدًا جدا، ولا أزال، عن مكتبة قصر لاس جالبياس، لكني خطوت أولى خطواتي حتى أصل إليها. وبفضل مجاورة أسرتي لأسرة باراتا سنوات طوال، أتيح لي وقت فراغ كثير لأقرأ الكتاب حتى نهايته وأعود لقراءته مجددا. مع ذلك، وبعكس ما حدث لي مع ماريا حورية الغابتين، لا أستطيع، مهما بذلت من جهد، أن أتذكر قطعة واحدة منه. ربما لا يحب إميل ريتشيبورج هذه الاستهانة به، لأني أعتقد أنه كتب «توتينيجرا» بحبر لا يمكن أن يمحى، لكن الأمور لم تبق على حالها. وبعد ذلك بسنوات اكتشفت، فجأة، أني قد قرأت أيضا لموليير وأنا في الطابق السادس بشارع فيرناو لوبيس. فذات يوم، ظهر أبي في البيت وبيده كتاب (ليس بوسعي أن أتخيل كيف حصل عليه) لم يكن أكثر ولا أقل من كونه دليل محادثة من البرتغالية للفرنسية، بصفحات مقسمة لثلاثة أعمدة، الأول من اليسار بالبرتغالية، الثاني في الوسط بالفرنسية، والثالث على اليمين كان يمثل نطق كلمات العمود الثاني. كان الدليل يحتوي على مواقف مختلفة قد يتعرض لها البرتغالي الذي يدرس

الفرنسية بمساعدة من دليل المحادثة (داخل محطة قطار، في صالة الاستقبال بفندق، في وكالة لتأجير السيارات، في ميناء بحري، عند ترزي، عند شراء تذاكر مسرح، عند تجريب بدلة عند ترزي، إلخ)، وكان يظهر فجأة حوار بين شخصين، رجلين، أحدهما يبدو مدرسا، والآخر طالبًا. قرأته مرات كثيرة لأن حماقة الرجل الذي لم يكن بمقدوره أن يستوعب ما يشرحه المدرس كانت تسليني، المدرس دائما يكرر كلامًا منثورًا منذ ولد. لم أكن أعرف شيئا عن موليير (ومن أين لي أن أعرفه؟) لكني دخلت عالمه من أكبر بواباته، من قبل حتى أن أتخطى مرحلة تعلم الحروف المتحركة. لقد كنت طفلا سعيد الحظ».

***

«لقد حان الوقت لأتحدث عن الرواية الشهيرة «ماريا، حورية الغابتين»، وهي الرواية التي أبكت عائلات الأحياء الشعبية بلشبونة في عقد العشرينيات. لقد نشرت، إن لم تخني الذاكرة في مطبوعات رومانو توريس، وكانت مقسمة إلى أجزاء صغيرة أو كراسات أسبوعية من ست عشرة صفحة، وكانت تسلم في تواريخ محددة إلى المشتركين في بيوتهم. كانوا أيضا يسلموننا هذه الأجزاء الأسبوعية في شقتنا بالطابق الأخير بشارع لوس كافاليروس 57، لكن، في تلك الآونة، وباستثناء ومضات قليلة بقيت في ذاكرتي إنتاج خط الحروف على السبورة، ولم تكن كافية إطلاقًا، لم تكن بدايتي في فن قراءة الكتابة الهيروغليفية الحساسة قد أذنت بعد. أما من كانت تأخذ على عاتقها قراءة تلك الأجزاء لنا، وبصوت عال لتكون قدوة لي أنا وأمي الأميان، أنا لفترة من الزمن وأمي للأبد فقد كانت أم فليكس، السيدة التي لا أستطيع تذكر اسمها حتى ولو عصرت ذاكرتي. كنا نجلس ثلاثتنا حتمًا

على المقاعد الصغيرة، القارئة والمستمعان، وكنا نستسلم للطيران على أجنحة الكلمات لنصل إلى هذا العالم المختلف عن عالمنا. ومن القصص روت لنا المصائب الألف التي وقعت على مدار أسابيع، وبلا رحمة، على رأس ماريا التعيسة، ضحية كراهية وحسد منافسة لها تتمتع بالقدرة والمكر، وأتذكر من تلك القصص تلك الواقعة التي حفرت في ذاكرتي للأبد. على طول مصائب الدهر المختلفة التي مع الوقت بددتها، ورغم أنه قد لا يهم تحليلها هنا، كانت ماريا محبوسة داخل سراديب مظلمة بقصر عدوتها اللدودة، وكانت عدوتها اللدودة لتؤكد لقرائها المحترمين ما يعرفونه من الفصول السابقة، ويعرفونه بزيادة، أقصد أنها شريرة وتتمتع بالشر منذ مولدها، استغلت الصبية المسكينة التي كانت ماهرة في التطريز وفنون نسائية أخرى، وأمرتها أن تعمل من أجلها وتحت تهديد بمعاقبتها بأشد العقاب الذي عرفته ولم تعرفه بعد. وكما نرى، فبالإضافة لكونها مؤذية، هي أيضا مستغلة. ومن بين القطع الجميلة التي طرزتها ماريا خلال فترة حبسها كان الرداء السحري الذي أعجبت به صاحبة القصر وقررت الاحتفاظ به لنفسها. حينئذ، ونتيجة لمصادفة غريبة تحدث فقط في الروايات ومن دون مساهمتها لن يقوم أحد بمهمة كتابتها: ذهب الفارس الهمام، الذي كان يعشق ماريا وهي تبادله العشق، في زيارة إلى هذا القصر من دون أن تعبر برأسه فكرة أن يجد محبوبته محبوسة بداخله وبأصابع مثقوبة جراء التطريز داخل سجن مظلم. صاحبة القصر التي اختارت العاشق لنفسها منذ زمن طويل، وهو سبب المنافسة الرهيبة التي أسلفت الإشارة إليها، قررت أن تجذبه إليها هذه الليلة. وكما فكرت فعلت. وفي ساعة متأخرة من الليل دخلت غرفة نوم الضيف خفية وهي ترتدي هذا الرداء السحري، كانت مثيرة ومعطرة، بوسعها أن تذهب بعقل كل قديسي ملكوت السماء، فما بالنا بفارس مليء بالطاقة، بقوة الحياة، مهما كان عاشقًا لماريا النقية والمعذبة. وبالفعل، بين ذراعي تلك السيدة الخليعة التي رافقته في

السرير، وفوق نهديها المسكرين والمكتنزين والمطلين بجرأة من وراء الدانتيل، كان الفارس على وشك السقوط مستسلمًا في الهاوية الجذابة، وهنا فجأة، وبينما كانت الغادرة تستعد لغناء أغنية النصر، تقهقر الفارس كما لو قد لدغه الصّل المختبئ بين نهدي كليوباترا، ووضع يده المرتجفة على التطريز وانتزعه مناديا بصياح: «يا ماريا، يا ماريا». ماذا حدث؟ أظن أنه من الصعب تصديق ما حدث، لكن هذا ما كان مكتوبًا. ماريا، داخل سجنها، كغريق يلقي زجاجة في الماء في انتظار أن تفهم الرسالة يد منقذة، طرزت في الرداء طلب النجدة كاتبة اسمها والمكان المسجونة فيه. عندما قرأ الرسالة، أنقذته من الخزي في اللحظة الأخيرة، فصد السيدة الشبقة بعنف وخرج راكضًا لينقذ بتولته ومحبوبته ماريا من الأسر. لا بد أننا انتقلنا في تلك الأيام تقريبا إلى شارع فرناو لوبيس، لهذا انتهت هنا قصة «حورية الغابتين»، حيث أن المشتركة كانت أم فليكس، ونحن فقد كنا فقط نستفيد من القراءة الأسبوعية المجانية، ولم يكن ذلك شيئًا هينًا، خاصة بالنسبة لي، فذكرى هذه الواقعة الدرامية والمضطربة، رغم صغر سني حينها، لم تمح أبدًا من ذاكرتي».

يا صاحبي السجن
أيمن العتوم

كيف يعبّر الكاتب عن التجربة المريرة بأعذب الأساليب؟

أيمن العتوم يجيبك في ياصاحبي السجن بسرد تجربة سجنه في السجون الأردنية معنونًا فصولها بآيات قرآنية، متنقلًا بين عدد من السجون، مرافقًا لقيادات سياسية ودينية، رغم فترته القصيرة إلا أن «الوقت يمرّ كأنه عجوز في التسعين يتسلق جبالا شاهقة»، وفي محاولة للإمساك بضبط الوقت بعد حرمانه من ساعته، بدأ القراءة في اليوم الأول له في الزنزانة، من التفاسير التي كانت مسموحة فيها، حتى غالبه النوم، «عددت كم صفحة من كتب التفاسير قرأت أمس، وحين رجعت في ذهني إلى الأعداد: قدّرتها بمئتين وخمسين صفحة، وبما أنني أقرأ في الساعة بين 35-30 صفحة، فمعنى ذلك أنني قضيت في القراءة ما لا يقل عن 8 ساعات»!

«وفي الليلة الثالثة تنوعت الكتب قليلًا، لم تعد وحدها التفاسير تفد إلى كوة الزنزانة، صار هناك بعض كتب الأحاديث كرياض الصالحين حتى وصلتني سيرة ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام، يا لجوعي للقراءة!! إنها الفعل الأكثر نجاعة في هذا البحر اللجي من الوقت البطيء».

لن تجد في سيرته التعذيب القاسي، لكنك ستجد المناوشات بينه وبين الضباط، الفلسفة التي يستطرد بها، التأملات التي يقرؤها على تجاعيد رفاق العنبر فرحًا بها بعد أن ملّ من قراءة الجدران، طريقته في نظم الشعر وحفظه

رغم منع دخول القلم والأوراق!، مطبقًا ما ينصح به: «إن الحواجز المادية تبدو بسيطة ضئيلة ليست ذات قيمة أو أهمية أمام فضاءات الروح. دع روحك تُحلّق، تر العالم يبسط أمامك لوحة الجمال ذاتها!».

الوقاية بالقراءة

«على باب المهجع استقبلنا من تبقى منا في الغرفة ولم يلحق بنا في سبلة الإضراب عن الطعام ... كان (بكر) أول المستقبلين، فتح قلبه ذراعين من شوق واحتضننا بكل ما أوتي من قوة، وكان قد علم بأن مفاوضاتنا مع مدير الأمن العام ستفضي إلى فك الإضراب والعودة إلى المهاجع، فجهز لنا كميات كبيرة من الحليب، يومها نصب (بكر) نفسه طبيبًا شخصيًّا لنا جميعًا، سكب الحليب لكل واحد منا في كأس فدارت الكؤوس البيضاء كأنها عرائس راقصة على الجائعين إلى كل شيء، ومنعنا (بكر) أن نمد أيدينا إلى ما سواه خوفًا على صحتنا، فهو يرى أن فترة الإضراب قد فاقمت من حساسية المعدة عندنا، فعلينا أن نشرب السوائل التي تهيئ المعدة لاستقبال الطعام، وبعد أن أفرغنا كؤوس الحليب في أجوافنا ، مد لنا ببضع تمرات لنأكلها، وحجر علينا الأكل لمدة ثلاث ساعات، حتى نتناول جميعا فيما بعد طعام العشاء، وفي اعتقاده أن المعدة حينها بعد أن رُوّضت بالحليب وما فيه من الفيتامينات، وبالتمر وما فيه من السكريات تكون جاهزة لاستقبال الطعام على تنوعه، ولكنه أيضا نصح بعدم الإكثار منه في اليوم الأول، ودعا إلى أن ننام خفيفين في ذلك اليوم على حد تعبيره.

في الساعات الثلاث التي تلت أكؤس الحليب ولقيمات التمر كنا جوعى إلى الحديث، راحت سيول الكلمات تشق طريقها عبر الأذان، وكل واحد منا يروي قصته وما حدث معه ... كانت الساعات الثلاث مزدحمة بالضحكات وبالطرائف وبالسخرية المرة، وكنا نهوي على الأرض أوراقا من ربيع تأجل موعده ...!!

مر زمن السجن بطيئا بعدها، استقرت الأحوال على اضطراب تعودناه،

تعايشنا مع كوننا سجناء كبقية السجناء، لم يكن قد مر وقت على نضجنا كما يجب، أحسست بعد صفحة الإضراب أن كتاب السجن صار يفتح في كل يوم على صفحة مشابهة لما قبلها، والحق يقال أن بعضنا أصابه اليأس والكم ، وهاجمته فرائس الاكتئاب العادية خلف الطرائد فانزوى بعيدًا، واتخذ من الصمت أيقونة لعالمه الخاص، وتركنا في مهب عواطفنا المتماوجة لا ندري ماذا نفعل، ولعلني كنت سأكون أحد هؤلاء لولا أنني سارعت إلى حماية نفسي بالقراءة ... كنت أقرأ في الأسبوع كتابا أو كتابين، أما الآن فهرعت إلى الكتب أقرأ في اليوم أو في بعضه كتابا، ألتهم ما فيها كأنني أهرب من شيء لا أعرف كنهه، أفزع إلى الصفحات أُبحلق فيها من أجل أن أدفع عن نفسي غول الكآبة، ومعطف المرض النفسي الذي ارتداه عدد ما طواعية .

لماذا كنت أقرأ؟ لا أدري ... لماذا كان هذا الجنون؟! لا أدري؟! من أي شيء كنت أهرب وأنا أفعل ذلك؟ لا أدري؟!

أحاط بي (عكرمة)، كان هو الآخر مهووسًا بالقراءة، بل لقد كان وجهه كتابًا، وعيناه صفحات، وأصابعه كلمات، وشعر لحيته حروفًا.

استفزني لأحتمي بالقراءة كما لم يفعل أحدٌ من قبل، كنا نقضي وقتنا بين عبادة في محراب الكتاب، أو رياضة في مضمار النقاش، أو مناكفة في حومة الآراء ...!!

عشرات الكتب، ومئات الكتّاب، وآلاف العقول وقفت أمام جلال روعتنا في حلبة القراءة، حضرت جيوش من الأرواح لتؤنسنا، اكتشفنا أننا حين نقرأ لا نقرأ سطورًا، بل نقرأ أرواحًا، وأن السطور في البداية تظل سطورًا جافة، لا تجاوز المعنى، ولكنها تتحول بعد المران والدربة وإجبار العقل على الخضوع لسلطانها إلى أرواح، وما أمتع أن تحاور روح الكاتب، ويخرج هو من بين ثنايا كتابه ليجلس في حضرتك، عابرًا مواضيَ سحقية، وبلادًا بعيدة، ومستقرًا بين يديك ... لا تعترف الروح بتطاول الزمن، قد

تنخدع اللغة بذلك فتتغير حين تتبدل الأطوار، غير أن الروح هي هي مهما مرت العصور وكرت الدهور، وحينها تلفّك بشهد تجربتها خالصة لوجه المعرفة الكريم!!

قررت إدارة السجن أن تشرع أبواب المكتبة يومًا واحدًا في الأسبوع لكل سجناء سواقة، غير أنه كان من النادر أن ترى سجينًا غير سياسي يرتاد المكتبة، فخلا لنا الجو، وفتحت الكتب لنا عن صدرها، وكشفت عن ذراعيها، وقالت لنا بكل شوق: هيت لك!! فقلنا لها: هات لنا!!

كان عددنا في الغرفة تسعة أشخاص، كثيرا ما كنا نستعير كتبًا على عددنا، وكانت مدة الإعارة أسبوعًا واحدًا، وهكذا كان يجتمع لنا في الغرفة ما يقرب من تسعة كتب لأسبوع، فيقرأ أحدنا الكتاب، ثم نتبادل ما نقرأ مع الآخرين، فتكون وفرة وخضرة.

غير أن بعضنا كان يستعير لنا أكثر مما يستعير لنفسه، ندفعه إلى استعارة الكتاب حتى ولو لم يكن يرغب في القراءة البتة، ونقول له: ما دام يحق لك ذلك فأفدنا به إن لم ترغب أنت بالاستفادة منه!!

كانت مكتبة السجن فوق ما نرجو، وقريبًا مما نطمح، كانت فيها بعض الكتب التي لهثنا ونحن خارج السجن نطاردها لنمسك بها وهي تأبى علينا، إما لندرتها، أو لعدم توافرها بسهولة ... أما هنا في السجن فقد وجدناها مبذولة موفورة، فكتاب - مثلًا - كمذكرات الملك عبد الله الأول كان عزيزًا خارج السجن، ولكنه في مكتبة السجن كان يتربع على أوسع رفة وأفرهها، ومثله يقال لمذكرات وصفي التل رئيس وزراء الأردن الذي اغتيل في بداية السبعينات من القرن المنصرم.

أما لماذا كانت مثل هذه الكتب النادرة، وأحيانا الممنوعة موجودة في السجن؛ فذلك لأن معظم الكتب هنا قد اختارتها لجنة من الصليب الأحمر،

وهي التي رتبت أمر دخولها، ومعلوم أن ما لا يرى الصليب الأحمر بأسا في دخوله هو ما لا ترى الدولة في دخوله أيضا بأسًا، ولم يكن أي شيء يدخل عن طريق الصليب الأحمر خاضعًا للمراقبة أو التفتيش، وفي ذلك نعمة من الله بها علينا هناك في صحراء الجنوب، حيث الصحراء تتمثل في كل شيء، ولا يمكن أن تغادرنا إلا إذا نحن غادرناها عن طريق ما نزرعه نحن فيها من ورود القراءة، فنحيل اليباس فيها إلى خضرة، والجفاف إلى رواء..

ماذا أقول لكم اليوم عن الذين قرأنا لهم؟! عمن أحدثكم بالضبط؟!

وعلى من أدير قلم الذاكرة فأقتنص به شجرة التلقي فأبسطها بين أيديكم لتستظلوا بظلها؟! إلى من أدعوكم لتفيئوا إلى واحاته؟! وعلى أي أرض سألقي الرحال لأعرفكم إلى جماله؟! آه لو كانت الأيام تسعف المفؤودين مثلي!! آه لو كانت الكلمات تسقي العطاشى المحرومين مثلي!! آه ... وماذا تُفيد آه!!.

اتبعوني فإنني ما زلت أحتفظ في جيب قميصي ببعض الورود، وما زلت أملأ كنانتي من قصب الذكرى ... اتبعوني فأنا أحتفظ للذين أحبهم بمنزلة لا تموت مهما تقادم الزمن، ولا تتبدل مهما عصفت الرياح.

ماذا أقص لكم مما قرأت: «الولاء المطلق يعني انعدام الوعي»، «إن جريمة الفكر لا تفضي إلى الموت إنها الموت نفسه» قال ذلك جورج أورويل في رواية 1984.

«هو النص الأوفر سطوعًا والأكثر قوة داخلية، والذي يشمل بأقصى حد من الاختصار التجربة والتاريخ الإنسانيين اللذين دارا تحت نظر الله» قال ذلك هشام جعيط عن القرآن في كتابه: الفتنة؛ جدلية الديني والسياسي.

«إنه الوعي لجماعة من الجماعات تصل إليه فجأة على أساس من تاريخها وتناقضاتها ومشكلاتها وبالتأثير على عوامل الانحطاط في مجتمعها، هي

الوعي المقترن بالعشق والإيمان هذا هو نوع الوعي الذي يحدث فيخلص المجتمع الذي كان قد توقف عدة مئات من السنين بل عدة آلاف من السنين ذلك الوعي يحدث فيه قوة معنوية تفعل فعل سحر مثير للدهشة فتقضي على كل الأشياء التي كان قد اشتد رسوخها في علاقاته الاجتماعية عبر آلاف السنين» قال ذلك علي شريعتي في كتابه: العودة إلى الذات، في حديثه عن الوعي المستقل.

«فمعنى الاستحمار إذًا في تزييف الإنسان نباهته وشعوره، وتغيير مساره عن النباهة الإنسانية والاجتماعية، وأي دافع لتحريف الفرد أو الجماعة عن هاتين النباهتين، هو دافع استحمار وإن كان من أكثر الدوافع قدسية»، قال ذلك أيضا علي شريعتي في كتابه: النباهة والاستحمار.

«كل شيء ساكن، مسالم جدًا إذا نظرت إليه من الخارج؛ الكتب والثقافة وكل شيء آخر، ولكن اجتناب الخطأ مستحيل، ولذلك ثمة نظام خارجي، بينما في الداخل فوضى ولا أحد يستطيع فهم الآخر» قال ذلك مكسيم غوركي.

نمت وبين يدي كتاب ظل يرافقني كأنه حلم في ليلة سرمدية ...

الكتب مذاق الخلود، ونكهة الأمل، ولمسة من شجن، ورفة من عشق ... نعشق فنقرأ!! نجوع فنقرأ! يباغتنا الحرمان فنهرب إلى القراءة، ويأكل الندم أصابعنا فنعيد ترميمها بتقليب صفحات كتاب استبقيناه في ذاكرة حلوة لم تطل المكوث!!

ها أنذا ... أقاوم الكآبة بالنظر إلى صفحة واحدة، يكفي أن أرى سطورًا مبهمة تتناثر في مدى الرؤية لأشعر بشيء من الطمأنينة، أين يبيعون هذه الطمأنينة؟!! وقد كانت إلى اليوم طائرًا حرًّا أنِف أن يدخل معنا داخل هذه الأسوار، بقينا نراقبه على توق من بعيد يحلق فوق الأسوار العالية، وينشر جناحيه على المهاجع النائمة!».

أمواج

عبد الله إبراهيم

سيرة عراقية، ينطبق هذا الوصف على سيرة الناقد العراقي كاتب موسوعة السرد العربية بمجلداتها التسع الدكتور عبد الله إبراهيم، إذ غلب عليها التأريخ للعراق منطلقا من تجاربه الذاتية المتعددة، فبعد وفاة والده وتحمّله مسؤولية المنزل بصفته الأخ الأكبر، ومرارة مرض أمه الذي قاده للتنقل كثيرًا بين مستشفيات العراق أملًا في شفائها منه دون جدوى، أكمل دراسته وذهب إلى القاهرة لدراسة الحقوق لكنه لم يكمل الفصل الأول حتى أعاده أخاه بكذبة قبوله في جامعة بغداد، ليجد نفسه في جامعة مدينته الصغيرة التي هرب منها بحثًا عن تقدير ذاته فأصبح أضحكوتها، لكن حروب العراق آنذاك أجبرته على الالتحاق ضابطًا بالجيش العراقي، ليحاول بكل ما يملك من حيل التنصل من الخدمة العسكرية بالعمل إداريًا في وزارة الخارجية، حتى استطاع التفرغ لإكمال دراساته العليا ليصبح أستاذًا جامعيًّا يدرس في الجامعات العراقية والليبية والقطرية.

تمكنه من الأسلوب السردي جعل أمواجه رقيقة تأخذك إلى مغامرات علاقاته، مستمعًا لنتاج قراءاته، وحوارات صداقاته، التي ساعده في حفظها تدوينه اليومي الذي فرّغ بعضه هنا.

بناء المكتبة

«شغفتُ بالقراءة منذ وقت مبكر، وفي أسابيع قليلة تعلمت أشكال الحروف ورسم بعض الكلمات. وجدتني أتقدم بسرعة بالغة، وفي درس، يقع في الصفحات الأولى من كتابي الممزق، بعنوان «خالد في الغابة» شرعت أهيم بتخيلاتي مع «خالد» في غابته مع الحيوانات التي رُسمت ببراعة: أسود، وفيلة، وزرافات، وطيور، وأشجار كثيفة، وثمار متدلية، وأنهر، وهو يقف مأخوذًا في وسطها. صمّمت، بعد أكثر من ثلاثين سنة، على شراء أرض كبيرة؛ لأزرع غابة كالتي دُهشت بها في طفولتي، وتحقق ذلك كله مع بيت منيف، وطرق معبدة. ولما أصبحت تلك الأحلام حقيقة على الأرض قصفت الطائرات الأمريكية بيتي الذي يتوسط البستان يوم 2015/ 1/ 30 ودمرته، بذريعة القضاء على مسلحي الدولة الإسلامية، ثم استباحته القوات الكردية، ونهبت ما فيه، وفجرت ما تبقى منه بما في ذلك سور المزرعة وبوابتها، وأحرقت مكتبتي التي سهرت عليها أربعين عامًا، ثم جفت مئات الأشجار المثمرة. كان خالد سعيدًا في غابته، وكم سهرتُ أمام صورته على ضوء الفانوس، جوار أمي، وفي حضنها، أشاركه عالمه العجيب، وأحلم أن أكون مثله، ولما تمكنت من ذلك لم تكن لي أم، ولا بستان، ولا مكتبة، ولا وطن!

كأنني أقرن مكتبتي بأمي، وكما أنني لم أفكر بأمي إلا بعد وفاتها، فما فكرت بالكتابة عن مكتبتي حتى فقدتها، ففيها ترحّلت بين الكتب العظيمة التي شغفت بها وحينما كنت يافعا كنت أحلم بأن يكون لي كتاب في رف من رفوفها، ولما أحرقت، وقد أصبحتُ في الثامنة والخمسين من عمري، كان رفٌّ كامل فيها قد احتضن أكثر من عشرين كتابًا لي. لم تكن مستودع كتب،

إنما صرح أتعبد فيه، وأحلم بأن تنتهي حياتي بين جدرانه، فحينما شرعت في تخطيط بناء بيتي أفردت إلى جواره حديقة بنحو من خمسمئة متر مربع لتكون مثوى أخيرًا لي وحينما انتهيت من البناء باشرت في استزراع تلك الحديقة، ورعيتها، لتكون مضافتي الأخيرة وسط البستان الكبير.

جعلت المكتبة الكبرى في الطابق الأعلى بالاتجاه الغربي المشرف على البستان لكي أتنشق النسيم العليل حامل أريج البستان المحيط بالمنزل من كل اتجاه. وقد زينت مستقري بحوالي مئة مصباح على هيئة شموع كبيرة، ولطالما حلمت بالجلوس في الشرفة الشرقية شتاء تجاه الشمس، والشرفة الغربية صيفًا في الظل، وأمامي دورق من القهوة، وأتأمل أشجار النخيل السامقة أمامي، والبساط الأخضر من الأعشاب على مد البصر، فأمضي شيخوختي في مزرعة سلخت من عمري عقدين من الإعداد والزراعة والبناء. لم تكن مكتبتي رفوفًا من خشب الزان صفت عليها المجلدات الثمينة خلف زجاج يقيها من الغبار، فحسب، إنما كانت نعيمًا أنزلق إليه راغبًا ومتلهفًا وباحثًا. وكلما خطوت فيها خطوة رغبت في خطوة أخرى، فلا سبيل لانتشالي من نعيم عجيب تآلفت معه، ورغبت فيه، وما عثرت على نفسي في أي مكان في العالم، كما أرغب أن تكون، إلا في المكتبة. وطوال أربعة عقود رفدتها بأنفس ما اقتنيت، فكانت حقائب الكتب ترسل إليها حيثما أكون، فيزدهر خيالي بها، وهي تستوطن المكتبة، وتأخذ لها مكانًا في رفوفها، مقيمة بألفة إلى جوار الآثار الخالدة التي حجزت لها مكانا في التاريخ، وفي نفسي. أتخيل قصف الأمريكيين لداري، واقتحام الميليشيات الكردية لمزرعتي، وتحطيم بوابتها الحديدية، وإيقاد النار في كل شيء، احترق الدور الأرضي حيث رصفت دورات كاملة من كبرى المجلات الثقافية، ثم طلع اللهب إلى الطابق الأعلى الذي جعلته للروايات والأشعار، فلم يكتف بها إنما طال المكتبة الرئيسة بمساحة مئة متر مربع،

وفيها أودعت أثمن ما تحصلت عليه من مصاحف ومعاجم ومصادر تاريخية وأدبية ودينية ولغوية، فضلا عن مؤلفاتي، وأرشيفي، وأوسمتي، فأتت عليها النار بشراهة تعرفها الكتب القديمة. ثم أتخيل انفجار الزجاج السميك بفعل حرارة الأوراق المحترقة، واندفاع اللهب في كل اتجاه!».

***

قراءة الشعر

«بخيباتي المسرحية المتعاقبة استبدلت الكتاب، فترحّلت، على غير هدى، بين الخواطر الشعرية والقصة القصيرة، متأثرًا بما قرره أرسطو من أن «الدهشة أول المعرفة». وفر لي رفاق المدرسة مناخًا ثقافيًّا غير معهود اختلط فيه الجد بالهزل، ولم يخل من التطلعات الكبيرة، وصرت أشعر بأن تحولًا ما وقع في داخلي خرّب بداهتي وعفويتي، فلم أعد قرويًّا غريرًا، ولكنني لم أصبح بعد مدينيًّا حصيفًا، فقد انقطعت عن حال، ولم أمد جذوري في أخرى، فكأنني أركض ذهابًا وإيابًا في مسار مغلق. لدي عواطف مشبوبة، ولكن مشاعري تغلي، ولا أعرف ما أريد، وكلما مضيت إلى الأمام اكتشفت جهلي بالعالم المحيط بي، ولكن لم يعد من الممكن التراجع، فليس ثمة ما يغريني في الماضي. ونشطتُ في البحث عما يلتصق بفرديتي، ويغذيها، ويقويها، ويضفي عليها معنى، فوجدت ذلك في الكتاب. ومنذ تلك الفترة اعتبرته الصوت الأكثر حيوية الذي أقمت معه الحوار الذي أرغب فيه، وأحلم به، وأنتظره. ولم يخذل أحدنا الآخر.

حينما التحقتُ بالمدرسة المتوسطة في كركوك، أسكنني أخي غرفة ضيقة في بيته الصغير جوار الباب الخارجي، غرفة رطبة، ومتقفعة الجدران، وفيها

سريري الحديدي، ومكتبة صغيرة زينتها، بعد سنوات، بالمجلدات السميكة من الترجمة العربية لـ«رأس المال»، ودواوين الشعر، والمجموعات القصصية، والروايات، وشغلت بالقصائد النثرية لجهلي بالأوزان، وأكثرتُ من الخواطر العابثة. لم تزودني المدرسة بأية كفاءة لغوية على تذوق الشعر الذي ظل عصيًّا علي، وباستثناء وقفاتي الاستعراضية في مدرسة القرية، متقمصًا دور الشاعر الجاهلي، لم أقترب من الشعر، والقصائد التي أحفظها بصعوبة للامتحان أنساها حالًا، وقدرتي على الاستظهار ضعيفة. ولما تعهدتُ تدريس الأدب القديم في الجامعات العراقية، والليبية، والقطرية، كنت أتأبط دواوين الشعراء معي إلى قاعة المحاضرات، وأجد حرجًا بالغًا حينما أطلب نصوصًا للحفظ من طلبتي، وبها أستبدل التحليلات النصية، وأطلب إليهم اقتناء دواوين الشعراء، والإكثار من قراءة النصوص، وندر أن كلفتهم بحفظ قصيدة، وما قبلت لهم ما لم أقبله لنفسي.

بتأثير من القصائد الأولى لشعراء المقاومة الفلسطينية: محمود درويش، وتوفيق زياد، وسميح القاسم، بدأت محاكاة شعرية ساذجة استنفدت طاقتي البكر. أكتب مقطّعات مشوشة، ملأت بها دفاتر عدة، أنسّقها على غرار قصيدة التفعيلة لكنها تأتي متعثرة في إيقاعها، وكثير من ألفاظها ينأى عن المعاني التي أريدها، فلا أدرك جيدا الحقل الدلالي للكلمات. لغتي ضعيفة، ومعجمي ضحل، وأخطائي كثيرة، ولا أجيد الإلقاء، وأجهل البنيات الصرفية للكلمة، وأكاد لا أعرف مخارج الألفاظ، وفيّ كل مساوئ الشويعر المدعي، ومع ذلك انغمرت في عالم الشعر مثل غيري، ولم أسمع بالوزن والقافية إلا بعد سنوات من تلك الممارسة المحاكاتية. اقتنيت دواوين الشعراء، وانجذبت إلى الشعر الغنائي الذي يثير الغرائز والمشاعر، كالدواوين الأولى لنزار قباني، وأخفقت محاولاتي التوغل الحقيقي إلى عالم السياب، والملائكة، والبياتي، وأدونيس.

وتشكلت لدي فكرة عامة عن ريادة العراقيين لقصيدة الشعر الحر، لكن ذائقتي نفرت مما حسبته غموضا في شعرهم. وبمضي الوقت تجنبت تطوير رأي في الشعر لمعرفتي أنني خلو من الاستطاعة على تقديم وجهة نظر فيه؛ فغابت الألفة بيننا.

كانت حقيبتي ملأى بالدواوين الصغيرة، أقرأ في البيت، وفي المدرسة، وفي الحافلة. قراءات لتكوين انطباعات تظهر حالا في خواطري التي حسبتها قصائد لا نظير لها، وما عرفت تمثل الشعر أبدا، وما عبرتُ الهوة التي تفصلني عنه، ومع ذلك دُفعت شاعرًا ناشئًا بين الشعراء في كركوك، نطوف على المنتديات، ونظهر في المناسبات المدرسية، وندعى للاحتفالات الوطنية، وننال الجوائز، وتوارينا بمرور الأيام، ولم يثبت للشعر أحد منا. غامرت وأرسلت بعض خواطري إلى المجلات والصحف، وأظهرت لي مجلة ليبية مقاطع منها في صفحاتها الأخيرة، ثم نشرت لي مجلة «الثقافة» قصيدة كاملة، فاقتنيت نسختين منها، وبقيت أحمل إحداهما مدة طويلة أعرضها منتشيًا على كل من أعرف، ولا أعرف، لأبرهن على كوني شاعرًا. في صيف عام 2003 دفعني الفضول لاستعادة تلك الحقبة، فتشت أدراج مكتبتي، في الطابق العلوي من منزلي في المزرعة غرب كركوك، فعثرت على دفتر سميك غلافه أزرق، وأمضيت قيلولة كاملة أقرأ تلك القصائد التي تزيد على خمسين كتبتها في عام1973 و1974، وفيها ظهر أن قريحتي تفتقت عن خواطر لا صلة لها بالشعر. وقد فقد المخطوط الأزرق مع أرشيفي كله حينما استباحت الميليشيات الكردية بيتي وأحرقته في ربيع 2015.

لم تزودني قراءاتي بمهارات لتقدير الشعر، فكل ما استأثر باهتمامي منه الصور المدهشة. شغفت بالرومانسيين: شيلي، ووردزورث، وقد تعقبت خطى الذكريات، فأمضيت صائفة عام 2009 في منطقة البحيرات، شمالي

غرب بريطانيا، فاستعدت في منزل وردزورث طرفًا من أحلام الصباح وتعقبت خطى بايرون العرجاء، وشغفه بالمحرمات، وإغواء النساء، ومزاجه المتمرد، ونهايته اليونانية؛ فاجتاحتني حمى الأحاسيس المفرطة، وتوهمت دورًا جليلًا ينتظرني في تغيير العالم، ولكنني فجأة تعلقت بفكرة الموت، فغمرني أعلى النموذجحزن ثقيل. كنت مراهقًا، أرى العالم مهمًّا لأنني فيه، وقبل أن أهضم التجربة الرومانسية، اقتحمني الرمزيون الفرنسيون: رامبو، ومالارميه، وفاليري، وبيرس، فتشظيت رمما، وبصعوبة أقمت صلة مع ويتمان، وإيلوار، لكن أكثر شاعرين هفا لهما عقلي في آخر تلك الحقبة: إليوت، وبودلير. اطلعت على القصائد الكبيرة للأول، بدءًا من (أغنية حب لألفرد بروفروك) مرورًا بـ(أربعاء الرماد) و(الأرض الخراب) وانتهاءً بـ(الرجال الجوف). واحتفظت بترجمات عدة لـ(الأرض الخراب)، وتابعت كل ما ترجم لبودلير، واستثرت عجبًا بديوانه (أزهار الشر). وبقيت مهتمًا بالاثنين حتى نهاية المرحلة الجامعية.

دفعني تقمص دور الشاعر الغامض إلى مالارميه الذي يرى أن للقصيدة طبقات كثيرة من المعاني ينتهي آخرها إلى معنى مبهم. على أنني بدأت برامبو، فقد أسرني بسلوكه، ونزقه. كتب الشعر في السادسة عشرة، وهجره في الحادية والعشرين، ومات في السابعة والثلاثين. انخرط في كومونة باريس، وعاش بوهيمية مع فيرلين، وترافقا، وتشردا ومرت علاقتهما بتوترات تخللها إطلاق رصاص، وكانت موضوع ريبة، بل شبهة. رحل إلى عدن، واستكشف المجاهل الشرقية لإفريقية، وهرب السلاح لملك إثيوبيا، ثم تربع تاجرًا في هراري برفقة حبشية، يقايض الجلود والبن والمسك بالسلاح، إلى أن تورمت ساقه، فحمله عبيده عبر بلاد النوبة على أكتافهم. ومن مصر اتجه إلى فرنسا، وقد بترت ساقه، فأدرك غربته، وكتب: «لا أصدقاء لي في هذه الربوع،

وسوف أنطفئ حيث يقودني مصيري. كم أتمنى العودة إلى الحبشة، فلي هناك أصدقاء منذ أكثر من عقد من السنين، وهم الذين سوف يشفقون علي ومعهم يمكن أن أعمل وأعيش كما أرغب. أما في فرنسا فليس ثمة صديق، ولا رفيق، وليس لي أحد». وقد قضى نحبه بالزهري في نهاية خريف1891.

أول ما قرأت لرامبو قصيدته (المركب السكران)، وهي قطعة متوهجة كتبها في السابعة عشرة من عمره، في قريته «شارلفيل» ضمن منطقة «الأردين» التي اجتاحت عبرها الفرق الألمانية المدرعة، خلال الحرب العالمية الثانية، الأراضي الفرنسية. ثم عرفت نثرياته المتقدة (فصل في الجحيم) و(إشراقات)، ودُهشت لقوله إن الشاعر «ينبغي أن يجعل من نفسه رائيًا، وقادرًا على إحداث بلبلة دائمة وحادة في حواسه، بالانغماس في كل تجربة حسية ووجدانية ممكنة، وما غايته من بلبلة الحواس وتعمد تشويهها إلا معرفة الحقيقة الجوهرية الكامنة وراء الظواهر الخارجية والتعبير عنها». ما برح رامبو يطوف في عالمي كأجمل ذكرى، وأخفقت في أن أكون مثله في كل شيء، وما نفعني توهمي بمحاكاته، وعشرات القصائد التي كتبتها في منتصف السبعينيات استوحيت فيها طريقته الشعرية، واحتفظت بها دليل إثبات على إحساسي بالضياع، والاستغراق في محاكاة الآخرين.

وبِكرِّ السنين توهمتُ أن جذوة رامبو انطفأت في أعماقي، وتوارى حضوره إلى خلفية عالمي، وقام بيننا سدٌّ؛ لأنني نبذت تلك الحقبة التي تبوأ فيها مكانة الشيطان الملهم، فإذا به ينبثق عاصفة مدمرة في ربيع1980 حينما كنت أواصل دراستي في جامعة بغداد، بعد أن قرأت كتاب هنري ميلر عنه (رامبو وعصر الحشاشين)، فأعادني إلى هذيانات منتصف السبعينيات. غزاني رامبو، فتخيلته ملاك التمرد، والدنس، والتبرم، والمغامرة، أرنو إليه في أحلامي، وأعيش في خضم الأوهام الكبرى كمُحاكٍ له في كل شيء. وضربتني الوجودية في

الصميم وأحالتني القصائد الرمزية إلى هشيم، ولم أجد أي ملمح أثق به في العالم الذي كنت أعيش فيه. أحكامي سريعة، ورغباتي مفاجئة، وأبدو متبرمًا بكل ما في العالم. أحلامي تطوف كالمجرات، وأجتر تخيلاتي السوداء، وأسعى للتخلص من عالم يضيق بي، لكنني لا أعرف إلى أين أتجه. لم تكن لي بوصلة. عشت جنون القرف والغثيان والسأم. أحيا بين الصمت والرغبة في تحطيم كل شيء، وكدت أفقد قدرة الاختيار، ولا أعرف كيف نجوت في تخطي تلك المرحلة. أقرأ فرويد فأهتم بتفسير أحلامي، وأقرأ سارتر فأقلد (أنطوان روكنتان)، وحينما قرأت (اعترافات) روسو ادّعيت بأن لي حياة سرية أكثر غنى من حياته، وأني في سبيلي للإدلاء باعترافاتي المذهلة. انطباعاتي كانت جزءًا من شعوري بالمبالغة، والمباهاة، والمحاكاة. كنت أضفي قيمة على الأشياء لأبرز أهميتي».

***

قراءة السرد

«في الخريف قرأت رواية (مئة عام من العزلة) لماركيز. اقتنيتها من إحدى مكتبات الباب الشرقي، فخلخلت تصوراتي عن السرد بداية من تذكّر لمسة الثلج في الصفحة الأولى منها إلى العاصفة التي أزاحت «ماكوندو» من الوجود في نهاية الكتاب. قرأتها مرتين متتاليتين، وجدتها بغلاف أزرق سميك، ثم أنشأت ثبتًا لفهارس الأجيال الستة من سلالة «بوينديا» لكي أتتبع التشعبات المعقدة للأحداث والوقائع ولأعرف الأنساب، والزواجات، وعلاقات السفاح، وطيران النساء، وإيقاعات الغجر، وكتائب المحاربين، وتبين لي أن السلالة تنحدر من خوزيه الابن الأكبر لـ «أركاديو بوينديا» المرافق الشبق

للغجريات، وليس من العقيد «أورليانو» الأخ الأصغر، وتابعت سلالة «بوينديا» بشغفها بالحب والقتل من «أركاديو» الأب إلى «أورليانو» الحزين. همتُ بالرواية، وحلمت بأحداثها، وتخيلتها نحوًا من خمس سنوات، في لذة عارمة من التلقي الذي ندر أن حدث لي إلا مع (الدون كيخوته) قبل ذلك، و(اسم الوردة)، بعد ذلك. حينما سئل ماركيز عما أراد قوله فيها، أجاب: «هي حكاية أسرة تظن أنه إذا حدث فيها سفاح محارم، فسيكون للوليد ذنب خنزير، وطوال مئة عام عملت بكل وعيها على ألا يقع المحظور، لكنها، في لاوعيها، بذلت قصارى جهدها من أجل أن يقع». تأويل ماركيز جعل من الرواية إحدى أساطير المحارم، وهي تركيب سردي عارم بالمشاهد الملحمية المعبرة عن الهنود في الكاريبي على خلفيّة من الصراعات والحروب الأهلية. آخر قراءاتي للرواية، وهي الرابعة، كانت في صيف عام 84 حينما أُمرتُ بالتوجه إلى جبهة الحرب بين العراق وإيران، وأنا ضابط مُجنّد، فأتيت عليها بشغف القراءة الأولى بين تلك الجبال الشاهقة فيما وراء مدينة «قلعة دِزَه» آخر مدينة بمحاذاة الحدود مع إيران ليس بعيدًا عن جبال «قنديل» حيث يتمركز «حزب العمال الكردستاني التركي» في شعابها. وما نسيتُ الظهيرة التي غمرت فيها قدمي في مياه النهر المثلجة في شق عميق بين الجبال، وأنا أقرأ الفصل الذي يصور نجاح (أورليانو) في فك رموز رقاق «ملكياديس» في وقت أحدثت فيه مدافع الإيرانيين عاصفة ترابية بقنابلها على قمة جبل «بيرنك» بارتفاع أكثر من ستة آلاف قدم فوق هامتي. وبتأثير من «مئة عام من العزلة» تغيرت تصوراتي عن الكتابة السردية، فطفقت أتخيل مكانًا تدور فيه أحداث قصصي ورواياتي الآتية على غرار «ماكوندو». وعلى هذا سوّدت عشرات الصفحات، أرسم شخصيات سرابية، وكلها ذهبت أدراج الرياح، ولم يبق منها سوى خواطر ملأت يومياتي، ووعود ما تحققت قط، سوى ما جاء في كتابي «رمال الليل» الذي تدور وقائع قصصه كلها في مكان واحد

دعوته «الخشم الأحمر». وصدر في عام 1988 إبان عملي باحثًا في وزارة الخارجية لأربعة أشهر أو دون ذلك. خفت وهج ماركيز في نفسي خلال السنين العشرين الأخيرة من حياته، ولا أدري أينا الذي ضربه التغيير؟ وأيّنا الذي تسبب في فجوة تعذّر ردمها؟ وأينا قطع حبل الوصال؟ أرجح أنني الذي تغيّرت؛ فما عُدتُ قادرا على تلقي رواياته بتلك الهمة التي صاحبته فيها قارئًا مندهشًا في شبابي، فقد نضبت انفعالات القراءة، وحلّ مكانها تذّوق بطيء بذلك العالم الساحر المتخيل. كنت أتلقف جمرات الكتب، وأنفخ فيها ناري، فتتقد فوق اتقادها، وانتهيت، بسبب النظريات النقدية وطرائق القراءة التحليلية، أشد برودة من فيافي الشمال، أعمل على إطفاء جمراتها الملتهبة! بلغني، وأنا في الدوحة، نبأ وفاة ملهمي منتصف ليلة الخميس 17/ 4/ 2014، وكأنه إيذان بفك التحالف القديم فيما بيننا، فقد أصبح فارس السرود الملحمية جزءًا من ذاكرة خَبت فيها الإثارة القديمة، وآلت إلى سجل للذكريات الباهرة.

ثم قرأت كتاب «دويشتر» عن «ستالين» فذهلت من حملات الإبادة الجماعية التي شنها ضد خصومه، بما في ذلك بعض القوميات، وخطرت لي المقارنة بين صدام وستالين، ولبثت المضاهاة في ذهني مدة طويلة، وقد وجدتها صحيحة. ثم قرأت مذكرات «نيرودا» الذي عزفت عن شعره، من قبل، لما رأيت فيه من الهذيان الأيديولوجي، فأخذت منه موقف الجاهل الذي لا يرغب في أن يعرف شيئًا يظن أنه لا يستحق المعرفة، لكن مذكراته أبطلت كل الدعاوى السابقة، وغيرت موقفي، وتشبعت بروح المغامرة النيرودية، وقد استثرت مع الفلاحة من آل «إيرناندیث» التي اغتصبته ليلًا، وهو صبي، على بيدر القمح، وتوارت بين النساء فلم يعرفها. وشغفت بـ«الأرامل الفرنسيات» عاشقات بودلير، ولكنني كلفت بـ«عمر بينغولة» شاعر البقرة، غريب الأطوار، الذي حضر برفقة بقرته المؤتمر العالمي لـ«نادي القلم» في

بيونس أيريس، فكانت تخور وسط القاعة تشارك المؤتمرين جدلهم حول الثقافة اللاتينية».

***

تمثّل المقروء

«بُعيد عودتي من أعالي الجبال دعاني جليل القيسي إلى بيته. تحدثنا عن أسمهان، وعبد الوهاب، وسيد درويش، وسلفادور دالي، وشولوخوف، وانزلقنا إلى حديث عن الأوضاع العامة، فلمست لديه تصورًا رومانسيًّا لأحوال البلاد، فقد تعلق بأوهام أيديولوجية، ولم ينظر إلى ما يجري في العراق إلا عبر منظور ضيق. وفي حياته، وأفكاره، وأدبه، وقع القيسي أسيرا لمقولات تجريدية أسرف في ترديدها، وكان يدرجها في قصصه، ومسرحياته. ووجدت فهمه للحرب ناقصًا، ونظرته نتاج قراءاته وليس تفكيره فيما نحن فيه، وكان يلزم نفسه بخليط من الشعارات الماركسية، والوجودية، ويسقط في التعميم غالبا.

كثيرًا ما أكد القيسي أنني إنسان البعد الواحد الذي خلقته السلطة، مرددًا عنوان كتاب هربرت ماركوز. وعزوت ذلك إلى أنه يفسر مواقفي وآرائي طبقًا لما تقوله الكتب. وبدا لي، وهو الكهل الذي يكبرني بعشرين عاما، معزولًا عن إيقاع الحياة، يستعرض ثقافته النظرية ويجعلها خلفية لأدبه، ونصوصه شاشة لاستعراض قراءاته.

وكنت حريصًا على ألا يفسد خلافنا العلاقة الودية بيننا. لم يدخر وسعًا في تذكيري بأنني أحد مسوخ النظام. ولم يكن أي منا مخطئًا في حكمه على الآخر فقد اقتنعت بأمرين أصبحا جزءًا من ماضي مثل بطانة خاصة لمشاعري

وذاكرتي: معظم ما قاله القيسي عني كان صائبًا؛ فقد كنت أعد نفسي فوضويًا، ولا حدود لحريتي، وآرائي، لكن ذلك كان من الوهم الفردي فقد كنت ضابطًا في جيش نظام مستبد.

من الصحيح أنني كنت مجندًا، ولكن ذلك لا يشفع لي أمام المثقفين غير العارفين بأمري، كان القيسي يرغب في أن أقطع الصلة بكل ذلك لأكون منسجمًا مع نفسي وأفكاري. كان يريدني أن أضبط أخطائي الأخلاقية، وأقنّن التلفيق بين كوني جزءًا من سلطة طاغية، وكوني أديبًا وإنسانًا. ولم أتمكن خلال تلك السنوات من استئصال هذه التوفيقية، ولم أع أنها بمرور الزمن سوف تشطرني شطرين، وسأمر بمرحلة طويلة من القلق قبل أن أعيد الانسجام إلى نفسي وفكري. ولكنني، في الوقت نفسه، لم أنظر بعين التقدير النقدي إلى أعمال جليل الأدبية. إنها مبهرة، أنيقة، غريبة، لكنها افتراضية، مستعارة، تتهرب من إثارة السؤال، وتستلهم عوالم إبداعية أخرى. وحينما أستعيد سجالاتنا، وكثير منها مدون في يومياتي، أجد أنه بذل المستحيل لتنقيتي من شوائب الأخطاء الكبرى، فيما كنت مصمما على الارتكاس فيها، وقد أثمرت نقداته بعد سنوات، في تنشيط الوعي الأصيل الذي خلصني من رهانات الأخطاء الكبرى. أعلن وزير الخارجية طارق عزيز، من أمريكا، في الشهر الاخير من عام 1984 عن عودة العلاقات الدبلوماسية بين العراق وأمريكا بعد قطيعة زادت على عقد ونصف، فشعرنا بقوة ساندة جديدة تنحاز إلينا في الحرب. وبعد نحو شهر من ذلك حلمت بأن الحرب انتهت، وأصبحت ذكرى، وعاد قحطان جابر من أسره الذي وقع فيه إثر مغادرته كلية الضباط الاحتياط، وهو أضخم مما عليه، وقد استطال فكّه، وغارت وجنتاه، وبدا متعبا كأن الحرب نخرت عظامه. تعانقنا بقوة ولكن بجفاء. ثم التأم شملنا، القيسي وعواد وأنا، في نادي الموظفين، وتحدثنا عن قصصي القصيرة، فأكد القيسي

على أنني سأكون ناقدًا «لأنني لا أجيد بناء الحالات الدرامية الحادة التي يجب أن تبنى عليها القصة». استهجنت رأيه، وكتبت، في الليل: «الإنسان يعرف قدرات نفسه، أكثر من الآخرين». لم تمض إلا سنوات حتى تحقق كل ما قاله بحذافيره. في25/ 1/ 1980 أنبئ بنتائج الدراسات العليا في جامعة بغداد، فتلاشت موجة، وبدأت تتشكل أخرى».

***

نقد الكتب

في مرحلة دراسة الدكتوراه «تخلل ذلك الوقت دعابة تعاظمت وكادت تطيح بي، وأنا في مقتبل عمري النقدي، ولم تكن بعيدة عن مخيلاء الصبا، ولا في منأى عن التباغض في المجتمع الأدبي في بغداد، ففي إحدى الأمسيات زارني ثامر معيوف المحرر الثقافي لجريدة «القادسية» وسألني عن الكتاب الذي لم أتمكن من استكمال قراءته، فقلت (الجريمة والعقاب) لدوستويفسكي. نشر الرأي في الصفحة الأخيرة ضمن زاوية صغيرة بعنوان «كتاب في المزاد» ونصه: «الكتاب الذي كنت متهيئا، بصورة كاملة لقراءته، ولم أتممه، هو رواية الجريمة والعقاب لدوستويفسكي، ولطالما قرأت من قبل أقاصيص له، وأعجبت بها، ولما أفلحت في الحصول على الجريمة والعقاب من صديقي جليل القيسي، قبل سنوات، وجدت الرواية نصًا مفككًا، بصورة تثير الشفقة إلى حد بعيد، ودوستويفسكي فيها يحتاج، من أجل أن يعبر عن حال صغيرة جدًا، أو موقف عابر، لا يمثل وحدة أساسية في البنية السردية، إلى عشرات الصفحات التي لا تعدو أن تكون سوى إنشاء يفتقر إلى العناصر الإخبارية والجمالية، مما يوحي بأنه لا يريد أن يقول شيئًا، إن لم نقل أنه لا

يعرف ماذا يريد أن يقول، وقد تكون مثل هذه الأمور ترافق النصوص الأدبية الكبرى، كما نلمس ذلك في «الجذور» لإلكس هالي، و«موبي ديك» لهرمان ميلفيل، و«الدون الهادئ» لشولوخوف، إلا أن هذه الرواية تطمس كثيرا من خصائص المتن السردي، مما جعلني أتوقف عند منتصف الكتاب تقريبًا». ومع ما في الجواب من مكابرة وتيهان، فقد بيّن ذريعة انصرافي عن الرواية.

لم تمض سوى أيام إلا وبدأت حملة تشهير ضارية، أوشكت أن تفتك بي، وتنزع عني الأهلية الأكاديمية. وصرتُ موضوعًا للمقالات الساخرة، ولرسوم الكاريكاتير في الصحف، والمجلات، ونالني كل ما تطويه النفوس من سوء قصد. بدأ الحملة عبد الستار ناصر، فكتب: «عندما انتقل دوستويفسكي إلى رحمة الله، كان يدري أن هنالك غرائب وعجائب كثيرة ستظهر بعد موته، لكنه - مطلقا - ما كان يصدق أن يأتي اليوم الذي يقال عنه ما يقال عن كاتب ناشئ صغير السن».

والتقط نبرة السخرية رياض قاسم، وهو صديق لناصر، فكتب: «يا للحسرة.. لقد ذهبت قراءتنا سدى، فما أحسنا اختيار المقروء، ولا أحسنا إدراك طبيعة كل كاتب وكتاب، وأخذتنا إشاعات حتى اعتبرنا رواية مثل رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» عملًا جيدًا، وكنا ساردين في أوهامنا نتخبط، دون دليل، حتى قيض الحظ لنا كاتبًا، مثل السيد عبد الله إبراهيم الذي فتح منافذ النور، فأفادنا أن رواية دستويفسكي هذه تمثل نصًا مفككًا يثير الشفقة إلى حد بعيد!». وما لبث أن أشيع جو من الفكاهة، حينما نشرت مجلة «ألف باء» مقالة كتبها سامي محمد بعنوان «جريمة دوستويفسكي وعقاب عبد الله!» أرفقت برسم كاريكاتيري يصور ناقدًا يمتطي حمارًا متهالكًا، ينخسه من الخلف ليسير، وهو ينادي على دوستويفسكي، ومما ورد فيها، أن عبد الله إبراهيم يعد «إساءة بالغة إلى الثقافة العراقية التي تمتلك وعيًا

أدبيًّا عاليًا بما أنجزه كبار الكتاب الأجانب، ومن ضمنهم دوستويفسكي، وميلفيل، وشولوخوف»، وانتهى إلى القول بأن ما عبر عنه الكاتب يدل على «قصور في وعيه الثقافي، واعتراف بلا دراية منه أنه قارئ فاشل وغير مؤهل لتقييم عمل إبداعي، ومن هنا فإنني أشك بقدراته الذوقية والنقدية، بقدر ما أسحب منه الثقة فيما يكتب. وإذا كان الزميل منح لنفسه الحق في أن يسيء ضمنًا إلى تشكيل وعينا الثقافي، وذوقنا القائم على سنوات كثيرة من البحث عن سبل المعرفة وأدواتها، فلنا أن نجرّده من أهليته النقدية، ومن ذوقه المعرفي.. وعليه فإن المسؤولية الأدبية والنقدية تحتم على الجميع أن يقفوا بوجه هذه القناعات التي تلحق ضررًا بالغًا في وعينا الثقافي، كما تحتم ألا يدعوا مثل هذه الدوافع المشكوك بنياتها أن تقف وراءها أن تمر بلا حساب».

انتقل الموقف من السخرية والاستعداء إلى تجريدي من المؤهلات الثقافية بوصفي طاعنًا في الذوق الثقافي، ومخربًا للوعي العام، ثم وصل إلى الدفع بوقف دراستي الأكاديمية، فقد كتب الشاعر رشدي العامل مقالة بعنوان «هو الذي رأى» في نوع من المحاكاة الساخرة مع كلكامش، ومما جاء فيها، بعد مقدمة طويلة، أن الرأي الذي صدر بحق دوستويفسكي «رأي غريب لم نجد له مثيلًا لدى أي ناقد أو كاتب آخر، منذ صدور الرواية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى هذا العقد من أواخر القرن العشرين». وعبر عن خيبته «لأن هذا الرأي المدهش جاء متأخرًا جدًّا، وأن أكوامًا من الورق ذهبت سدى سواء تلك التي أهدرت في طبع هذه الرواية بمختلف اللغات العالمية، أو تلك التي ذهبت مجانًا لطبع مئات الدراسات والكتب عنها، كما ذهبت هدرًا أوقات عدد لا يحصى من ألمع كتّاب ومفكري العالم الذين عنوا بدراستها. لقد تأخر مجيء الناقد العراقي كثيرًا، وبذلك فاتت الفرصة أمام أجيال متعددة عندما ضُللت بأهمية هذه الرواية وروعة اكتمالها، دون أن

يقيض لها ناقد يفتح بصرها وبصيرتها».بعد أن جرى تأليب الآخرين عليّ بحجة الشذوذ في الاستنتاجات، انتهى العامل إلى القول: «من المثير في الأمر أن الأستاذ الناقد يتهيأ للحصول على الدكتوراه، وهذا يعني أنه سيغدو، دون شك، أحد الأساتذة الجامعيين الذين تقع عليهم مسؤولية صياغة العقول الشابة لأجيالنا القادمة، وهي مسؤولية ضخمة ودقيقة، ومن هنا فإن لنا الحق في التساؤل عن الحصاد الذي سيجنيه شبابنا في حقول المعرفة الإنسانية الشاملة إذا هم تلقوا معرفتهم وفق هذه الأحكام السريعة والمبتسرة».

أصبح الموضوع مثار تندر الوسط الثقافي في العراق، وحيثما أقتني صحيفة أجد تشهيرًا بي. ولم تظهر غير مقالة يتيمة منصفة وسط هجوم شامل كتبها مدني صالح، جاء فيها: «لم أجد في موقف عبد الله إبراهيم من دوستويفسكي إلا الصدق الذي لا ينقص من قدر دوستويفسكي شيئا، فعبد الله صادق في شرح حاله، ودوستويفسكي عظيم في تأليف أدبه، لا موقف دوستويفسكي يخل بموقف عبد الله، ولا موقف عبد الله يخل بموقع دوستويفسكي، وليس من تناقض ولا تضاد ولا تضارب في قولك إن عبد الله صادق بالموقف، موقفه النقدي، وإن دوستويفسكي عظيم بالموقع، موقعه الأدبي، فذلك من جميل الصدق، وهذا من جميل الإبداع».

تفاعلت الآراء بما يصعب الإحاطة بها، واشترك فيها نخبة من الكتّاب، واختلفوا فيما بينهم، وذهبوا مذاهب شتى، ولم يكتف بعضهم بذلك، إنما بطعن ما أكتب من نقد، وبعض الصحف كانت تنشر مقالتين في آن واحد، كلتاهما تهاجم أفكاري. كانت الحملة شخصية موضوعية، فلم يشر أحد من المهاجمين، على الإطلاق، إلى الذي ذكرته فيما يخص «الجريمة والعقاب» وهو ضعف البنية السردية، فقُرّاء دوستويفسكي يعرفون أن رواياته الكبيرة كتبت بدافع الحاجة إلى المال، فيوقع عقودًا مع ناشري المجلات لإظهار فصول

أسبوعية أو شهرية منها، وغالبًا ما كانوا يستعجلونه للكتابة، وتسليمهم ما بحوزته لأنه لم يفِ به في المواعيد المطلوبة، فيطارده الدائنون، ويلحف عليه الناشرون، فدبّج فصولًا تفتقر إلى الترابط الذي ينهض بمهمة التماسك بين مكونات النص السردي. جاء في رسالة كتبها دوستويفسكي عشية شروعه في كتابة الرواية: «أوشك على البداية في كتابة رواية تحت الكرباج، أي بسبب الحاجة المطلقة إلى النقود، ويجب أن أجعلها مهمتي السريعة». لم تغب عنّي الخلفيات الشيوعية لمعظم المتهمين لي لكنني ما أخذتها في الحسبان، وأرجح أنه لم يبلغهم أن «لينين» لم يحب دوستويفسكي بسبب النزعة الدينية في رواياته، ولم يحتف به من طوال العهد السوفييتي كما حدث مع تولستوي، فلو علموا بذلك ما أمسيت هدفا لسهامهم، إنما نافحوا عن كاتب ورثت بلاده القيصرية الراية الحمراء.

جمعت بعضا من تلك المقالات الكثيرة، وأودعتها ملفا ظل ينتظرني في العراق إلى أن عدت في صيف 2003، فحملته معي إلى الدوحة، وتمتعت به كفصل طريف من ماض راح يتباعد، وينطفئ، فمعظم الذين سخروا مني، واستهزأوا بي، غيبهم الموت خلال السنوات المظلمة التي تلت ذلك، وكما نأيت عن الرد عليهم، وهم أحياء، إيمانًا بحريتهم في تخريج رأيي وتقبله، فالعفة تحول دون أن أبدي تذمرًا مما قالوه عني في وقت كنت أُشكّل فيه وجودي في عالم لم أكن أعرف أنه محكوم بنزعة الولاءات والميول الأيدولوجية. لكنّ تبعات تلك الدعابة كشفت لي نوعًا من التكاره كنت جاهلًا به، وقد رمى حجرًا أمامي كدت أتعثر به، لكنني مضيت غير آبه، على أنه شارف على نزع شهادة الدكتوراة عنّي بعد سنتين».

سيرة ذاتية
مالكوم إكس

في ميتشجان عام 1925 ولد الصغير مالكوم وما إن شبّ إلا وفارق والده الحياة بظروف غامضة ليختل عقل والدته وتدخل المصحة العقلية، فيضطر للانتقال لبوسطن ونيويورك لينضج فيهما، ويتورط بعد ذلك بجرائم أدخلته السجن.

ومن السجن بدأت التحولات، ورحلة الإنقاذ التي غيّرت مساره من اليتيم الضائع إلى قدوة للمسلمين في أمريكا، ومناضلا لحقوق الإنسان، ومعيدًا الاعتبار للزنوج السود الذين طال تعرّضهم للاضطهاد والعنصرية. رغم تأثره بالداعية محمد إيجا إلا أنهم اختلفوا بعد أن حجّ مالكوم لبيت الله الحرام وتعرّف على الإسلام السنّي، ليعود وينتقد الحركات الإسلامية في الغرب، مما عرّضه للاغتيال وإنهاء حياته بطريقة مسرحية عام 1965. أطلقت مجلة تَيم على السيرة الذاتية لمالكوم إكس لقب «واحدة من ضمن عشر كتب غير روائية واجب قراءتها»، وتناولها بالدراسة عدد من النقّاد مثل: هارولد بلوم وجون إدجار.

ساعده في كتابة هذه السيرة الصحفي أليكس هالي، الذي كان يلتقي به يوميًّا لمدة ساعة أو ساعتين في السنوات الأخيرة من حياته، يسمع منه القصة ويدونها.

جامعة الكتب

«قد لا يصدق الكثيرون ممن يسمعونني اليوم أتكلم شخصيًا أو على شاشات التلفزيون أن مستواي الثقافي هو السنة الثالثة من الثانوي فقط والسبب هو الدراسة التي قمت بها في السجن والتي بدأتها في سجن شالزتاون عندما بهرني بيمبي بثقافته وقدرته على إدارة دفة الحديث فبدأت أحاكيه وأقرأ مثله ولكن لم يكن هناك من كتاب ألتقطته إلا وأجد كلمة إن لم أقل كل الكلمات في بعض الجمل تبدو وكأنها باللغة الصينية، ولكنني عندما كنت بكل بساطة أتجاوزها كنت أفهم قليلا ما يتحدث عنه الكتاب.

وهكذا عندما جئت إلى سجن نورفولك كانت قراءتي على هذا المنوال، ولولا قوة الحافز لما استمررت فيها، ثم خطر لي أن ألجأ إلى المعجم لتعلّم بعض الكلمات وأن أواظب على تحسين خطي الذي لم يكن رديئًا وحسب، بل كان أيضًا يزيغ عن الخط المستقيم بشكل شنيع فذهبت إلى مدرسة السجن وطلبت معجمًا ولوحًا وبضعة أقلام وانزويت في الزنزانة وقضيت يومين في تقليب أوراق المعجم على غير هُدى. وأذهلني عدد ما يحتويه من كلمات فاحترت ولم أعرف من أين أبدأ، ثم شرعت لمجرد أن أشرع في شيء أنسخ الصفحة الأولى بجهد جهيد وخط مخلخل. نسختها على اللوح بنقطها وفواصلها واستغرق ذلك يوما كاملا. وفي الأخير قرأت على نفسي ما نسخته بصوت عالي مرارًا وتكرارًا.

واستيقظت في اليوم التالي مزهوًّا فوجدت ذكرى تلك المفردات في رأسي. سرني أنني كتبت كل تلك الكمية من الكلمات التي لم أكن أعلم بوجودها وأنني تذكرت، وإن بجهد، معاني أكثرها. وعدت إلى الكلمات التي لم

أتذكرها فراجعتها جيدًا. والغريب أنني عندما أفكر في تلك الصفحة تنبثق في ذهني الآن كلمة «خنزير الأرض» وبجانبها صورة حيوان أفريقي ضرعي طويل الذيل والأذنين، يسكن في جحور يحفرها تحت الأرض ويعيش من النمل الذي يصطاده بلسانه الطويل.

وسرّني عملي فهجمت على الصفحة التالية فما بعدها حتى أنهيت باب حرف الألف. كنت مع كل صفحة جديدة أتعلم المزيد عن الأماكن والأعلام والأحداث التاريخية. إن المعجم دائرة معارف مصغرة.

وتحسنت سرعتي فانتقلت إلى باب حرف الباء وهكذا حتى نسخت المعجم بأكمله خلال المدة المتبقية لي في السجن، أي ما لا يقل بغالب ظني عن مليون كلمة بما فيها الرسائل. وأصبحت قادرًا على أن أفتح كتابًا وأفهم ما فيه، فأقبلت على القراءة بنهم شديد وأصبحت لا أُرى إلا وفي يدي كتاب ولم تعد هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تنزعني منه، وفتحت لي القراءة الأبواب على دنى عجيبة.

كنت موزعًا بين تعاليم السيد إلايجا محمد وقراءاتي ومراسلاتي وزواري الذين كانوا في العادة إيلا وريجينالد، فمرت بي الأيام من دون أن أشعر أو أحس أنني سجين، والحقيقة أنني كنت، حرًّا في ذلك الوقت أكثر مني في أي وقت مضى.

كانت مكتبة سجن نورفولك في بناية المدرسة، وكان الأساتذة الوافدون من جامعتي هارفارد وبوسطن وغيرهما يدرّسون بها جملة من المواد التي كانت تعقد فيها مناظرات بين السجناء في مواضيع مثل: «هل تغذية الرضيع بالحليب واجبة؟».

وكانت هذه المكتبة تتضمن كتبًا في مواضيع عامة، وكان جزء كبير من

مجموعة كتب بارهورست ما يزال في صناديقه، آلاف الكتب القديمة بعضها بأغلفة حائلة تبدو لشدة قدمها كالرقع. لقد وجد هذا الرجل ما يكفي من المال والاهتمام فجمع كتبًا نادرة في التاريخ والدين، كما سبق القول، كانت أية جامعة في أميركا ستعتبر الحصول عليها مفخرة.

وكان موظفو سجن نورفولك الذي تعد إعادة التربية فيه أسبق الأسبقيات يستقبلون النزلاء ببشاشة إذا عهدوا فيهم اهتمامًا خاصًّا بالقراءة. وكان هناك بالفعل من كانوا يقرؤون بلا انقطاع ولا سيما الذين يشاركون في المناقشات، بل كان من بينهم من كان ينعت بدائرة معارف متنقلة ويعتبر من نجوم السجن. وعندما بدأت أفهم ما أقرؤه وانفتح لي ذلك العالم الجديد، بدأت بدوري ألتهم الكتب وأستعير فوق ما يسمح به قانون المكتبة وأقرأ أكثره في الزنزانة.

وتقدمت فبدأت أقرأ الكتب الجدية، ولكن انطفاء الضوء في العاشرة مساءً كان يثير سخطي إذ كان يأتي وكأنما بالقصد عندما أكون غارقًا في موضوع هام.

وكان في الممر لحسن حظي مصباح قريب من باب زنزانتي فبدأت أجلس على البلاط وأقرأ بعدما تتعود عيناي على ضوئه الخافت، حتى إذا ما سمعت الحارس وهو يمر بالزنازن على رأس الساعة قفزت بسرعة إلى سريري وتظاهرت بالنوم إلى أن يمر فأعود إلى مكاني وأواصل قراءتي حتى الثالثة أو صباح كل يوم بحيث لا أنام إلا ثلاث أو أربع ساعات في الليلة ولكن ذلك لم يكن مهما لأنني كنت قد تعودت على قلة النوم وأنا في الشارع.

وكان قد لفت انتباهي بشدة كلام السيد محمد إلايجا عن احتكار الرجل الأبيض للتاريخ ونسبته إياه إلى نفسه في الكتب وطمسه على آثار الرجل الأسود وإماتة ذكره، ولم أكن قد نسيت درس التاريخ الأميركي في السنة

الثانية من الثانوي بمايسون الذي غُطّي فيه تاريخ الزنوج بفقره والذي أمتع فيه الأستاذ نفسه بنكتته عن ضخامة الأقدام الزنجية التي تترك حفرة في الأرض.

وإذا كانت تعاليم السيد محمد قد انتشرت في أميركا ووصلت حتى إلى الزنوج الذين لم يُسْلموا فذلك لأنها تعكس واقعهم، إذ كان بالفعل لا يكاد يكون هناك زنجي واحد أو حتى رجل أبيض واحد سبق له أن قرأ في كتاب أي شيء عن دور السود في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية.

وحثني ذلك فيما يخصني على البحث فعثرت على سلسلة كتب أثرت فيّ تأثيرًا شديدًا حتى أنني اقتنيتها فيما بعد لتقرأها بناتي. كانت مليئة بصور اكتشافات أثرية وتماثيل تعود إلى حضارات غير أوروبية وكانت بعنوان: «عجائب الدنيا».

وعثرت على كتب مثل «قصة الحضارة» لـ ويل ديورانت، وكتاب «موجز التاريخ» لـ ه. ج ويلز، و«أوراح القوم السود» لدوبوا الذي أعطاني فكرة عن السود قبل مجيئهم إلى أميركا وكتاب «التاريخ الزنجي» لكارتير وودسون الذي فتح عينيّ على الإمبراطوريات السوداء والصراعات الزنجية الأولى من أجل الحرية.

وقرأت المجلدات الثلاثة من كتاب روجرز المسمى: «الجنس (العلاقة) والجنس (النوع البشري)» التي تتكلم عن اختلاط الأجناس قبل مجيء المسيح وتقول أن كاتب الأساطير الإغريقي آيسوب كان أسودًا وتتحدث عن الفراعنة الأرض. والإمبراطوريات القبطية العظيمة وإثيوبيا أقدم حضارة سوداء مستمرة على الأرض.

وَحَدتْ بي نظرية السيد محمد حول تكوين الرجل الأبيض إلى قراءة

كتاب «اكتشافات في علم الوراثة» للراهب الأسترالي ماندیل بعدما رجعت إلى المعجم لمعرفة المقصود بعلم الوراثة. قرأت هذا الكتاب وأعدت قراءته ودرست الأجزاء التي تقول إن بالإمكان الوصول إلى تكوين جنس أبيض انطلاقًا من الجنس الأسود ولكن العكس مستحيل لأن الكروموزومة البيضاء بطبيعتها تنازلية. وحيث إن هناك إجماعًا على أنه لا يوجد إلا إنسان أول واحد فإن من البديهي أنه كان أسود.

وخلال السنة الماضية استعمل أرنولد توينبي في جريدة نيويورك تايمز لفظ مبيض (مغسول بالسائل المبيض) لوصف الرجل الأبيض فقال بالحرف: «الجنس البشري المبيض، المنحدر من شمال أوروبا ...»، كما وصف الحيز الجغرافي الأوروبي بشبه الجزيرة الآسيوية وقال إنه لا يوجد شيء اسمه أوروبا وأننا إذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أن أميركا نفسها امتداد لآسيا، ولكنه شارك في التحريف الجماعي الأبيض عندما قال: إن أفريقيا هي القارة التي لم تنتج تاريخًا، ولكنه لن يعود إلى كتابة مثل هذا الكلام بعدما ظهرت الحقيقة للعيان.

ووجدت في هذه الكتب أوصافًا لما تعرّض له العبيد من أهوال فأثرت فيّ إلى درجة أنني بدأت أستعملها في مخاطبتي للسود عندما أصبحت داعية للإسلام إلى جانب السيد محمد. إن الجرائم والآثام التي ارتكبها الرجل الأبيض في حق الإنسان الأسود منذ جاء به إلى أميركا، والدماء التي لطخ بها يديه، كما ورد في كتاب فريدريك أولمستيد، لشيء لا يصدقه العقل.

وقرأت ما كتبته الأوروبية فاني كيمبال التي تزوجت أحد مُلّاك العبيد في الجنوب والتي قالت إنه كان يحط من قدرهم إلى ما دون رتبة البشر. وقرأت بالطبع «كوخ العم طوم»، ولعلها الرواية الوحيدة التي قرأتها ضمن الكتب الجدية وكان هناك بين مجموعة با كهورست مناشير للجمعية المناهضة للرق

في منطقة نيو إنغلاند فقرأتها أيضا وقرأت من أصناف التعذيب التي كانت تمارس على العبيد ورأيت صور إماء شُدِدن بالحبال وضربن بالسوط وأمهات انتزع منهن أطفالهن إلى الأبد وكلاب تطارد العبيد ومتعقبي العبيد الهاربين وهم مدججون بالسياط والهراوات والسلاسل والمسدسات. وقرأت أن الواعظ الزنجي نات تورنر كان يركز على خشية الله عندما يخاطب الأسياد. لم يكن من ذلك النوع الذي يعد الزنوج بالعاقبة في الدار الأخرى ويدعوهم إلى كسب حريتهم «بالطرق السلمية». كان هو نفسه عبدًا في إحدى مزارع فرجينيا. وفي 1831 قاد تمردًا استمر ليلة واحدة بدأه بسبعة عبيد وأنهاه بسبعين وقتل فيه سبعة وخمسون من البيض وأرهب الباقين فاعتصموا بالبنايات العمومية والغابات أو خرجوا من الولاية إلى غير رجعة. واحتاجت فرقة من الجيش إلى شهرين للقبض عليه وتقديمه للمشنقة. وقد قرأت في كتاب ما أن عملية تورنر هذه ألهمت بعد ثلاثين سنة جون براون في تخطيطه لغزو فرجينيا والهجوم على هاربر فيري بمساعدة ثلاثة عشر رجلا أبيض وخمسة زنوج.

وقرأت هيرودوتس أبا التاريخ أو بالأحرى قرأت عنه. وقرأت تاريخ الأمم ففتح عيني على كون الرجل الأبيض حيثما وجد يتصرف تصرف الشياطين فينهب ويغتصب ويريق الدماء ويستنزف سكان الأرض غير البيض. قرأت أيضًا كتاب ويل ديورانت «قصة الحضارة الشرقية» وتقارير المهاتما غاندي عن كفاح الهند لإخراج البريطانيين. وكنت أخرج من كل واحد من هذه الكتب بمزيد من الدلالات على أن الرجل الأبيض استغل شعوب الأرض أجمعها أسودها وأسمرها وأحمرها وأصفرها على حد سواء، وأنه تحت ستار التجارة والمسيحية سخّر البحار منذ القرن السادس عشر لإشباع شهوته في النهب والسيطرة، فلم يحمل الصليب أبدًا بين من ليسوا بيضًا على شاكلة المسيح بحلم وتواضع.

رأيت كيف استعمل القراصنة الانتهازيون البيض أساليب فاوست فجعلوا من مسيحيتهم أداةً لشنّ غزواتهم الإجرامية ورموا باسمها ثقافات وحضارات أخرى بالكفر والوثنية قبل أن يشرعوا في سفك الدماء.

قرأت كيف دخل البريطاني الأبيض الهند في 1759 بالغش والمناورة وبها نصف مليار من السكان المتدينين. دخل تحت غطاء شركة الهند الشرقية ثم انتشر انتشار الطفيليات، وعندما ثار عليه بعض السكان في 1957 قام بتنفيذ ثاني أكبر جريمة إنسانية بعد تجارة الرقيق الأفريقي فقاد مذبحة وحشية لم تكن هناك حاجة إليها اللهم إلا إبادة شعب غير أبيض.

لقد أسفرت تجارة الرقيق عن قتل واستعباد ما ينيف عن 115 مليون أفريقي أي ما يناهز عدد سكان الولايات المتحدة في 1930. ولما قضى البيض حاجتهم من بضاعة أفريقيا البشرية قامت سلطاتهم، آكلة اللحم البشري بتوزيع مناطق أفريقيا فيما بينها ثم مارست سفاراتها ولمدة قرن لعبة تسلطها المكشوف من رأس هورون إلى القاهرة.

كنت قد غرقت في هذا النوع من القراءات حتى لم يعد بوسع عشرة حراس ومدير السجن أن ينتزعوني منها وخرجت بما يدعم رأي السيد إلايجا محمد أن البيض فعلًا عاملوا غيرهم من الشعوب معاملة الشياطين.

إن وسائل الإعلام تعكس اليوم خوف الرجل الأبيض من الصينيين ولكنني عندما أسمع من يقول إنه لا يفهم لماذا يكرهه الصينيون إلى هذا الحد لا تملك الذاكرة إلا أن تعود بي إلى ما قرأته وأنا في السجن عما تعرضت له الصين على يد أسلافه السفاحين في وقت كان شعبها فيه مكسور الجناحين وحسن الظن فقابلو ذلك بترك تجارهم «المسيحيين» يغرقون بلاده بالأفيون وينشرون آفة الإدمان بين شبابها. وعندما قامت حكومتها اليائسة في 1939 بإتلاف 20 ألف صندوق من الأفيون أعلن عليها الرجل الأبيض ما يعرف بحرب

الأفيون. تصوّر! أعلنوا الحرب على شعب يرفض أن يتخدر!

وغلبت الصين بالبارود الذي اخترعته وأكرهتها اتفاقية نانكينغ على تعويض الرجل البريطاني الأبيض عن الأفيون الذي أتلفته حكومتها وعلى ترك موانئها مشرعة في وجه تجارته وتسليم هونكونغ لحكومته وتخفيض الضرائب على السلع البريطانية إلى أدنى حد فأدى ذلك إلى إغراق أسواق الصين بالبضائع البريطانية وعرقلة نموها الصناعي. وكانت حرب الأفيون الثانية فغُلبت الصين من جديد وظهرت اتفاقية تيانتسين التي جعلت تجارة الأفيون في الصين قانونية وأعطت للبريطانيين والفرنسيين حق الإشراف على الجمارك الصينية وعندما حاولت الصين تأجيل مصادقتها عليها نُهبت بكين وأُحرقت. وتمرد الصينيون في 1901 فرفعوا شعار: «اقتل الشياطين الأجانب البيض!» ولكن تمردهم أُخمد فأُخرجوا من أحياء بكين الراقية وعلّق فيها المتعجرف الأبيض لوحات تقول: «يمنع دخول الصينيين والكلاب». ويتساءلون لماذا أغلقت الصين أبوابها في وجه الغرب بعد الحرب العالمية الثانية؟ لقد مكنها ذلك على كل حال من تحقيق منجزات علمية وصناعية تضمنها كتاب نشرته في المدة الأخيرة مجلة لايف. وذكر بعض المراقبين من داخل الصين أن العالم لم يشهد حملة كراهية منظمة ضد البيض كالتي شهدتها الصين التي ينتظر أن يبلغ عدد سكانها بعد خمسين سنة نصف عدد سكان العالم، ويبدو مع دخولها حقل التجارب النووية أن الفلك قد دار دورته. ونحن نشهد الآن ظهور نظام لوني عالمي جديد في الأمم المتحدة يمكن أن يقال عنه إنه حلف لغير البيض شجبه منذ أيام ممثل الولايات المتحدة ووصفه بـ «لعبة اللون». ولم يكن على خطأ وإنما كان يجابه الحقيقة وإن كان شجبه ذاك قد بدا شبيهًا باتهام جيسي جايمس لعميد الشرطة بحمل السلاح وكأن البيض لم يمارسوا لعبة اللون على مر التاريخ في أبشع صورها. وهكذا كان السيد إلايجا دون أن يدري قد فتح لي آفاقًا بلا حدود.

واكتشفت الفلسفة فحاولت أن أقرأ معالم تطورها وقرأت بالتدرج معظم فلاسفة الشرق والغرب فأحببت الشرقيين وانتهى بي الأمر إلى استنتاج أن أكثر فلاسفة الغرب اقتبسوا من فلاسفة الشرق. سقراط مثلًا ثبت أنه سافر إلى مصر واطلع كما تقول المصادر على بعض أسرارها واستقى ولا شك بعض حكمته من حكمتها.

لقد غيرت القراءة مجرى حياتي تغييرًا جذريًّا ولم أكن أهدف من ورائها إلى كسب أية شهادات لتحسين مركزي وإنما كنت أريد أن أحيا فكريًّا. وأظهر لي اكتشافي للقراءة أن الجنس الأسود في أميركا يعيش أصم، أبكم، أعمى.

منذ أيام اتصل بي هاتفيًّا من لندن كاتب إنجليزي وطرح على بعض الأسئلة من ضمنها سؤال عن الجامعة التي تخرجت منها فقلت له: «الكتب». ذلك أنني ما إن أجد عندي ربع ساعة من الوقت الشاغر حتى أملأه بقراءة شيء أنفع به الإنسان الأسود.

لقد ألقيت بالأمس محاضرة في لندن وطيلة مسافة الرحلة بالطائرة ذهابًا وإيابًا درست وثيقة حول تفكير الأمم المتحدة في تأمين حقوق الإنسان لأقليات العالم التي تعيش تحت القمع، فقلت في نفسي إن الأقلية السوداء في أميركا هي الأقلية التي تعيش أكبر قمع في العالم وأنه إذا كانت قضيتها لم تُدوّل فذلك بسبب كلمتي «الحقوق المدنية» اللتين صبغتاها بصبغة المحلية. وهل يعقل أن يحصل الإنسان على حقوقه المدنية وهو لم يحصل بعد على حقوقه الإنسانية؟

لو أن الإنسان الأميركي فكر في حقوقه كإنسان واستطاع أن يقتنع بأنه من أعظم شعوب الأرض لوجد أنه صاحب قضية بحجم ما يعرض على الأمم المتحدة. أربع مائة عام وهو يعرق ويدمى من أجل أميركا وما يزال يستجدي حقوقًا يحصل عليها غيره بمجرد ما تطرحهم السفن على التراب الأميركي.

ولكن دعني أعود إلى موضوع الإنكليزي الذي سألني عن الجامعة التي درست فيها والذي قلت له إنها الكتب. قلت له أيضا: إنها «مكتبة جيدة».

وبالفعل ما زلت لا أركب الطائرة إلا وبين متاعي اليدوي كتاب أريد أن أقرأه وهذا يعني أنني قد قرأت في الطائرة وحدها عددًا هائلًا من الكتب. ولو لم أكن أخوض حربًا ضروسًا ضد الرجل الأبيض لأمضيت بقية عمري في القراءة وإشباع رغبتي في المعرفة. ومن هذه الناحية لا أظن أن هناك شخصًا استفاد من السجن كما استفدت أنا منه، ذلك أنني لم أكن لأتعلم في الجامعة قدر ما تعلمته في السجن. الجامعة فيها في نظري أكثر مما ينبغي من الملاهي التي تشغل عن الدراسة مثل اتحادات وجمعيات الطلبة وما إليها. وعلى كل حال لم يكن هناك فيما يخصني إلا السجن لتوفير جو يساعدني على مكافحة جهلي والتصدي له بالدراسة المستفيضة التي كانت تستغرق أحيانا، خمسة عشر ساعة في اليوم.

قرأت شوبنهاور وكانط ونيتشه. لا أذكرهم من باب الافتخار وإنما لمجرد ذكر أسماء من قرأت لهم سيما وأن الفاشية والنازية قد قامتا كما يقال على أفكارهم، زد على ذلك أنهم كانوا يمضون أكثر وقتهم في مناقشة السفاسف.

وأثر فيّ سبينوزا بعض الوقت عندما اكتشفت أنه أسود، يهودي إسباني أسود، انتهج مذهبًا وجوديًّا يقول بشمولية الله أي أن الله هو كل الموجودات فكفره اليهود وصلّوا على روحه تلميحًا إلى أنه مات في نظرهم ونفوا أسرته إلى هولندا بغالب الظن.

دعني أقول لك. لقد وجد تيار الفلسفة الغربية نفسه في مأزق. حفر للإنسان الأسود حفرة سقط فيها. خطط بعناية مرضية لطمس معالمه وها هي اكتشافات الحفريات في أفريقيا تدل على أن الإنسان الأسود بنى حضارات عظيمة في الوقت الذي كان الرجل الأبيض فيه لم يخرج بعد من كهوفه. أجل

في الأراضي الموجودة جنوب الصحراء الكبرى، حيث تم اختطاف أسلافنا يتم الآن استخراج منتوجات ومنحوتات وأشياء تعود إلى حقب قديمة وتعد من أروع ما أبدعته يد الإنسان. ومتحف نيويورك للفن الحديث يعرض مجوهرات ذهبية وأشياء فريدة أخرى.

لقد طمس الرجل الأبيض على تاريخ السود إلى درجة أن الأساتذة السود لا يعرفون منه إلا النزر اليسير. وعندما حاضرت في الكليات السوداء هرع دكاترتها، مغسولو الدماغ، المتخلفون عن الركب بخمسين عامًا، الذين يسحبون وراءهم أذيال شهاداتهم، هرعوا إلى الصحافة واتهموني بالعصبية. ولو كنت عميدًا في إحدى كلياتهم تلك لأغلقتها إن دعا الأمر وأرسلت طلبتها إلى أفريقيا لينقبوا عن المزيد من البراهين التي تثبت عظمة جنسنا. ولكن الرجل الأبيض هو الذي يحفر الآن في أفريقيا وينقب حتى أن فيلًا واحدًا لا يكاد يتحرك هناك دون أن يتعثر برجل أبيض يحمل مجرفة في يده وحتى أنه لا يكاد يمر أسبوع من دون أن نقرأ عن اكتشاف المزيد من حضارة أفريقيا المفقودة. وليس الجديد في أنها موجودة ولكن الجديد أن الرجل الأبيض فكر في استخراجها. هناك أنثروبولوجي بريطاني يدعى الدكتور لويس س. ب. ليكي، يعرض حاليًا بقايا عظام بشرية تعود إلى أكثر من مليون وثمان مائة ألف سنة قبل المسيح عثر عليها في طنجنيقا بأفريقيا وهي مكونة من قدم وجزء من يد وبضعة فكوك وأجزاء من جمجمة يقول إنها جاءت بمعطيات يتحتم على ضوئها إعادة تأريخ أصل الإنسان.

إن ما قيل للسود عبر الأجيال، وللبيض أيضًا، من أنهم جنس لا تاريخ له هو لجريمة في حق أطفال أدركوا قبل أن يتعلموا الكلام أن آباءهم مقتنعون بوضاعتهم فكبروا وعاشوا وماتوا وهم مستعِرّون من لونهم ولكن ها هي الحقيقة تظهر الآن».

رحلة جبلية رحلة صعبة

فدوى طوقان

الفتاة الفلسطينية التي اختير اسمها من أحد الكتب التاريخية التي أدمن والدها قراءتها، ونشأت في بيت يرفض ذهابها إلى المدرسة للتعلم، ويمنع خروج النساء من المنزل للتنزه إلا مرة واحدة في الشهر وبرفقة أخواتها، المقلل من شأن المرأة عموما، كيف تعاملت مع «دار أشبه بحظيرة كبيرة تملؤها الطيور الداجنة، يلقى إليها بالعلف فتزدرده دون نقاش»؟، كيف تغلبت على صعوبات العيش أثناء بدايات الاحتلال الصهيوني، كيف تعلّمت ذاتيا في المنزل، حتى تمكنت من صناعة اسم أدبي لامع يضاهى أدباء الجاهلية في حسن نظم الشعر حتى قال عنها مؤرخ الأدب العربي عمر فروخ: «هذه الشاعرة الناشئة تذكرنا بأبي تمام والمتنبي».

رحلة صعبة، ملأتها فدوى بالعبر والرسائل عن هموم المرأة العربية بصراحة ووضوح، وبأسلوب بالغ الجمال والعذوبة، لتجعل من مذكراتها عملًا أدبيًّا رفيعًا ووثيقة اجتماعية لجيل بأكمله، كما تقول رجاء النقاش عنها.

عن الحب، الحرية، العزلة، السفر، أخيها إبراهيم، القراءة، الشعر، الحنين، الحياة «التي لا تحتسب إلا بالإحساس والشعور، كم هي جميلة انفعالات الحياة، وهل نرجو أكثر من أن تكون لدينا القدرة دائمًا أن نحياها بشكل غير حيادي».

«من سوء حظي أنني خلقت، أو رُبيت، على المبالاة بما يقوله الآخرون عني. وهكذا ظللت حريصة بين الجماعة على أن أعبر عن نفسي بغير ضجيج أو ادعاء. ولقد بلغ من شدة حساسيتي أن اتخذت لي دائمًا قناعًا يخفي عن الآخرين ما تضطرب به روحي. وكان هذا القناع سلاحًا ضد الفضول الجارح سابر الأغوار.

للنابلسيين قوانينهم الاجتماعية الخاصة، ولكي يرضى عنك الناس يجب عليك المحافظة على تلك القوانين، وكان أهمها ألا تتخذ بين الجماعة الموقف الذي يظهرك أكثر معرفة وإلا فأنت المغرور المدعي البغيض إلى النفوس. إن الانتقاد التهكمي اللاذع صفة عامة للنابلسيين. لذلك لم أسمح لنفسي أن تفرض نفسها على الآخرين بالحديث عن موضوعات بعيدة عن اهتمامهم، وفقدت الرغبة في الجدال والأخذ والرد. وفي أكثر الحالات كان تواصلي مع الناس مجاملة دون أن اقترب منهم اقترابًا قلبيًّا.

في الفترة ما بين الثلاثينات والأربعينات لم يكن يسمح لي بالخروج من المنزل إلا بصحبة بعض أهلي - أمي مثلا أو عمتي وأخواتي وبنات عمي - لم يكن هناك من متنفس غير الزيارات. ولم يكن هذا الجو يستهويني على الإطلاق، ولكني كنت اضطر لمصاحبتهن أحيانًا رغبة في الخروج من ضغط الجدران العالية ولو لساعتين من الزمن، وعلى أية حال لم يكن يسمح لأمي ولنساء العائلة الأخريات بالخروج من البيت أكثر من مرة في الشهر أو الشهرين.

كانت الصفة العامة للنساء في ذلك الحين هي أمية العقل، ولم يكن تحصيل

من يعرفن القراءة والكتابة ليتجاوز مرحلة التعليم الأولى. كانت هناك قلة قليلة ممن أكملن دراستهن في (دار المعلمات) الحكومية في القدس، وكان أعلى مستوى في دار المعلمات هو الصف الثاني الثانوي.

كان لفئة معلمات المدارس في نابلس وغيرها من مدن فلسطين قيمتها الاجتماعية واحترامها في عيون سكان البلد. فكانت المعلمة تمتاز دائمًا بالثقة بالنفس والاعتداد بالذات. ولقد شكلت المعلمات في نابلس فئة اجتماعية معينة، وأصبح الانتماء إلى هذه الفئة قيمة تتطلع إليها كل فتاة طموحة. لقد عرفت الفتاة المعلمة لأول مرة شيئًا من الاستقلال الاقتصادي، وأصبحت تشارك أباها أو إخوتها في القيام بتكاليف معيشة الأسرة. وكفاها أنها لم تعد عالة على أهلها، بغض النظر عن كونها أصبحت عنصرًا اقتصاديًّا مساعدًا في البيت.

على أن ذلك لا يعني أنها تحررت من المفاهيم الاجتماعية المتخلفة أو السائدة، فقد ظلت ترضخ لمجتمع التحفظ والتقاليد والتبعية للرجل، لأن درجة تعليمها كانت محدودة جدا فلم تبلغ مبلغًا يغير شخصيتها إلى حد الاستقلال الشخصي والثقة بطاقاتها وإمكانياتها. لقد ظلت في جو حماية الرجل والاتكال عليه: حتى شريك الحياة لم يكن لها الحق في اختياره. كما أنها ظلت تحت رحمة الأخ حتى لو كان عاطلًا ولا خير يرجى منه لنفسه أو للعائلة أو للمجتمع.

ولكن على أية حال ظل وضع المعلمة أفضل بكثير من وضع سواها، مما أوجد في نفسها إحساسًا بالتفوق في المجتمع النسائي الذي يحيط بها، وكان هذا الإحساس يؤثر على سلوكها الاجتماعي ويلوّنه بألوان الغطرسة والغرور والتخايل بالشخصية.

في ذلك العهد لم تكن للمعلمات صلة ودية مع الكتب خارج نطاق المدرسة

ولم يكن يعنيهن تثقيف أنفسهن بالمطالعة الجادة، بل كان اهتمامهن مصبوبًا على الملابس الأنيقة وتجميل المظهر الخارجي، فقد كن من ناحية اقتصادية قادرات على إشباع حاجتهن المادية.

وهناك، بالتأكيد، استثناء يشذ عن القاعدة دائمًا، ولكنه لا يغير من الحقيقة والواقع بصورة عامة.

هذه الفئة من المعلمات غير القارئات كانت تلقاني بروح غير ودية، وأحيانا بروح عدائية، ما عدا واحدة من اللواتي خرجن عن الصورة العامة، وتفردن بطلب المعرفة وتثقيف الذات وكانت (ست فخرية الحجاوي) معلمتي السابقة في مدرسة العائشية، والتي كانت دائما تخصني باهتمامها ورعايتها لي في المدرسة وخارجها.

كانت (الست فخرية) تفرح بما تقرأ لي في الصحف، وبالذات في مجلة «الرسالة» المصرية، وكانت تملأ نفسي وتفعم شعوري وهي تشجعني وتثني على تقدمي في مسيرتي الشعرية. كنت حين ألتقي بها لا أجفل من التحدث إليها عن كتاب قرأته أو قصيدة نظمتها، إذ كنت أجد عندها تجاوبًا وإصغاءً مرهفًا يبعث في نفسي وهجًا لطيفًا وغبطة عميقة.

باستثناء (الست فخرية) كان ذلك المجتمع النسوي المميز، مجتمع المعلمات، يجرح شعوري ويواجهني بمشاعر سلبية تعلن عن نفسها باللقاء غير الودي والمتغطرس الذي كنت ألقاه منهن.

كانت الألسنة الحادة تقول دائما: أخوها إبراهيم يكتب لها الشعر ويذيله باسمها.

حتى بعد وفاة إبراهيم ظلت تلك المشاعر السلبية قائمة تجاهي، وكان ذلك الجو العدائي يؤلمني أشد الإيلام، ولم أكن أدرك يومها أن كل نجاح

يحققه المرء لا بد من دفع ثمن له، حتى بين الأهل والعشيرة.

زمار البلد لا يطرب.. وهذه حقيقة نفسية عرفتها فيما بعد، وأحنيت لها راسي، وغضضت الطرف.

تلك هي صورة المجتمع النسائي الذي كان يحيط بي في بلدتي خلال الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. مجتمع برجوازي غير قارئ، كنت أبدو في نظره مخلوقة شاذة، غير اجتماعية.

واتسعت الفجوة بيني وبين التجمع النسوي، فلم يكن بمستطاعه أن يعطيني شيئًا أو أن يأخذ مني شيئًا. كان مجتمعًا لاذع اللسان يثرثر كثيرًا جدًّا. والثرثرة رمز التخلف في المجتمعات التي لا تقرأ وكان عليّ أن أدرك أن الدنيا كانت تدور على عادتها قبل أن أكتشف عالم الكتاب الجميل الخصيب، ولكن لم أدرك ذلك في تلك الأيام، ولو أدركته لضاقت الفجوة بيني وبين ذلك المجتمع النسائي البائس.

لم يكن بمستطاعي التفاعل مع الحياة بالصورة القوية التي يجب على الشاعر أن يتفاعل بها. كان عالمي الوحيد في ذلك الواقع الرهيب بخوائه العاطفي هو عالم الكتب. كنت أعيش مع الأفكار المزروعة في الكتب، معزولة عن عالم الناس بينما أنوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه، لا تجد لها متنفسًا مهما كان نوعه».

***

«منذ البداية حذرني إبراهيم من حفظ الشعر الحديث باستثناء بعض قصائد لشوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وخليل مطران كان هو يختارها لي ويوصيني بحفظها. كانت الرومانتيكية هي الاتجاه الغالب على

شعراء الشباب العرب في تلك الفترة، ولم يكن يرضي ذوق إبراهيم الفني ما كان ينشر في الصحف والمجلات الأدبية من شعر هؤلاء الشعراء المحدثين. لقد كان للتراث قداسة في وجدان إبراهيم، فقد كان ابنًا لجيل فتح عيونه على حركة إحياء كبيرة للتراث وذلك بنشر وابتعاث قيمه الفنية، كقوة السبك ونصاعة العبارة ورونق الديباجة، ابتداءً من البارودي في مطلع عصر النهضة ومرورًا بشوقي ومعاصريه من شعراء مصر والعراق ولبنان وسوريا، فكان شعر الشباب المنتمين في ذلك الحين إلى مدرسة «أبولو» مثله مثل الشعر المهجري في نظره، ضعيفًا ركيك الأسلوب، ولا يرقى إلى مستوى التعبير الشعري الجزل والمميز للتراث الشعري القديم.

كان يلفت نظري دائما إلى أن متانة تركيب الجملة الشعرية والتمكن من ناصية اللغة لن يتوفرا للشاعر دون العودة إلى الينابيع الأصيلة للشعر العربي، يعني التراث.

التصقت بهذا التراث الشعري سنين عديدة ظل خلالها هو النموذج الذي أحتذيه في محاولاتي الشعرية على امتداد الفترة ما بين1933 و1940، وظل اهتمامي ينصب على ما يسمى بالديباجة والتعابير الفخمة.

لكم شعرت بالزهو والاعتزاز حين رأيت الدكتور عمر فروخ في مجلة «الأمالي» البيروتية يقدم لإحدى قصائدي المنشورة في مجلته بقوله: «هذه أبيات لشاعرة ناشئة، وفي الوقت الذي نرى كثيرين من الرجال ينظمون شعرًا مؤنثًا رقيقًا، نرى فتاة في الخطوات الأولى من حياتها تعيد إلى خيالنا ذكرى أبي تمام والمتنبي وتطلع علينا بديباجة شوقي».

لقد نما وتضخم اهتمامي بالتركيب القديم للعبارة الشعرية إلى حد كانت أفكاري ومشاعري تنصرف معه عن التجربة الحقيقية إلى الاهتمام بتركيب العبارات وانتقاء الكلمات ذات الطنين والدوي:

ولي عندكـم قلـب غريـب مطـرح

لدى بابكم يمسي ويصبح في الكرب

طليـح إذا اسـتنهضته كـي أقيلـه

تحامـل ثـم انكـب مـن ألم في الحـب

فـلا تسـألوني عـن بكائـي فإنـما

بكائـي يـا أحبـاب قلبـي عـلى قلبي

سـلام عليـه إذ يمـوت صبابـة

وإذ أنتمـو لاهـون عـن قلبي الصب

كنت أوقع قصائدي الغزلية باسم «دنانير»، وأبعث بها إلى مجلة الأمالي حينا وإلى مجلة الرسالة القاهرية حينا آخر. كانت كلمة الحب تقترن في ذهني بصورة الفضيحة والعار، فهذه هي الصورة التي طبعتها في نفسي البيئة المحيطة منذ الصغر. وحين فكرت لأول مرة بنشر مقطوعتين غزليتين لي في مجلة الأمالي أخذت من كتاب الأغاني، بكل ما أملك من سذاجة وبراءة، قول أبي الفرج عن الشاعرة دنانير جارية يحيى البرمكي: «وكانت دنانير شريفة عفيفة» وجعلت من هذه العبارة مدخلًا للمقطوعتين الشعريتين أحتمي به من عار الحب، ولكي أؤكد للقارئ أن شعر الحب لا ينفي صفة العفة والشرف عن الأنثى قائلة ذلك الشعر.

في تلك الأيام كنت أقيم مع إبراهيم وزوجته في القدس. إبراهيم يصحب صديقه أبو سلمى أحيانًا لتناول طعام البيت وكان موظفًا مثل إبراهيم في مصلحة الإذاعة الفلسطينية. على المائدة فوجئت ذات مرة بأبي سلمى يوجه إلى إبراهيم سؤالًا لم أتوقعه، قال: هل مرت بك يا إبراهيم خلال قراءاتك في الأغاني هاتان المقطوعتان الشعريتان لدنانير والمنشورتان في العدد الأخير من

مجلة «الأمالي»؟ قال إبراهيم: «كلا، لا أذكر أنني قرأتها من قبل». وسكت أبو سلمى. أما أنا فلم أقل شيئًا، أخفيت خجلي وارتباكي وراء صمتي، وشرعت أتظاهر بالانهماك بتقطيع شريحة اللحم في صحني لكي لا يفشي احمرار وجهي المفاجئ سر الحقيقة الكامن، الحقيقة التي تقول أن أحد عشر قرنًا كانت في تلك اللحظة تفصل بين الشاعرة البرمكية دنانير وبين صاحبة الشعر المنشور في المجلة، والمنتمية، كباقي الحضور، إلى هذا القرن العشرين، ومع ذلك فهي تكتب شعرًا يخلو تمامًا من رائحة القرن العشرين.

لم أكتم الحقيقة طويلًا عن إبراهيم، أعلنتها بعد بضعة شهور. فقد كنت أتحصن دائمًا بمحبته لي وما كان يبدي من تسامح وعقل مفتوح تجاه المرأة. أبهجته معرفة الحقيقة، ونقلها لأبي سلمى معتزًا فخورًا بتمكن تلميذته من كتابة مثل هذا الشعر القوي في تركيبه اللغوي السليم.

في الحقيقة أن حكاية الديباجة الكلاسيكية هذه، والاهتمام الكلي بالكلمة ورنينها، وبأسلوب التعبير المصنوع، كل هذه كنت أحسها سدًّا يقف دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم. كنت أحس بالتصنع يدب في ثنايا أشعاري ويلصق بها صفة الجفاف واليبوسة. ولم أكن أعرف كيف أبتعث في قصيدتي النسغ المفقود ولا من أين أستمده. كنت أنحت من صخر فعلًا، وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدتي بسهولة ويسر، ولم أهتد إلى أصالتي إلا يوم هداني الدكتور محمد مندور إلى أدب المهجر.

كان ذلك الناقد والمفكر الثوري الرائع الذي يتربع الآن على قمة شامخة في تاريخ الأدب والنقد العربي الحديث، كان قد شرع ينشر في بداية 1940 وفي مجلة «الثقافة» المصرية بالذات سلسلة من المقالات النقدية حول الأدب المهموس والتي تناول فيها أدب المهجر بشقيه الشعر والنثر. وجدت أن شعر

أولئك الشعراء المهجريين أقرب إلى تكويني النفسي وتركيبي الذهني. كما صادف تلك الفترة اكتشافي لشعراء مدرسة أبولو، كإبراهيم ناجي والشابي وعلي محمود طه والتيجاني. من هنا بدأت أدير ظهري للديباجة العباسية وأصبح مطمحي الأكبر هو كتابة شعر يستمد جماله من البساطة والليونة والصدق والصياغة الشعرية الخالية من التكلف».

***

«خلال العامين الدراسيين اللذين قضاهما في الجامعة وفي بيروت عشت على رسائله التي لم يقطعها عني وكان يوجهني من خلال سطورها، ويشجعني على نظم الشعر، وكتابة النثر والدراسة.

كان قد اختار لي مجموعة من الكتب للمطالعة والتثقيف الذاتي، ولقد نظمت أوقاتي ضمن برنامج وضعته لنفسي. كرّست ساعات الفجر لدراسة قواعد النحو والصرف. وقد أتممت جميع أجزاء «النحو الواضح» تأليف علي الجارم ومصطفى أمين. أتممتها كلها جزءًا جزءًا، من المرحلة الابتدائية حتى آخر المرحلة الثانوية بما في ذلك «البلاغة الواضحة» لنفس المؤلفين.

وإذا كنت قد خصصت ساعات قبل الظهر لحفظ الشعر مع القيام بأعمال المنزل في آن واحد، فقد كرّست ساعات بعد الظهر للمطالعة المركزة.

في تلك السنوات، ما بين 1931 - 1940 قرأت البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد، وأمالي القالي والعقد الفريد، وكثيرا ما غصت في كتاب الأغاني لأبي الفرج كما قرأت كتب العقاد: الفصول وساعات بين الكتب ومطالعات في الكتب والحياة، وكذلك قرأت طه حسين، وأحمد أمين وبالذات فجر الإسلام والأجزاء التي تلته. ولفترة غير قصيرة أصبح عندي

اهتمام بقراءة مصطفى صادق الرافعي من جهة ومي زيادة من جهة أخرى وذلك بعد أن تابعت سلسلة مقالات محمد سعيد العريان في جهة الرسالة المصرية عن حياة الرافعي وقصة حبه مع مي زيادة كنت شديدة الإعجاب والحب لأدب محمد حسن الزيات، وتأثرت بأسلوبه لفترة زمنية غير قصيرة. كانت ترجمته «لآلام فرتر» قد أوقعتني في شباك أسلوبه، وحفظت عن ظهر قلب كل «نشيد أوسيان» في تلك القصة الرومانسية المؤثرة. لقد كانت لدي القدرة على حفظ الشعر والنثر، وأذكر أنني حفظت عدة مقطوعات أدبية مسجوعة لأحمد شوقي من كتابه «أسواق الذهب» كما كنت أحفظ خطب النشاشيبي والكثير من «نقل الأديب» الذي اختاره من تراثنا الأدبي ونشره بالتتابع في مجلة الرسالة الأسبوعية، تلك المجلة التي أصبحت مع مجلة الثقافة زادًا روحيًّا لا غنى لي عنه كل أسبوع».

***

الكتب لا تكفي!

«كانت زوجة أخي على حق في شكواها، فما كنت في يوم صالحة للقيام بدور المسلية، وظللت أفتقر إلى هذه الموهبة موهبة تسلية الآخرين، فقد كانت موهبة مصادقة النفس من جهة، ومصادقة كتبي ودفاتري من جهة أخرى، هي المسيطرة والمتحكمة فيّ. كان يحدث أحيانًا نوع من عدم التوازن أو من الخلخلة في علاقاتي بالآخرين وذلك حين أرتطم بغير المتوقع، أو حين ينقلب المثال إلى صورة مهزوزة. هنا كنت أحس بعجزي عن الالتصاق، وأقع في حالة من الاغتراب الاجتماعي، فألجأ إلى مأواي الأمين، إلى نفسي وإلى كتبي وإلى وحدتي التي ظلت تشكل العمود الفقري لوجودي، بما

تتيحه لي من فرصة المطالعة والتأمل والإحساس بالأمان. ولم تكن أسباب لجوئي إلى الوحدة بالضرورة أو في كل الحالات نتيجة لارتطامي بالآخرين، فحتى في فترات المصالحة والوفاق مع العالم والناس والأشياء، ظلت مصادقة النفس التي لا تتم إلا في جو التوحد هي الاتجاه الغالب. وهذه النزعة الباطنية المتحكمة أصبحت فيما بعد أحد أسباب الصراع النفسي الذي عانيته في تجربتي: الشعرية، خاصة حين خرجت إلى الحياة ألمسها بأصابعي وتلمسني.

حين خرجت إلى الحياة كنت عزلاء من سلاح الخبرة ومعرفة الناس، فكانت المواجهة متعبة صعبة يعوزها التكافؤ. إن الكتب وحدها لا تكفي كمصدر لمعرفة الحياة وما في العلاقات البشرية من تعقيد وتصادم. علينا أن نحيا في الحياة ذاتها، فتجاربنا الخاصة تظل هي الينبوع الأصلي لتلك المعرفة.

المشاعر والأفكار المعزولة عن أرض الناس والواقع.. الحس الاجتماعي العاجز عن النمو الحقيقي بسبب كساحه المزمن.. كل هذا فوجئ بالناس والحياة المتحركة وراء عالم «الحريم» المعزول ووجدتني أقف حائرةً مبلبلةً: الحياة الاجتماعية ومعطياتها في طرف، وأنا في طرف آخر، وكان الأمر باعثًا على الدهشة والخيبة والتأمل.

أن نعرف الحياة ونلمسها معناه أن نعرف الناس ونلمسهم، أن نصطدم بالآخرين، أن نضع أصبعنا على ما فيهم من رقة وخشونة، وحب وكره، وضعف وقوة، ونبل وحقارة، وصدق ورياء، وكل ما هو خليط من التناقضات. وكانت هناك، إلى هذا الجانب، الضريبة الغالية الثمن التي لا مهرب من أن يدفعها المرء، وهي طيبة القلب والبراءة.

اكتشفت أن عالم العلاقات البشرية مشحون بالتعقيدات والعراك. ولم أملك يوما الطبيعة العراكية التي كان يمكن أن تسعفني في ذلك العالم الغريب على طبيعتي، وأخذت أضطرب بين حبي للناس وخوفي منهم. بين

عمق العلاقة الإنسانية التي تربطني بالأصدقاء والناس، وبين اكتشافي أن الحقيقة كثيرا ما تنأى عن اللغة وتكمن باردة متوارية خلف ستار الكلمات المراوغة، وبقيت أتراوح بين فترات من استيعاب الآخرين والاستمتاع بالصحبة، وبين فترات من الجمود الكليل نحو الناس، وفي كثير من الأحيان كنت أتعزى ببيت الشعر الجميل القائل:

إذا أنـت لم تشرب مـرارا على القذى

ظمئـت وأي النـاس تصفو مشـاربه

وجدت في هذا البيت تلخيصًا رائعًا لكل سايكولوجية الصداقة والعلاقات البشرية عموما. على أن ارتباطي بالناس ظل يخضع لحالتي المزاجية».

***

دودة كتب

«أنا أقرأ فأنا موجودة. ظللت قارئة كتب شرهة. وقد نمى هذه الشراهة حرماني من الدراسة الأكاديمية، فالإنسان الطموح يظل ينطوي على مرارة مصدرها ذلك الفراغ الذي يتركه في النفس الحرمان المبكر من المدرسة. هنا يتحول إلى «دودة كتب».

لم تكن قراءاتي منهجية. كنت أقرأ أي كتاب يقع في يدي، مرورًا بالموضوعات الأدبية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية إلى كتب العلوم المبسطة. كان سلامة موسى والعقاد والمازني من الكتاب الذين فتحوا ذهني وعلموني ما لم أعلم. ومنذ الأربعينات أصبحت شديدة الالتصاق بعلم

النفس من جهة والرواية من جهة أخرى. وجدت في الرواية حصيلة المعرفة الإنسانية، وجدت فيها الفكر والشعر والفلسفة والتحليل النفسي. إنها تتناول الحياة، بل كل شيء حي. الإنسان، هذا المجرم الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر، تتناوله الرواية بكل اهتزازاته الحية، بكل تناقضاته وتقلباته، بكل ما في تركيبه من عناصر مختلفة متضادة. وهكذا أصبح عالم الروائيين الغربيين الكبار عالمي الذي يضج بالحياة والحركة وأنا سجينة الجدران. كنت أقرؤهم بالعربية أو بالإنكليزية.

ظل يجتذبني في الرواية الفكر الفلسفي بشكل خاص: مشكلة الخير والشر، قضية الموت والمرض، قضية العدل السماوي وهل هو موجود فعلا؟ وانجذبت بطبيعتي التشاؤمية إلى الشخصيات القلقة المتشككة المتسائلة دائما: هل قدر الإنسان في السماء أم في دمه؟ هل تأتينا الجبرية من الخارج أم هي، كما يقول علم النفس الحديث جزء كامن لا ينفصل عن النفس؟ يقول الوجوديون أن الإنسان حر ملزم بالاختيار وهو وحده الذي يصنع نسيج وجوده، ولكن ماذا عن عصره والظروف المحيطة به؟ ماذا عن القوى الوراثية المؤثرة؟ أوليس الإنسان سجين بيئته وظروفه وزمنه وتكوينه النفسي والجسدي؟ وهذه الإنسانية المعذبة، هل خلصتها الأديان من عذابها؟ هل ولد الإنسان مفطورًا على الشر أم هي عوامل البيئة ولقد كانت تشغلني في صغري قصة تحكيها لنا أمي ونحن حول موقد الشتاء، تروي فيها حكاية النبي موسى حين مر برجل فقير قابع في حفرة تغطيه حتى منتصفه لكي يوارى عريه عن أنظار المارة. وتألم موسى لحال الفقير، فصعد جبل الطور وكلم ربه وسأله راجيًا الرزق للفقير، فوعده الله خيرًا. وإذ رجع موسى إلى البلدة مسرورًا بما وعده الله به فوجئ برؤية الفقير معلقًا على المشنقة جثة هامدة.

صعق موسى وعاد إلى الجبل فورًا مخاطبًا ربه بلهجة عاتبة: يا إلهي لقد

سألتك أن ترزقه لا أن تشنقه. فقال الرب العظيم: تأدب يا موسى أنا خلقته وأنا أعلم به. وتكمل أمي القصة وسط دهشتنا واستغرابنا فتحكي لنا سبب ما حدث. فقد حدث أن أحد أصحاب الدار التي كان يستظل الفقير بحائطها نفض غطاء المائدة فسقط منه دينار ذهبي تناوله الفقير ومضى إلى خمارة، وسكر وعربد وتخاصم مع أحد الندماء، ثم قام واشترى بما بقي من الدينار سكينًا طعن بها الرجل فمات، وهنا أخذوه إلى الحاكم فأمر بشنقه.

كانت القصة تبلبل عقلي: أنا خلقته، وأنا أعلم به. لكن لماذا خلقه هكذا ثم عاقبه؟

وكان كتاب «العهد القديم» من الكتب التي أعود إليها بين حين وآخر. لقد وجدت في بعض أسفاره صورًا إنسانية لمسها الفن القصصي. فخرجت نابضة بالحياة وشخصية أيوب أو بالأحرى قصة «الإنسان» في توتره وهو يصارع ما يعترض سبيله من أسباب الشر. في تلك القضايا الفلسفية التي يثيرها هذا السفر: الشر والبؤس ومن المسؤول عنها؟ هل في الكون عدالة سماوية وأين مكانها إذا وجدت؟ وكنت أفيء إلى سفر (الجامعة) كلما حاصرت روحي الأسئلة التي لا تجد جوابًا شافيًا، أو كلما شعرت بخيوط حياتي تتبعثر دون أن أستطيع لملمتها «باطل في باطل.. ماذا يجني الإنسان من جهده تحت الشمس؟» فكان ذلك الحكيم الذي وضع كل تشاؤمه في ذلك السفر يردد ما قاله جلجامش من قبل: «هذه هي الدنيا، ما من بيت نسكنه إلى الأبد، ما من عقد نعقده حتى النهاية، ما من ديمومة لشيء».

أما صرخة المسيح في محنته (إلهي لم تركتني؟) فقد علقت أصداؤها بجدران قلبي ولا تزال عالقة.

في أوراقي القديمة أجدني قد سجلت بيتيّ شعر قد نظمتها تحت عنوان (شعلة الإيمان):

يـا رب أدرك بقايـا شـعلة همـدت

قـد كاد يطمـس شـكي نـور إيـماني

إن كنـت موقدهـا فابعـث لهـا مددًا

أو كنـت مطفئهـا فاغفـر لنكـراني

ولقد كانت في هذين البيتين البذرة التي انبثقت فيما بعد عن قصيدتي (أمام الباب المغلق) بعد سنين عديدة.

حين يتزعزع الإيمان تتزعزع الأرض وتمضي تدور بالإنسان وكأنها بلا محور، ومع الأسئلة المعلقة بلا جواب تصبح الحياة عبئا لا يطاق. عبثا حاولت أن أرفع شعار (وليم بليك) القائل: اصنع ما تريد، فهذا العالم قصة خيالية، أساسها التناقض. إن الإنسان بدون المعرفة الروحية يظل ناقصًا كما قال الهنود. وفي «الخوف والرعشة» عبّر سورين كيركجارد عن حاجة الإنسان إلى إيمان ديني بقوله: «لو لم يكن لدى الإنسان وعي أبدي خالد، ولو كان أساس الخلق قوة عمياء تنتابها عواطف غامضة غير واعية ينبعث منها كل ما هو عظيم وكل ما هو حقير، فأي شيء يمكن أن تكون الحياة إلا يأسا».

كان الفكر الإسلامي قد جذبني منذ وقت مبكر إلى القضايا الفلسفية، وكان أول من حرك ذهني في هذا الاتجاه كتاب زكي مبارك عن الغزالي. ثم رحت أجد متعة ذهنية في قراءة «المعتزلة» وجدلهم حول الجبرية والحرية والعدل والثواب والعقاب».

سنوات الجوف

عبد الواحد الحميد

ذكريات جيل ممن عرفوا الحياة في عشر السَّبعين من القرن الرابع عشر الهجري، وبواكير الشباب في عشر الثمانين منه اتَّصلوا بتلك الأفكار التي استهوتْ أجيالًا من العرب، في المشرق والمغرب؛ آمنوا إيمانًا ساذجًا بالعروبة والقوميَّة، واحتلَّ النِّضال الفلسطينيّ موقعًا سامقًا في أفئدتهم، يؤرخها د. عبد الواحد الحميد في سنوات الجوف التي قضى طفولته وشبابه فيها قبل أن يتنقل بين جدة وأمريكا والعمل في جامعة البترول ووزارة العمل وغيرها.

تخصص الاقتصاد الذي درسه ومهنة الصحافة التي نشأ عليها منذ شبابه بدا واضحاً تأثيرهما، فكلما مضيْت في فصول الكتاب، ستعرف سِيرة عبد الواحد وجِيله، وستجده يحدِّثك عمَّا أصاب مدينته مِنْ تَحَوُّل، لكنَّه أحسن إذ لم يفصِل ما بين مدينته ونفسه وجيله فدَلَّتْنا تلك الفصول على سنوات النَشأة، وربما قرأنا فيها ما هو أدخل في ذاته، ورأينا مثلما رأى الدَّهَشَ والعجب حينما اتصلت حياته ببداءات التَّنمية والنُّهوض، في مدينته سكاكا الَّتي طالما أَلِفَت بيوت الطين.

سحر القراءة

«هل هناك من يجادل في أن القراءة، على وجه العموم، ضرورة وليست مجرد هواية؟ هذه حقيقة، فنحن في هذا الزمن نقرأ لتسيير وتيسير حتى أبسط أمورنا اليومية! لكنني أتحدث هنا بالتحديد عن قراءة الكتب والصحف والمجلات، وهذا قبل زمن الإعلام الجديد: تويتر وفيس بوك وصحافة إلكترونية وما حمله لنا عالم الإنترنت.

قراءة الكتب قد تكون هواية محببة إلى نفوس الكثيرين، أما قراءة الصحف والمجلات، سواء الورقية أو الرقمية، فقد تكون القاسم المشترك بين ملايين الناس في كل أنحاء العالم. ولكن عندما تأخذ القراءة صفة الإدمان وتكون مفضلة على متع كثيرة مما يقبل ويتلهف عليه الناس ويأخذ حيزًا كبيرًا من أوقاتهم فذلك هو ما أعنيه عندما أتحدث عن «سحر القراءة».

يعرف عشاق القراءة المولعون بها أن حب القراءة يشبه إلى حد كبير العادات الإدمانية الأخرى كتدخين السجائر، مثلًا، أو تناول القهوة والشاي. فالمدخن يجد نفسه مدفوعة دفعًا لتدخين سيجارة، وعندما تنفد علبة سجائره قد يشحذ سيجارة من غريب لا يعرفه!

ومثل هذا يحدث لمدمن القراءة، فهو قد يصرف كل ما في جيبه على شراء الكتب، وعندما يسمع عن كتاب جيد لدى شخص ما حتى لو لم تكن تربطه به معرفة سابقة تتلبسه شجاعة عجيبة ويتجرأ على طلب استعارة ذلك الكتاب منه؟

لم يكن في الجوف مكتبات تجارية، إذ لم يكن هناك طلب على الكتب بشكل يبرر إقامة مشروع تجاري لبيعها. وقد أقام والدي مكتبة تجارية صغيرة ضمن محل تجاري عندما كنت في مرحلة الدراسة الابتدائية، لكن المكتبة لم تنجح

كمشروع تجاري، فتخلص منها الوالد، وكانت تلك تجربته الأولى. بعد ذلك، أقام منزّل المقبل مكتبة تجارية أكبر من تلك التي كان قد أقامها الوالد، وكانت جيدة ومتنوعة. وقد شعرت أنني عثرت على كنز، فكنت أشتري منها الكتب والصحف والمجلات، ولكنها هي الأخرى لم تعمر طويلًا. وكان منزل المقبل من معارف الوالد، وقد أعجبه أنني أشتري الكتب والمجلات وأحب القراءة، فمدحني أمام والدي قائلًا: «ولدك أحسن زبون عندي.» والغريب أن والدي، وهو القارئ النهم، لم يرتح لما قاله منزل المقبل لأنه كان يود أن تكون قراءاتي تحت إشرافه، فسألني بشيء من الحدة عن الكتب والمجلات التي أقرأها، مع أن الكتب التي تباع في الأسواق في المملكة تخضع لرقابة رسمية صارمة. وقد اكتشفت فيما بعد أن بعض الآباء المتعلمين في ذلك الزمان كانوا يتحسسون من قراءة أبنائهم لبعض الكتب التراثية التي تحتوي على قصص وأشعار يعتبرونها إباحية، كما كانوا أيضًا ينزعجون مما تنشره بعض المجلات من مواضيع التثقيف الصحي الجنسي، مثل مجلة «طبيبك» التي تجيب على أسئلة القراء في زاوية «الجلدية والتناسلية»، كما لا يرتاحون لما تنشره المجلات اللبنانية من صور نساء بالمايوه والملابس الفاضحة، مثل مجلة الأسبوع العربي، ومجلة الجمهور الجديد، ومجلة الخواطر.

بعد فترة غير طويلة من إقامة منزل المقبل لمكتبته على الشارع العام، حدثت له ظروف شغلته عن المكتبة وأخذته إلى خارج الجوف، فكان والده يجلس للبيع في المكتبة. ولكن الرجل المسن لم يكن متعلمًا، وكان من الصعب عليه التعامل مع تلك التجارة المتخصصة. وفي النهاية باع محتويات المكتبة من الكتب وغيرها بأسعار زهيدة بعد أن أخرجها إلى الشارع، وأقفل المكتبة بشكل نهائي. وأتذكر أنني اشتريت بعض الكتب التي كانت تصدر بشكل سلاسل من مصر مثل سلسلة «اقرأ» وسلسلة المكتبة الثقافية، وقد حزنت لإقفال المكتبة.

ومع ذلك، كنت أجد من الكتب في المكتبة المنزلية الصغيرة لدى الوالد ما يجلب لي المتعة والسعادة. فعلى الرغم من محدودية عدد ونوعية الكتب، كنت أجد فيها ما يشبع نهمي. وعندما دخلت المدرسة المتوسطة، كان عمي ثاني الحميد قد تم تعيينه في سلك التدريس خارج الجوف، وكان عندما يعود في العطل الصيفية والموسمية يحضر معه الكثير من الكتب والمجلات. وأتذكر بشكل خاص ما كان يأتي به من كتب للدكتور طه حسين والأستاذ عباس محمود العقاد وأعداد متراكمة كثيرة من مجلة العربي ومجلة الأسبوع العربي. وكان العم قارئًا متميزًا انتقائيًا ومثقفًا ذا عقلية ناقدة مستنيرة، إضافة إلى موهبته الشعرية والكتابية. وقد ألف كتابًا بعنوان «قبس من التربية» عام 1964م عندما كان دون سن العشرين!

وقد استفدت كثيرًا من مناقشاتي المستمرة مع العم ثاني، وكان يحب قراءة كتب عباس محمود العقاد بينما كنت أجدها عسيرة ومملة وأفضل عليها كتب طه حسين مثل «دعاء الكروان» و«المعذبون في الأرض» و«الأيام»، وغيرها. وفي مرحلة لاحقة جمعنا كتبنا، العم ثاني وأنا، وخصصنا غرفة صغيرة برفوف خشبية صنعها لنا أحد النجارين. وقد رأى العم أن نطلق على هذه المكتبة المشتركة اسم «فرقدان»، فصنعنا ختمًا بهذا الاسم ومهرنا به جميع الكتب ووضعنا لها أرقامًا متسلسلة، وما تزال بعض الكتب التي أحتفظ بها في مكتبتي الخاصة بالرياض تحمل ختم «فرقدان» بعد أن اقتسمنا محتويات المكتبة عندما انتقلنا من بيت الطين في حارة التحتي بحي الشعيب.

في المدرسة الشمالية الابتدائية (فلسطين حاليا)، كانت هناك مكتبةً متواضعةً جدًا، وكنت أستعير منها كتب الأطفال التي كان يكتبها كامل كيلاني، وكانت مقتبسة من ألف ليلة وليلة، وكذلك سلسلة المكتبة الخضراء للأطفال بكتبها المشوقة ذات الألوان البراقة. أما في المدرسة المتوسطة، فكانت المكتبة أكبر من تلك التي كانت في المدرسة الابتدائية، وكان أمينها

هو الأستاذ السوداني محمد آدم وكنت أستعير منها بعض الكتب، أتذكر منها الآن مجموعة قصصية لغالب حمزة أبو الفرج. وقد قرأت في تلك الفترة كتبًا لسعد البواردي ومحمود تيمور ومحمود البدوي وعبد السلام العجيلي وحسن عبدالله القرشي ومحمد عبد الحليم عبد الله.

وقد حدث تطورٌ آخر أثناء دراستي في المدرسة المتوسطة، إذ كانت بداية دراستي لتلك المرحلة في «المتوسطة الأولى» بحي الشلهوب، وكانت هي المدرسة المتوسطة الوحيدة في سكاكا قبل تأسيس المدرسة «المتوسطة الثانية» التي صار اسمها متوسطة صلاح الدين في الصبخا. ففي طريقي من وإلى المدرسة المتوسطة الأولى على الدراجة الهوائية كانت تستوقفني لوحة كتب عليها (مكتبة الثقافة العامة بالجوف أسست عام 1385هـ على نفقة عبد الرحمن الأحمد المحمد السديري وأولاده) وضعت على مبنى صغير مكون من صالة واحدة مستطيلة الشكل، وكان يفصل المكان عن المدرسة الجنوبية الابتدائية (مدرسة الملك عبد العزيز الابتدائية حاليا) شارع العربية للمدرسة. وقد دفعني فضولي ذات يوم إلى دخول المكان في الفترة المبكرة لتأسيسها، فاكتشفت عالـمًا جديدًا ورائعًا إذ وجدت كتب متنوعة ومجلات وجرائد، فكانت بالنسبة لي تجربة فريدة استمرت حتى اليوم مع تلك المكتبة التي تطورت وأصبح اسمها دار الجوف للعلوم وهي جزء من مؤسسة عبد الرحمن السديري الثقافية الخيرية التي تفرع عنها مركز عبد الرحمن السديري الثقافي، وقد كتبت عن تلك التجربة في موضع آخر:

دخلت المكتبة للمرة الأولى، وكان أمينها في ذلك الوقت الأستاذ محمد بدر الذي كان يدرس اللغة الإنجليزية ويراسل جريدة الرياض، فاكتشفت عالـمًا مبهرًا من الكتب والمجلات والصحف، وصرت منذ ذلك الوقت أتردد عليها بصفة مستمرة حتى تخرجت من المدرسة الثانوية وغادرت الجوف. وقد تعاقب على أمانة المكتبة كل من الأستاذ عبد العزيز أبو هلال،

والأستاذ علي بلال الدرعان، خلال الفترة التي كنت أتردد عليها. كانت تتكون من صالة واحدة تتوسطها طاولات مستطيلة تحيط بها رفوف الكتب، وفي ركن من أركان الصالة يوجد مكتب أمين المكتبة لا يفصله فاصل عن رواد المكتبة. أهم ما جذبني إلى المكتبة الروايات والقصص والصحف، فعلى الرغم من وجود مكتبة منزلية لدى الوالد تحتوي على بعض إصدارات سلسة روايات الهلال وبعض الدواوين الشعرية والمجموعات القصصية والكتب الأخرى، وعلى الرغم من أن الكثير من الصحف والمجلات يصل إلى الوالد بانتظام بحكم اهتماماته الصحفية والأدبية، مثل مجلة المنهل ومجلة قافلة الزيت وغيرهما، إلا أن محتويات مكتبة الثقافة العامة كانت بالنسبة لي تمثل كنوزًا ثقافية كبرى. وقد قرأت الكثير من الروايات والقصص التي تضمها الرفوف، والتي لم تكن متاحة في المنطقة.

وأذكر أن المكتبة كانت تحتوي على سلسلة من الأعمال الروائية الكلاسيكية المبسطة للقراء الناشئين مكتوبة بلغة إنجليزية ميسرة، ومن هذه الأعمال كتب مارك توين التي قرأتها في ذلك الوقت وهي مغامرات توم سوير ومغامرات هاكلبري فن، مستعينًا بقاموس صغير من إعداد إلياس إلياس. وكنت لكثرة ترددي على المكتبة أقيم علاقات جيدة مع أمنائها بسرعة، ما أعطاني بعض الامتيازات، مثل استعارة الكتب دون أي إجراءات.

أما الصحف، فكانت متعتي الكبرى لأن بعضها لم يكن متاحًا في الأسواق لدينا في ذلك الوقت، فلم يكن في سكاكا إلا مكتبة تجارية واحدة ولم تكن توفر الصحف بانتظام، وكانت الصحف التي تأتي في الغالب عن طريق الاشتراكات للدوائر الحكومية.

أعتقد أنني وجيلًا كاملًا ممن كانوا في مثل سني ندين بالشكر لتلك المكتبة لإسهامها في تشكيل اهتماماتنا الثقافية وتنميتها، وقد كانت المكتبة بالنسبة لبعض الزملاء المصدر الوحيد للكتب والصحف والمجلات، كما كانت

بمثابة ملتقى للتعارف بين من يجمعهم حب القراءة والاهتمامات الثقافية.

من تلك المكتبة الصغيرة، التي كانت تبدو في عيوننا كبيرة جدا، انطلقت دار الجوف للعلوم، وقد أنشأ الأمير عبد الرحمن السديري مؤسسة خيرية كاملة عام 1403هـ (1983م) لتتولى إدارة الدار وتمويلها، إضافة إلى الأنشطة الثقافية والخيرية الأخرى في المنطقة.

من طرائف ما حدث لي مع بعض أمناء المكتبة أنني عرفت أن هناك نية للتخلص من بعض الكتب التي لاحظ بعض المهتمين أنها تحتوي على محاذير رقابية وشرعية. وكنت قد استعرت من المكتبة كتابًا بعنوان: قصة الإنسان تأليف جورج حنا، وهو كتاب مختلف عن ما قرأته سابقًا ويحتوي على معلومات وأفكار فلسفية جديدة بالنسبة لي. وعندما عرفت بأمر خطة «التطهير الرقابي» حاولت مع أمين المكتبة إنقاذ ذلك الكتاب، وقلت له أن الكتاب قيم ولا يصح إحراقه أو حتى رفعه عن الرف وحرمان القراء من الاطلاع عليه، ولكنه أخبرني أنه لن يستطيع منع المراقبين من حجبه أو مصادرته، فاقترحت عليه أن أستبدله بكتاب حكومي دعائي من مكتبتنا المنزلية، وبينت له أن كل ما نحتاج إليه هو تغيير العنوان في البيان ووضع الرقم التسلسلي للكتاب القديم على الكتاب الجديد!

وبعد نقاش طويل، وافق وتم إنقاذ الكتاب!

ومن مصادري للحصول على الكتب في تلك الفترة شخص تعرفت عليه بالصدفة اسمه أديب الرياوي، وكان يعمل في مدرسة الأيتام بسكاكا. فقد تصادف أنني كنت في دكان جدي أساعده ومعي نسخة من جريدة الجزيرة وضعتها على طاولة في مدخل الدكان وكانت تحتوي على مادة صحفية مما كنت أرسله للجريدة. دخل أديب الرياوي، الذي لم أكن أعرفه وقتها، لشراء قلم حبر باركر الشهير وطلب محبرة لكي يتأكد من سلامة القلم. وعندما عبأ القلم بالحبر أراد مسح ريشته بطرف الجريدة فمنعته، وقلت

له أن لي موضوعًا منشورًا في هذه الجريدة وأود الاحتفاظ بالنسخة سليمة. استغرب أديب الريماوي ربما بسبب مظهري وعمري، فسألني وهو يبتسم إن كنت جادًّا، فما كان إلا أن فتحت الجريدة وأريته الموضوع الذي كان منشورًا، في صفحة يحررها الأديب سليمان الحماد وعليه صورتي وكان عن الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان. أتذكر أنه قال لي كلمات مشجعة جدًّا وأخبرني أنه يعرف سليمان الحماد شخصيًّا. لم أكن قابلت أديبًا واحدًا في حياتي، فشعرت بأنني أمام شخصية مهمة طالما أن هذا الرجل يعرف سليمان الحماد معرفة شخصية! سألته عن سليمان الحماد فقال لي إنه تعرف عليه أثناء عمله في مدينة الرياض، وأنه معجب به لأنه قال في إحدى الجلسات أن على العرب ألا يفقدوا الأمل بسبب هزيمتهم أمام إسرائيل في حرب 1967م التي كانت قد حدثت في تلك الأيام وأن ما فقدوه من الأرواح أقل مما فقدته إحدى الدول في كارثة انهيار مبنى لكرة القدم.

طال الحديث مع أديب الريماوي، وعرف أنني محب للقراءة، لكن قراءاتي محدودة بالمتوفر من الكتب، فأخبرني أنه أحضر معه من الأردن كتبًا كثيرة لاستخدامه الشخصي وسوف يحضر لي غدًا بعض مؤلفات نجيب محفوظ الذي لم أكن قد قرأت أيا من كتبه بسبب عدم توفرها. أحضر لي بعد ذلك ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية)، فأمضيت في قراءتها وقتًا ممتعًا، وكانت فاتحة لعالم جديد من الكتب والقراءات التي لم تكن لتتاح لي لولا أديب الريماوي. وقد كانت لديه مجلات مصرية ولبنانية وملاحق أدبية لصحف لبنانية مثل النهار وكتب ممنوعة كثيرة، وعرفت منه أن حمود الريماوي الأديب الأردني هو من أقاربه.

في هذه الأثناء، دخلت في فترة صاخبة، فقد كانت السياسة تطغى على كل شيء في تلك الأيام العصيبة التي أعقبت هزيمة الخامس من حزيران 1967م. ورغم صغر السن، فقد كان معظم زملائي في المدرسة ومعظم

من كانوا في مثل سني متابعين للأحداث السياسية، وكان التوجه القومي الناصري هو السائد، وكانت مقالات محمد حسنين هيكل التي تبثها إذاعة صوت العرب تغذي فينا الإعجاب بعبد الناصر.

كانت الأجواء مشحونة ومحتقنة، ومع ذلك كنت أستعير من بعض الأشخاص الذين تعرفت عليهم عن طريق أديب الريماوي كتبًا سياسية ممنوعة كان يتم تهريبها من الأردن وأجد فيها طروحات مختلفة عما كان موجودًا في الكتب المتاحة عندنا. وللحقيقة، فإن الكثير من تلك الكتب التي كنا نتداولها سرًّا كانت مكتوبة بأسلوب يصعب فهمه ويغص بالمصطلحات السياسية الثورية التي كان المؤلفون العرب يتبنونها من مفكرين يساريين من الشرق والغرب.

وقبل تخرجي من الثانوية كان أديب الريماوي ومحمد شناعة معلم الرياضيات في المدرسة الثانوية قد غادرا الجوف نهائيا، وقيل إنه تبين أن الرجلين كانا عضوين في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبسبب ارتباطي بهما أصابني الخوف، فدفنت الكتب التي حصلت عليها من أديب الريماوي في حوش تحت أكوام الحطب في بيتنا الطيني القديم، أما المجلات فقد قمت بحرقها والتخلص منها، وكنت أتصور أنني قد أتعرض للمساءلة والتفتيش. وبالطبع لم يحصل أي شيء من هذا، فما أنا إلا صبي صغير غير ذي شأن دون سن الثامنة عشرة، لا يأبه به أحد.

من المؤكد، أن تلك الفترة، وهي فترة المراهقة العمرية، كانت مرحلة تحول حرجة. لقد كنت أجد فجوة واسعة بين بيئتي الجغرافية والاجتماعية المحدودة وبين العالم اللا محدود الذي أجده في الكتب والقراءات المختلفة. ولم يكن من الممكن، في تلك البيئة، أن يتحدث المراهق عما يجول في خاطره من أفكار قد لا تكون مقبولة، كما كان من المستحيل طرح أسئلة صريحة تجيب على الشكوك والتناقضات والأفكار التي تضطرب وتغلي داخل النفس

الحائرة المتسائلة عن قضايا وجودية كانت تؤخذ كمسلمات لا يجرؤ أحد على التعمق في معانيها ودلالاتها وأسرارها. وكان أسوأ من يمكن مناقشته في هذه القضايا هم كبار السن ومعلمي المواد الدينية، فهؤلاء إجاباتهم جاهزة مستمدة من نصوص دينية لا يجوز مناقشتها.

ولكن، مرة أخرى، تبرز القراءة كملجأ ظليل يلتقط فيه الإنسان أنفاسه ويبحث بنفسه عن الإجابة عما يعتمل داخله من تساؤلات بكل صراحة ومن دون مواربة، وعندما تكون الإجابة غير مقنعة يبحث عن إجابات أخرى في كتب أخرى. وقد قرأت كتاب قصص الأنبياء لابن كثير فوجدته يغص بالإسرائيليات التي تربك الفكر الحائر لمراهق يبحث عن إجابات تحترم عقله، ولكنني وجدت البديل في كتاب رائع قرأته أكثر من مرة وهو كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» تأليف مجموعة من العلماء الغربيين يثبتون فيه من خلال الأدلة العلمية المنطقية وجود خالق عز وجل لهذا الكون، ثم قرأت كتاب «روح الدين الإسلامي» تأليف عفيف عبد الفتاح طبارة، فوجدت فيه إجابات مقنعة على الكثير من الأسئلة والإشكالات التي كانت تلح علي.

استمرت رحلة القراءة، وعندما غادرت الجوف إلى جدة ورأيت مكتباتها التجارية المتناثرة في كل شارع من شوارعها ومكتبة جامعة الملك عبد العزيز، أدركت كم كانت الكتب والصحف والمجلات في بلدتي قليلة ونادرة، وأعادت لي ذكريات جميلة عن رحلتي الخاطفة للرياض مع والدي قبل سنوات!».

سيرة ذاتية

هيرمان هسه

رغم أن رواياته العابرة للقارات هي ذاتية إلى درجة كبيرة كما يقول، إلا أنه كان أكثر صراحة في هذا الكتاب الذي تضمّن اثنتي عشرة قطعة أدبية عن السيرة الذاتية لهرمان هسه، والتي سجل فيها بعضًا من طفولته وذكريات جدّه ورحلاته إلى الهند ودخوله السجن بتهمة باطلة، وأمراضه النفسية التي عانى منها وجلسات العلاج.

بعد تصريح مسّرب له، شنّت الصحافة عليه هجومًا شنيعا واتهمته بالخيانة، وأكلت الأرضة كتبه في المكتبات، ووصلته أكداس من الرسائل البذيئة من أشخاص غرباء، لكن إيمانه بأن «لولا معارك الشباب الطويلة والصعبة التي خضتها لما حصلت على مكانتي التي أحتلّها الآن ولما غدوت (الشاعر)» جعل من «الممكن دائمًا للمرء أن يستعيد براءته لو أدرك معاناته وإثمه وعانى حتى النهاية بدلًا من محاولة إلقاء اللوم على الآخرين».

نمط بداية حياة هسه تحوّل ليكون نموذجًا للشباب الغريب العاجز عن تقبل القيم البالية وغير الراغب في بيع نفسه إلى مجموعة قوانين، والذي انعزل عن المجتمع المنظم للبحث عن ذاته، وإن أزمة نضوج هسه الروحية تعكس أزمة وعي العديد ممن تخطوا الثلاثين من العمر والذين أجبرتهم أحداث زمانه - كالحرب والفقر والتكنولوجيا - إلى إعادة تقييم قيمهم.

صعوبة أن تصبح شاعرًا!

«حدث الأمر هذا: منذ سن الثالثة عشرة والأعوام التي تلته، صار أمرًا واضحًا لي بأني إما أن أكون شاعرًا أو لا شيء آخر على الإطلاق. وبجانب هذا الإدراك أصبح هناك وعي مؤلم آخر يخالجني تدريجيًّا فمن الممكن أن يصبح المرء مدرسًا، أو قسيسًا أو طبيبًا أو تاجرًا أو موظفًا في البريد، أو يصبح موسيقيًّا، أو رسامًا أو معماريًّا، فهناك طرق ممهدة لكل مهنة في العالم، وهناك متطلبات أساسية لها ومدارس ودورات تعليمية للمبتدئين فيها. إلا الشاعر فلا شيء أمامه من هذا الضرب أو ذاك!

فأن يكون المرء شاعرًا فهذا أمر جائز بل وحتى مشرف؛ ويعني ذلك أن يكون ناجحًا وشهيرًا كشاعر، إلا أنه لسوء الحظ سيكون من الطبيعي حينها أنه أصبح في عداد الأموات. إلا أني سرعان ما اكتشفت كم كان من المستحيل أن تغدو شاعرًا، وكم كان من السخف والخزي أن ترغب في أن تكون واحدًا من الشعراء، وسرعان ما توصلت إلى ما ينبغي معرفته من هذا الوضع. وهي أن الشاعر ببساطة هو ذلك الكائن الذي يسمحون له أن ينمو في داخلك ولكن لا يدعونك أن تكونه. وأكثر من هذا: كان كل من يملك موهبة شعرية فطرية وولعًا في الشعر موضع ريبة في نظر المدرسين؛ فإما أن يشكوا في مقدرته الشعرية أو يسخروا منه، وغالبا ما يتعرض فعليًّا لإهانات بالغة القسوة. فحال الشاعر كان يشبه تماما حال البطل، وحال الشخصيات البارزة والمقدامة وغير المألوفة جميعها التي تتمتع بالشجاعة والوسامة والجرأة، حيث كانوا يعدون في الماضي رجالًا عظماء، يزخر كل كتاب من كتب المدرسة بالثناء عليهم؛ ولكن في الحاضر في الحياة الحقيقية، ترى الناس

يمقتونهم، ومن المحتمل أنه كان يتم انتقاء المدرسين، وتدريبهم خصيصًا ليمنعوا قدر إمكانهم ظهور العظماء، والبشر الأحرار، وليحولوا دون إنجاز المآثر العظيمة الرائعة.

وهكذا لم أكن أرى غير هوة شاسعة تفصل بيني وبين هدفي البعيد. فكل شيء كان عرضة للشك خاليًا من أية قيمة. شيء واحد فقط بقي ثابتًا وهو إصراري على أن أكون شاعرًا. سواء كان ذلك يسيرًا أم عسيرًا، سخيفًا أم مشرفًا، وأما النتائج الظاهرية لهذا القرار - أو بالأحرى لهذا القدر المحتوم فقد كانت كما يلي:

في سن الثالثة عشرة حيث كان الصراع قد ابتدأ للتو، أصبح سلوكي لا يطاق في منزل والدي وفي المدرسة على السواء لدرجة أنني أبعدت إلى مدرسة لاتينية في مدينة أخرى. وبعد مضي عام واحد أصبحت تلميذًا في معهد لاهوتي، وتعلمت كتابة الأبجدية العبرية، وكنت على وشك أن أفهم ما تعنيه Dagesh Forte imlicitum حين هبّت فجأة عواصف قادتني إلى الفرار من مدرسة الدير وإلى معاقبتي بالحبس الصارم وإلى فصلي من المعهد.

ثم جاهدت لفترة كي أتقدم في دراستي في المدرسة الثانوية الألمانية (الجمنازيوم)، إلا أن الحجز والطرد كانا من نصيبي هناك أيضًا، فعملت صبيًّا متمرنًا عند تاجر لمدة ثلاثة أيام. ومما أثار أسى والدي أني هربت مرة أخرى واختفيت لأيام وليال عديدة. وعاونت أبي لستة أشهر، واشتغلت عاملًا في ورشة ميكانيكية وفي معمل لصناعة ساعات الأبراج لمدة سنة ونصف.

وباختصار، لم تُجدِ معي أية محاولة لما يزيد على الأربعة أعوام فلا المدرسة استطاعت أن تُبقيني في أحضانها، ولا استطعت أن أستمر طويلًا في أية دورة تعليمية. وفشلت كل محاولة لجعلي إنسانًا نافعًا، بل انتهى بعض هذه المحاولات بالعار والفضيحة، وبالفرار أو الطرد. ومع هذا فقد اعترف

الجميع، وفي كل مكان بتمتعي بالموهبة بل حتى بقدر لا بأس به من العزم!

وفي داخلي كنت أشعر بأني لا شيء ما لم أكن منتجًا رغم أني كنت أتطلع برهبة إلى فضيلة الكسل الرفيعة، إلا أني لم أستطع أبدًا أن أجيدها. وفي سن السادسة عشرة، وبعد أن باءت مسيرتي الدراسية كلها بالفشل بدأت بوعي ونشاط، أُكوّن ثقافتي الخاصة، وكان من حسن حظي ومبعث سعادتي أن بيت والدي قد حوى مكتبة جدي الضخمة وهي غرفة كاملة مليئة بأمهات الكتب التي تحتوي من بين ما تحتويه على كتب الأدب والفلسفة الألمانية العائدة للقرن الثامن عشر. فبين سن السادسة عشرة والعشرين، لم أملأ كمية من الأوراق بمحاولاتي الشعرية الأولى حسب، بل قرأت كذلك نصف أدب العالم مُنكبًّا على تاريخ الفن واللغات والفلسفة بمثابرة من شأنها أن تؤهلني للنجاح في أي جامعة اعتيادية.

أصبحت بعدها بائعًا للكتب لأكسب قوتي. كنت دائمًا على علاقة جيدة بالكتب أفضل من علاقتي بالملزمات والعجلات المسننة التي اضطهدت نفسي معها حين عملت ميكانيكيًا.

في البدء كان الخوض في الأدب الحديث، وبالأخص الأكثر حداثة، الذي كنت مغرمًا به بحق، متعة تقترب من الانتشاء، ولكني لاحظت بعد حين أن في المسائل الروحية تكون الحياة في الحاضر المعاش والأكثر معاصرة غير محتملة تماما وخالية من أي معنى. ومن الممكن فقط الوصول إلى الحياة الروحية بالعودة المستمرة إلى ما هو ماض، إلى التاريخ، إلى القديم، إلى البدائي. لهذا وبعد أن استهلكت تلك المتعة الأولى أصبح ضروريًا لي أن أخرج من انغماسي في الحداثة وأعود إلى القديم. ولقد حققت ذلك بانتقالي من مخزن الكتب الذي كنت فيه إلى مخزن بيع كل ما هو قديم. بقيت في هذه المهنة طيلة الوقت الذي كنت محتاجًا فيه لتأمين معيشتي.

وفي سن السادسة والعشرين، وبسبب نجاحي الأدبي الأول، تركت أيضا هذه المهنة. وهكذا وسط العديد من العواصف والتضحيات، وصلت أخيرًا إلى هدفي: رغم أنه كان يبدو أني أصبحت شاعرًا وربحت، كما بدا لي، المعركة الطويلة الشرسة في العالم. وصارت مرارة أعوامي الدراسية كلها وأعوام التحضير تلك، التي أوشكتُ فيها مرارًا على الانهيار، في طي النسيان أو أصبحت أضحك منها، وحتى أقربائي وأصدقائي الذين سببت لهم الخيبة من قبل، أخذوا الآن يبتسمون لي ابتسامة مشجعة. لقد انتصرت ولو فعلت الآن أسخف الأشياء وأكثرها تفاهة، لبدت للأعين فاتنة، تماما مثلما كنت أنا مفتونًا بنفسي وللمرة الأولى في حياتي، أدركت في أية عزلة موحشة وأي زهد وخطر كنت أعيش سنة بعد أخرى؛ فقد أفادني النسيم الدافئ بالاعتراف بي وبدأت أتحول إلى رجل مفعم بالرضا».

***

القراءة الثانية

«للقراءة جلبنا معنا «أبله دوستويفسكي» وبدأنا نقرؤه. كان مثيرًا مثلما كان قبل 30 عاما، ولكن هذه المرة كان الحدس مخيبًا للآمال في بعض الأحيان إذ ظهر الكتاب كما لو أنه قد فقد شيئًا عبر الأعوام من مادته ومضمونه. كما بدا أن عدد التافهين وساعات الحوارات الطويلة البلهاء قد ازدادت. فلو عشنا بما فيه الكفاية من العمر، لربما وصلنا للنتيجة نفسها مع الكتاب كما حدث قبل أعوام طويلة بعد القراءتين الأوليين له. فبغض النظر عن شخصية الأمير التي لا تنسى، لا شيء من شأنه أن يرسخ في الذاكرة فيما عدا روغوجين والمرأتين. ومن بين المشاهد، كان الفصل الأول في عربة

القطار، والمشهدان في منزل روغوجين الكئيب، والحفلة الليلية الصاخبة في حديقة ليبيديف، والمشهد المفزع الذي تبصق فيه كل من المرأتين إحداهما على الأخرى والأمير واقفا مع ناتاشا في الخلف. وسيتذكر القارئ ذلك، وسط تلك الحوارات التي تمتد عبر مئات الصفحات والتي رغم كل شيء سيرغب بشدة بعد فترة طويلة في إعادة قراءتها وقد وقع كلانا ثانية في أسر أجواء الرواية المضطربة وغير المستقرة. وقد حدث ما توافق مع هذه الحالة النفسية تمامًا حينما دخلت زوجتي إلى الغرفة في إحدى الأماسي بعد العشاء وقالت: «يوجد مجرم في الخارج يندفع جيئةً وذهابًا هناك أمام الباب»، فقلت «لا بد أن أراه وخرجت مسرعًا».

***

«كتب جدي هرمان جوندرت هذه القصيدة، حين كان تلميذًا في التاسعة عشرة من عمره، ومن المؤكد أن هذه القصيدة بقدر ما كانت مشاعره الخاصة، كانت تعزية لوالده الأرمل. وسيكون بإمكان القارئ المرهف أن يدرك سريعًا بأن وراءها فكرًا متأثرًا بهيغا والهندوس، وعلى اطلاع جيد بهولدرلين، يجاهد في البحث عن وسيلة للتعبير. ولم ينظم كاتب هذه القصيدة الرائعة أخرى مماثلة، فقد ألفها جدي في أكثر فترات حياته اضطرابًا وتعرضًا للأخطار، وبفترة قصيرة قبل أن يؤدي «حوار» الشباب المتحمس المؤمن بوحدة الوجود إلى أن يقرر تكريس حياته من الآن فصاعدًا للأعمال التبشيرية في الهند.

كنت أحتفظ بنسخة قديمة من هذه القصيدة مكتوبة بخط والدتي، وقد سلمتها منذ فترة إلى متحف شيللر في مارباخ بناء على طلبهم.

وبالصدفة، وقعت القصيدة في يدي ثانية وتكشفت لي هذه المرة جمالياتها الظاهرة، إضافة إلى الاتجاهات الخفية لفكرتها، ولسرها الخجول، وقد تركت

انطباعًا قويًّا عليّ في هذا اللقاء الثاني بحيث إنني قررت إنقاذ هذه الجوهرة الصغيرة. وقد شكرني بكل أدب ورقة جوندرت على إرسالي لهم نسخة مطبوعة من القصيدة، رغم أنهم بدوا وقد أصابتهم الدهشة والحيرة، فلم يعرفوا ما الذي يفعلونه بهذه الهدية الغريبة. وقد تسلمتها الأغلبية وتقبلوها باحترام ولكنهم لم يظهروا أية علامة انفعال تجاه التدفق الشعري الفتي، أو أية علامة تشير لتأثرهم بالنار الخفية التي تتوهج بين السطور».

الرائي في العتمة

فاضل العزاوي

كهوية فاضل العزاوي الأدبية المتعددة، جاءت شهادته على متاهات زمنه، مخترقة حدود التجنيس الأدبي، معربة في الوقت نفسه عن قلق كتابي مستمر، بقدر ما تبحث الكتابة نفسها عن شكلها، وتهرب من تنميطاتها الأجناسية، يهرب الكاتب من لحظته ليتجول بين المدن والأزمنة والثقافات.

الرائي في العتمة، عتمة نصف قرن من التحولات الكبرى من حوله وفي داخله، بدأت من هبوطه في مطار برلين طالبًا اللجوء، إلى تجربته في الرواية والشعر والنقد والتجربة والصحافة، إلى جانب تجربته في السياسة والمنفى والسجن وامتناع العودة إلى الوطن، ففي البدء كان المنفى وهو النهاية غير السعيدة لرحلة طويلة.

على رغم البنية السردية العامة وتوزيعه على فصول يحاول من خلالها جعل التنافر في المادة الكلية أقل وطأة، فهيكله العام وحدات مبعثرة، وفي كل منها مجموعة من الوحدات المتصلة، وهو يلخص ذلك بعبارته «أردت دائماً أن أضع كتابًا يكون كل شيء ولا شيء في آن رواية بلا محور أو مركز» وسواء أشار هذا التوصيف إلى وعي كتابي مسبق لشكل الكتاب، أو هو تبرير لاحق للشكل المفكك الذي استقر عليه، فإنه يعبر في نهاية المطاف عن وعي بأن المحتوى العام للكتاب أدبي، والشكل حر ومفتوح.

قراءة الشاعر

«في المدرسة الابتدائية حفظت قصائد لا عد لها من الشعر العربي من كل الفترات لأبرز الشعراء، كما قرأت كتبًا تراثيةً كثيرةً في التاريخ والفلسفة والأدب والفقه، كانت موجودة في إحدى المكتبات الدينية في كركوك وكنت قبل ذلك قد قرأت القرآن عند الملا قبل دخولي المدرسة.

ولكن الكتاب الذي أثّر فيّ عميقًا جدًّا والذي ظللت أقرؤه المرة تلو الأخرى بدون أن يفقد سحره حتى الآن هو كتاب «ألف ليلة وليلة». كل ليلة كانت شهرزاد تحولني، أنا الطفل العاقل نهارًا، إلى شيطان في الليل، بقصصها الإيروتيكية ومغامرات أبطالها، فاتحةً أمامي أبواب العالم كله ومانحةً إياي كل ما حلمت به في حياتي. في الابتدائية أيضا قرأت للمنفلوطي وطه حسين والعقاد وجبران والحكيم والرصافي والزهاوي والجواهري وعبد المجيد لطفي، وكنت معجبًا بلغة الرافعي الفخمة بصورة خاصة. وفي حدود الصف الخامس الابتدائي اكتشفت حسين مردان والسياب والبياتي عندما اصطحبني والدي في زيارة له إلى بغداد فعثرت على سوق السراي بنفسي، لأنه كان يقع قريبًا من الفندق الذي أقمنا فيه في شارع الرشيد، فاقتنيت العديد من كتبهم. أما نازك الملائكة فقد حصلت على ديوانها «عاشقة الليل» بعد قليل من ذلك.

في الصف الثاني الابتدائي نظمت أول قصيدة لي. كانت قصيدة من بضعة أبيات أقلد فيها قصيدة للأطفال كانت موجودة ضمن كتاب القراءة. كان ذلك بالطبع نوعًا من اللعب. فقد قلت لنفسي وأنا أقرا قصيدة «من اليوم تعارفنا.... ونطوي ما جرى منا» إنني أستطيع أن أفعل ذلك أيضًا. قبل

الدخول إلى الصفوف صباحًا كان ثمة تقليد حينذاك يسمى تحية العلم. كان يطلب من التلاميذ أن يقوم أحدهم بإلقاء قصيده يحفظها عن ظهر قلب، فكنت غالبا التلميذ الذي يقوم بذلك. بعد حين رحت أنظم القصائد بنفسي وألقيها على التلاميذ بدون أن أكشف أنها قصائد لي. ربما كان ما شجعني على ذلك هو الاحترام الكبير الذي يوليه المعلمون وحتى الناس العاديون للشعراء، فقد كان شعراء مثل الرصافي والزهاوي والشاعر التركماني دده هجري يمتلكون مواقع تكاد تكون مقدسة في أفئدة الناس في كركوك. كانت صورهم المؤطرة معلقة على جدران المقاهي إلى جانب صورة الملك وأمه الأرملة الملكة عالية. وفي الوقت نفسه ربما أعجبني أن ألعب دور الطفل المعجزة. فقد حاولت وأنا في الابتدائية أيضا أن أقلد أديسون، مكتشف الكهرباء وقمت بتجارب، شكرًا لله أنني لم أدفع حياتي ثمنًا لها، مثلما حاولت استنباط بعض المعادلات الرياضية. وأخيرًا ألفت كتابًا يتضمن كل محاولاتي هذه: قصائد وحكايات وأمثال ونتائج تجاربي الفيزياوية والرياضية، فضلًا عن تجاربي في التنويم المغناطيسي على أصحابي، أسميته «الحياة»، ملصقًا على غلافه الأول صورتي.

أتذكر أنني نشرت في الخامسة عشرة من عمري أول قصيدة لي من الشعر الحر بعنوان «رماد العودة»، وهي قصيدة طويلة أرسلتها إلى الشاعر اللبناني يوسف الخال الذي كان يشرف على القسم الثقافي في مجلة «المجلة» البيروتية، فكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لي عندما وصلت المجلة إلى كركوك وفيها قصيدتي منشورة على صفحتين، إلى جانب قصائد شعراء بارزين.

كل حياتي ارتبطت بالشعر منذ تلك الأيام، حيث رحت أتابع باهتمام الحركة الشعرية العراقية والعربية والعالمية، منتبها إلى أهمية الشعر الإنكليزي بصورة خاصة، مما جعلني أولي اهتمامًا خاصًا بتطوير لغتي الإنكليزية، عن

طريق استعارة أحدث الكتب البريطانية والأميركية التي كانت توفرها «المكتبة الأميركية العامة» والتي ظلّت قائمة حتى ثورة 14 تموز، حيث نهبت كل كتبها في اليوم الأول من الثورة من قبل الرعاء وبيعت للبقالين الذين راحوا يستخدمون ورقها في صنع أكياس السكر والشاي.

بعد انتهاء دراستي الثانوية قدمت أوراقي إلى القسم الإنكليزي وكلية التربية فقبلت نظرًا للدرجة العالية التي كنت قد حصلت عليها في مادة اللغة الإنكليزية. لم تكن بغداد جديدة علي، فقد زرتها مرات عدة من قبل ونشرت في صحفها ومجلاتها. ذهبت إلى بغداد وأنا أعرف كل شعرائها وكتابها من خلال القراءة لهم، مع إدراكي لمستواي الخاص بي. ثمة شعور ينتابني حين أتأمل مسيرة حياتي بأن كل ما أعرفه الآن كنت قد عرفته قبل ذلك في كركوك. وإذا كان ثمة دور للزمن فإنه دور يتعلق بالمزيد من التعميق لتلك المعرفة الأولى، فضلا عن النضج والخبرة الحياتية التالية بالطبع. لم أكن مجهولًا تمامًا حين انتقلت إلى بغداد وأنا في التاسعة عشرة من عمري. أتذكر أن الشاعر بلند الحيدري الذي لم يكن يعرفني شخصيا اعتبرني إلى جانب سعدي يوسف أفضل شاعرين بعد الرواد في مقابلة معه في جريدة «صوت الأحرار». بعد ذلك وأنا ذاهب لأحضر إحدى أمسيات اتحاد الأدباء التي كانت تقام كل يوم أربعاء إن لم تخني الذاكرة استوقفني بلند الحيدري الذي كان يقف أمام الباب الداخلية للمبنى مع شخص آخر، حين رآني صبيًّا غريبًا، مطالبًا إياي ببطاقة العضوية، فسلمت عليه، قائلا: «أنا فاضل العزاوي، شكرا يا أستاذ بلند على إشارتك الكريمة إلى اسمي في الجريدة». بعدها أقيمت لي أمسية شعرية قرأت فيها قصيدتي الطويلة لغربة يولسيس فعلق عليها ناظم توفيق وحسين مردان وبلند الحيدري بالكثير من المحبة والحماسة لي. من الطرائف أن سعدي يوسف اعتقد أنني لا بد أن أكون قد أمضيت شطرًا من حياتي في

العمل بحارًا في إحدى السفن التي تمخر عباب المحيطات، ما دمت أملك كل تلك الخبرة والمعرفة عن البحر. فقلت له: «إنني لم أر بحرًا في حياتي».

***

«لكي يكون المرء كاتبًا عليه أن يُكرس كل حياته من أجل ذلك. ولحسن الحظ أو سوئه حدث ذلك معي، لأسباب لم تكن واضحة لي حينذاك، في فترة مبكرة في حياتي. يروى أن الروائي الكبير لويس قد دعي ذات مرة ليتحدث أمام طلاب أحد الصفوف عن عمل الكاتب، فوقف أمامهم وسأل: «كم منكم هنا جاد حقا في أن يكون كاتبا؟» فرفع الجميع أيديهم. حينذاك سأل لويس: «حسنا، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنتم هنا وليس في البيت تكتبون؟» ثم خرج مغادرًا القاعة.

لا لم يصل الجنون بي حد ترك الدراسة، فقد كنت مبرزًا بين أقراني، وكان ثمة الكثير من الوقت دائمًا للقراءة والكتابة. ففي الليالي حيث يهجع الجميع كنت أظل ساهرًا مع الكتاب الذي أقرؤه أو القصيدة التي أكتبها، معتقدًا بجد في حكمة شطر البيت القائل: «ومن طلب العلى سهر الليالي»، بدون أن تكون عندي أي فكرة عن تلك العلياء المرجوة سوى متعة علياء الكتابة.

في الحقيقة، لم أكن أكتب الشعر وحده وإنما النثر أيضًا. فقد كنت أجد في بعض النثر جمالًا يتفجر شعرًا نفسه. وكثيرا ما دربت نفسي على ما كنت أعتبره ضروريًا بالنسبة لي، كأن أصف صخرة على حافة نهر، أو أن أراقب الناس حين يمشون، أو أن أرصد ظلي وهو يغير اتجاهه طبقا للشمس أو أن أصادق شجرة ما وأناديها باسم ما. ولم يكن يزعجني سوى الإنشاءات المدرسية الغبية المقررة، من نوع «إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر» أو «كيف قضيت العطلة الصيفية؟». ولكن أفضل تدريب لي على الكتابة تحقق عن

طريق آخر، وهو كتابة الرسائل الغرامية. كنت قد اشتهرت في مجلة جقور عن طريق أقراني في المدرسة، بكوني كاتبًا بارعًا، فانتهزت الفتيات، وهن في الأغلب أميات، ذلك ورحن يتملقن والدتي لتجعلني أكتب لهن سرًّا رسائل غرام إلى عشاقهن المسافرين أو الموجودين في مدن أخرى، غير هيّابات من الإفصاح عن عواطفهن الجياشة أمامي، فقد كنت في نظرهن صبيًّا صغيرًا لا يُخشى خطره حتى إن كان بارعًا في تدبيج رسائل الغرام. كن يأتين ويبحن لي بما يجول في قلوبهن المعذبة فأحول أشواقهن إلى نجاوى ما كان يمكن للمنفلوطي نفسه أن يكتب أفضل منها، رغم أني كنت أحاول تقليده في أسلوبه العاطفي المنمق.

وإذا كان الشعر قد ظل هو السائد في كتاباتي الأولى، فلأنه لم يكن ثمة سوى قاصين وروائيين معدودين في العراق ولا يكادون يحظون بأي تقدير في المجتمع، بعكس الشعراء الذين كانت صور بعضهم توضع داخل إطارات ذهبية وتعلق في المقاهي إلى جانب صورة الملك الشاعر التركماني هجري دده. أما الرصافي والزهاوي فكانا على كل جدار، وفي المقابل لم أجد كتابًا لقاص أو روائي عراقي لأقرأه، إلى أن عثرت حينما انتقلت إلى المتوسطة على بعض قصص عبد المجيد الخليلي التي لم تترك أي أثر علي، بعكس مجموعة قصصية واحدة ممتازة كانت قد صدرت في العام 1954 كما أعتقد لعبد الملك نوري بعنوان: «نشيد الأرض». هذا النقص في الإبداع العراقي لم يعد مهمًا بالنسبة لي، حين رحت أقرأ لكتّاب عرب مثل جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وتوفيق الحكيم وطه حسين ويوسف إدريس ونجيب محفوظ. ولكن الانتقالة الكبيرة في وعيي الأدبي تحققت حين انفتح أمامي المشهد الأدبي العالمي، عن طريق قراءة روائع الأدب الروسي في القرن التاسع عشر والتي قام سامي الدروبي بترجمتها ونشرتها دار اليقظة السورية (تشيخوف، غوركي،

غوغول، تورجينيف، دستويفسكي، تولستوي). أتذكر أن كتب غوركي كانت ممنوعة في العراق، لكن صديقًا لي أعارني رواية «الأم» باللغة التركية (طبعة العام 1900 في إسطنبول) فعكفت على قراءته بكل دأب، فكان أول كتاب أقرؤه بالتركية. وفي الوقت ذاته تقريبا تعرفت على الأدب القصصي الأميركي (مارك توين، وليم سارويان، أرسكين كالدويل، همنغواي، جون شتاينبك، فوكنر) والأدب الفرنسي (بلزاك، هوغو، ستندال، فلوبير، سارتر، كامو، سيمون دي بوفوار، يونسكو، بيكيت) أما الأدب الإنكليزي القديم والحديث فقد درسته في الجامعة. وهنا لا بد لي أن أشير بعرفان كبير إلى ما تعلمته من رواية «دون كيخوته» لسرفانتس، تلك الرواية التي تكاد تكون معجزة كتابية».

***

«بدأت كتابة الشعر مبكرًا، وقد نشرت أول قصيدة لي وأنا في الرابعة عشرة من عمري، نشرت في جريدة «اليقظة» اليومية البغدادية وكانت قصيدة نثرية. ورغم أنني تعلمت الوزن في فترة مبكرة أيضًا فإنني كنت معجبًا بقصائد حسين مردان التي كان يطلق عليها اسم «النثر المركز»، مثلما كانت تستهويني الترجمات النثرية للشعر الإنكليزي والأميركي جدًا، والفرنسي والتركي بصورة خاصة. وأتذكر أنني قرأت في تلك الفترة المبكرة من حياتي ترجمات لبعض قصائد والت ويتمان والتركيين ناظم حكمت وأورهان ولي، وطاغور وأراغون وبوشكين. كما كانت مجلة «الأديب» اللبنانية تنشر بين الحين والآخر قصائد نثرية لصاحبها ألبير أديب ولآخرين. وفي تلك الفترة أيضا كنت قد قرأت بعض قصائد جبرا إبراهيم جبرا النثرية. وكانت الصحافة تطلق عادة على هذا النمط الذي يتخلى عن الوزن والقافية

اسم «الشعر المنثور»، وهو توصيف كان يصيبني بالقرف ولم أستخدمه قط في حياتي. وفي رأيي أن قصيدة النثر العربية (أي القصيدة التي تكتب أبياتها نثرا وتتخلى عن الوزن وهو مفهوم يختلف عن مفهوم قصيدة النثر الأوروبية التي تملك معنى آخر) نشأت بتأثير الترجمة النثرية للقصائد الأجنبية، كما حدث في أوروبا أيضا قبل ذلك من خلال تبادل الترجمة بصورة خاصة بين اللغتين الإنكليزية والفرنسية.

كنت مطلعًا على تراث الشعر العربي القديم الذي كنت أحفظ الكثير منه عن ظهر قلب، مثلما كنت متابعًا للشعر الحر الذي ظهر في العراق: بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي، نازك الملائكة، بلند الحيدري..إلخ. لكني لاحظت الفارق بين ما تقوله القصيدة العمودية، والقصيدة الحرة (قصيدة التفعيلة) والقصيدة المكتوبة نثرًا. فقد كان الوزن يفرض طريقة معينة في قول الأشياء، بحيث غالبًا ما يقع الشاعر تحت أسر صوت الوزن الخارجي المكرر في آلاف القصائد السابقة. أما القصيدة المكتوبة نثرًا أو المترجمة فكانت تقوم على الصوت الشخصي وتتطلب الابتكار ولا تملك سوى إيقاعها الخاص بها والذي يخلقه الشاعر في كل مرة من جديد. ومع ذلك بدا لي أن ثمة خطرًا يهدد هذه القصيدة، وهو خطر يتعلق بالقدرة على خلق الإيقاع الضروري في القصيدة والإفلات من إغراء الاستسهال الذي حول الكثير من القصائد النثرية التي تكتب الآن أيضا إلى ما يشبه الخاطرة القائمة في الأغلب على المناجاة الذاتية والمونولوغ الإنشائي والافتقار إلى وحدة القصيدة. إن كثيرًا من قصائد النثر التي تكتب في هذه الأيام تشبه القصيدة العمودية القائمة على وحدة البيت لا وحدة القصيدة، حيث لا يكاد يوجد ما يشد أبياتها أو أجزاءها إلى بعضها.

لقد أفادتني تجربتي في كتابة القصيدة النثرية كثيرًا في كتابة قصيدة التفعيلة

الحرة، حيث جهدت منذ البداية أن أحول الوزن إلى وسيلة لخلق الإيقاع الشخصي بصياغة تمتلك بساطة وسهولة القول النثري. وقد وجدت أن بحر الخبب (أو قرع الناقوس) الذي غالبًا ما تجنبه الشعراء هو الأكثر طواعية في منح الشعر دقة النثر وفي إفلاته من الرنين العالي القائم على الإيقاع الخارجي المفروض».

***

«ثمة من يكتب قصائده حين يكون حزينًا، تبرح به الآلام، أما أنا فقد تعلمت أن الشعر يرتبط بالفرح أكثر من أي شيء آخر. يحدث هذا ليس فقط عند كتابة الشعر وإنما عند قراءته والإنصات إليه أيضًا. قراءة الشعر كانت دائمًا بالنسبة لي مناسبة للبهجة والمرح والسحر. فهي ترتبط بالعاطفة الأخفى لأنها تمس سلكًا ما في أرواحنا، سلكًا قد لا يكون مرئيًا سوى أنه قادر على إيصال بعض الكهرباء إلى حياتنا ولو للحظات، ولأنها تسمو بنا من حالة إلى أخرى تجعلنا نرى صورًا أخرى خارج حدود العالم المرئية التي تفرضها العادة علينا.

أما الفكاهة التي تشكل روح الحداثة في الشعر فتكسر أحادية الرؤية وعماء الآيديولوجيا وتهبط بالآلهة إلى الأرض لتجعلها أكثر إنسانية. أتذكر الآن ما كان الشاعر الأميركي مارك فان دورين قد قاله ذات مرة في مقابلة معه نشرتها مجلة نيوزويك: «ما من شاعر عظيم في العالم لم يملك صفة المرح والفكاهة. قصائد ملتون خالية من المرح، أما شكسبير فيملك كل مرح العالم في شعره، ولذلك فإنه أعظم بمئات المرات من ملتون».

وفي الوقت ذاته ترتبط السحرية بالقصيدة وقراءتها، خاصة في الليل، فهي تكمن أساسا في صلب العملية الشعرية التي تعني الحد وقبل ذلك في اللغة

نفسها. ما تكاد تضع كلمة جنب أخرى حتى يبزغ شيء ما لم يكن موجودًا من قبل. والأكثر من ذلك أن القصيدة تظل مجرد رموز من حبر على الورق، غائبة عن الأنظار ومرمية في وحدتها الخاصة بها، ولكن ما تكاد تفتح الكتاب وتقرؤه حتى تستيقظ القصيدة من رقادها وينبعث الشاعر من أبديته مهما طال غيابه عنا. الكلمات هنا مفاتيح دخول إلى عالم القصيدة فيما القصيدة نفسها مفتاح للدخول إلى بيت الشاعر الذي سيكون مرغما على استقبالنا فيه، مهما كان موقفنا منه أو موقفه منا، فقد خرج الأمر من يده منذ اللحظة التي نشر فيها قصيدته.

كل حديث عن الشعر يظل ناقصًا، إذ لا توجد وصفة واحدة للشعر الذي يمكن أن يتخذ أشكالًا وأنماطًا لا نهاية لها. بعد كل الزمن الذي أمضيته في كتابة الشعر أجد نفسي الآن أيضًا في ذات الموقع الذي انتهى إليه الشاعر الأرجنتيني بورخيس حين قال لطلابه ذات مرة: «ليس لدي ما أقدمه لكم سوى الحيرة.» في كل مرة أكتب فيها قصيدة جديدة تنتابني مثل هذه الحيرة التي تسبب لي الحمى أحيانا من فرط العاطفة التي تتطلبها القصيدة.

في كل مرة عليّ أن أتعلم كيف أكتب القصيدة».

***

«كثيرًا ما أفكر في النص الذي أريد أن أكتبه حين أرقد في السرير، عالقًا بين النوم واليقظة، حيث أنوء تحت ثقل أفكاري التي أجهد أن أتذكرها في اليوم التالي لأدونها على الورق. هناك قصائد قليلة حلمت بها وكتبتها في النوم. لكنني أفكر في نصوصي عادة حتى حين أكون في القطار أو المقهى لأكتبها تاليا حين أكون في غرفة عملي. بعض نصوصي يقع ضحية النسيان بالطبع، بدون أن أفقد الأمل في استعادته ثانية».

«يرتبط الإبداع دائمًا بالإنجاز الفعلي الذي يحققه الكاتب في حياته، وليس بالادعاءات الفارغة، إذ كل عمل في الحقيقة هو امتحان جديد لقدرته على الإنجاز. وهنا يكمن ذلك السحر الآسر للكتابة: أن تتحدى نفسك في كل مرة. وما دام المرء معافى فإن عليه أن يكتب إذا كان كاتبًا بالفعل، يمتلك ما يهمه أن يقوله، وإلا ما فائدة الصحة بالنسبة للكاتب، كما قال سارتر ذات مرة في مقابلة معه، إن لم يستغلها في الكتابة؟ لقد اخترت أن أكون كاتبا وعليّ أن أبرر ذلك أمام نفسي على الأقل. وإذا ما أخفقت في عملي هذا فإن الذنب كله يقع عليّ وحدي».

***

«اكتشاف قيمة كتاب أو كاتب ما عملية معقدة للغاية. فقد كانت فيرجينيا وولف، وهي كاتبة مبدعة بدون شك، تسخر من رواية مثل «يولسيس» لجيمس جويس، مثلما كان تولستوي الكبير ينتقص من قيمة شكسبير، بل إن كاتبًا مثل أندريه جيد، وكان مستشارًا لإحدى دور النشر الفرنسية قد أوصى بعدم نشر رواية «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست، بدعوى أنها رواية مملة، مرتكبًا بذلك ما اعتبره فيما بعد خطأ حياته».

***

«بقدر ما يهمني أن أقرأ امرأ القيس والمتنبي وأبا تمام والبحتري والجاحظ وابن المقفع والحلاج يهمني أن أقرأ أيضا شكسبير شيلر وريلكه وتولستوي ودستويفسكي وسرفانتس وهيغو وبلزاك وستاندال وعمر الخيام وحافظ الشيرازي وهوميروس وفرجيل وأفلاطون وملحمة كلكامش...إلخ. والسؤال: كيف يمكن لكاتب ما أن يكتب بدون تراث ما يركن إليه؟ إن من

يتهموننا بالتنكر للتراث، لا يعرفون كما يبدو أن كل كلمة في اللغة، ونحن نكتب باللغة، تتضمن تاريخا سحريا طويلا من التراث.

لقد وجدت دائمًا الكثير من المتعة في قراءة الكتب القديمة، مثلما اكتشفت السخف الذي يتضمنه بعضها أيضًا».

***

«في أوديسه هوميروس التي تعتبر أول بيان للحضارة الغربية رفض يولسيس أن يمر بحوريات البحر بدون أن يستمع إلى غنائهن الذي يغري البحارة برمي أنفسهم في خضم الأمواج الهائلة للوصول إلى الصخرة السحرية. لقد اختار المعرفة رغم عذابها كبديل للجهل المتمثل في الصمت الذي فرضه البحارة على أنفسهم حين سدوا آذانهم بالشمع، ذلك الصمت الذي اعتبره فرانس كافكا لغة مثل أي لغة أخرى: أجل إن غناء الحوريات قد خلب لب يولسيس، لكنه كان قد احتاط للأمر فشد نفسه بأوثق الحبال إلى صارية سفينته التي سيشق بها عباب البحر إلى إيثاكا البعيدة».

***

«ما من كاتب يمكن أن يتنبأ مقدمًا بما سيكون عليه مصير كتابه حين يكون بين يدي القارئ، فللكتب مصائرها مثل البشر تمامًا وثمة دائمًا عوامل كثيرة قد تؤدي إلى رواج كتاب ما أو عدم رواجه، وهي عوامل قد لا تكون مرتبطة بالضرورة بمستوى العمل ذاته. تعلمنا التجربة العالمية أن أعظم الأعمال يمكن أن تطمس مؤقتًا، حين يسيطر الغوغاء والرعاع والجهلة على المشهد الثقافي وينتهي التنوير لصالح الخرافة».

«ثمة من يقرأ الماضي بعين الماضي في حين أنني أدعو إلى قراءته بعين الحاضر. هذا يعني أن حدثًا ما وقع في الماضي قد يفهم بطريقة مختلفة الآن عما كان يفهم به في القرن التاسع عشر أو قبل ألف سنة مثلًا. من كان يقرأ كتاب «ألف ليلة وليلة» قبل قرن أو قرنين أو ثلاثة كان يفهم منه شيئًا آخر غير الذي نفهمه منه نحن الآن. بل أن تاريخ الأدب العربي ظل يحتقر هذا الكتاب ولا يعتبره أدبًا أساسًا، في حين أننا نراه اليوم واحدًا من أهم الكتب التي وضعتها البشرية في كل تاريخها. قراءة الماضي بعين الماضي هي أساس كل الكوارث التي يشهدها العالم العربي منذ عقود، ليس لأنها تعني نفي الحاضر إلى الماضي فحسب، وإنما أيضًا إلغاء كل المعرفة البشرية الجديدة والتنكر للعلم، وفي النهاية امتهان التراث نفسه باسم الحفاظ عليه بعد تحويله إلى صنم لا حياة فيه. قراءة الماضي بعين الحاضر هي الوسيلة النقدية الوحيدة التي تمكننا من امتلاك أجمل وأعظم ما في ماضينا وإنقاذه من سجنه المدجج بالتخلف الفكري».

قصة حياة

إبراهيم المازني

مشاهد مؤثرة من الطفولة والشباب والشيخوخة تعبر عن بعض قصة حياة إبراهيم المازني، سلسة الأسلوب، مثخنة بالحكم والدروس، تضحك معها حينا وتتعاطف معه أحايين.

انتهاك عذرية طفولته مبكرًا وتحميله مسؤولية البيت بعد وفاة والده، وحرمانه من ألعابه في التاسعة من عمره، أثّرت فيه لدرجة أن «قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول حرمان، جففتا عبراتي وعلمتني أن أبكي بقلبي دون عيني، وأن أستر ضعفي على الناس، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرؤون فيها آيات الرضا والاستبشار والثقة»، وجعلته يتعامل مع الصعوبات بنظرة تفاؤل، ويقرأ في المرارة فائدة «فقد أفادتني المحنة صلابة ودعمًا وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها، ولو كنت نشأت في نعمة سابغة لكنت حريًّا أن يُفسدني التدليل».

من حرقِه لبيتهم في محاولة تجربة التدخين، وهروبه من المنزل ليومين وتعميم أهله البحث عنه فيَ المدينة، ومشاغباته في المدرسة، إلى فلسفته في التدريس والتربية، والقراءة والتعامل مع المؤلفين، يتنقل المازني بخفة.

وفاة زوجته على فراشها بعد صراع مع المرض بسبب خطأ طبي، كادت أن تُذهب عقله، «ولم ينجني من الجنون إلا انكبابي على ابن الرومي، والاشتغال بتصحيح الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك: وهذه أول مرة نفعني شاعر!».

«قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالًا على الحياة، وطلبًا لها ورغبة فيها، أو أن الكهل أقل تشبثا بالحياة أو أكثر فضيلة أو آثر لها وللعفة والزهادة في سيرته. وقد أثار هذا القول اعتراض بعض الإخوان، فأنشؤوا يجادلونني فيه، فكان مما قلته لهم: إنكم لا تواجهون الحقائق بل تهربون منها، وتشيحون بوجوهكم عنها، لأنكم ترون هذا أكرم لكم وأبعث على توقيركم، أو أنتم تجهلون نفوسكم، أو تغالطونها أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شابا كما كنتم، ولعل الفرق بيني وبينكم أني كنت، وما زلت، مغري بإدارة عيني في نفسي، والغوص في لجتها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث، وأني لا أحب أن أسمي الأشياء أحسن أسمائها بل أسماءها الحقيقية، وأني قد أغالط الناس، وأخدعهم ولكني أصدق نفسي وليس أحلى عندي وأمتع، ولا أوقع وأروع، من أن أتناول نفسي، كلما تيسرت لي الخلوة بها، وأحطها على كرسي أمامي، وأتدبرها، وأجيل فيها عيني، وأفحصها وأجسّها، وأسبر أغوارها، وأمتحن نزعاتها وبواعثها، وألتمس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها، وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد، بلا تلعثم، أو مصانعة، أو مغالطة، وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التجنّي، ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال.

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط، والصواب أنها هي التي تركبه في شبابه تركض به من غير أن يكون له رأي أو إرادة، ومن غير أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع، وما يركب الحياة بالرأي والإرادة إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع أو هذا، على الأقل، ما بلوته من نفسي، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح.

كنت شابًّا، فكيف كانت حياتي؟ وكيف كان الشعور بها؟ أردُّ عيني إلى هذا الماضي وأحدّق، وأستشف، وأستجلي، وأستوضح.

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول: لا أدري! كل ما أدريه أني كنت محمولًا على متن تيار قوي، وكنت أقرأ، وأعمل، وأجد وألعب، وأشتهي وأطلب أو أقصر ولكن بغير فهم صحيح، أو إدراك تام لما أنا فيه، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور، كانت الكتب تعديني وتسحرني فأنظر إلى الدنيا بعيون أصحابها لا بعيني، و أحسها بقلوبهم لا بقلبي، وأتصور حياتي وأقيسها على ما يروقني من صور الحياة في هذه الكتب، وأنتحل آمال أصحابها ومخاوفهم وهماتهم وعزماتهم ومثلهم العليا، وصور الكمال عندهم، وأوحي ذلك كله إلى نفسي، ثم أزعمني ندهم وقريعهم فأزهى وأتكبر، وأغتر، لأني أرى نفسي كما رسمها خيالي الذي استمد من هذه الكتب، لا كما هي في الواقع، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحي هذه الكتب.

وأضرب مثلا: عشقت مرارا، وقال فيّ صديقي الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إليّ في ذلك الزمان:

أنــت في مــصر دائــم التمهيــد

بـين حـب عفـى، وحـب جديد

وأذكر أنه بعث إليّ يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها، وكان الرقم الأخير 17 وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفارًا لا أسماء، إشارة إلى أن معاشقي لا تنتهي، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها.

وإذا قلت عشقت، فإنما أعني الآن أني اشتهيت، وأني عانيت هذا الضرب من الجوع الذي يسميه الناس الحب، ولكني لم أكن أدرك هذا يومئذ، أو

أنظر إلى حقيقة الأمر فيه، وإنما كان ما أقرأ من الشعر يغريني بنشدان الحال، ويطلقني كالنحلة بين أزاهير السن، ويدفعني إلى إيحاء الشعور بالحب إلى نفسي، فأتوهم أني محب، وأني عاشق، فأقضي الليل مسهد الجفن مؤرق النفس، أنظم الشعر وأقول في هذا المحبوب أو ذاك.

وألقى المحبوب، فماذا كنت أصنع؟؟ لا شيء أكون معه كما أكون مع أي واحد من خلق الله، ولا يخطر لي حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد بنضارته ورونقه، أكلمه كما أكلم غيره، وأجد أو أمزح، على نحو ما أفعل مع إخواني بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتي، وأقعد بين كتبي، فأروح أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر، وأخلع عليها من الخيال حللًا ذات ألوان شتى، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات أو نظرات لم أعبأ بها في حينها، وأحملها المعاني التي أريدها، فأسر بهذا، وأتألم لذاك، وأرى في هذه الكلمة والإشارة أو النظرة، معنى الرضا أو التشجيع، وفي تلك معنى التدلل أو الملل، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال هكذا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد!

لا، لم أكن أعيش، أو أشعر بالحياة، وإنما كنت أنظم شعرًا، وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذي أريد العبارة عنه، والعاطفة التي داخل الصدور عنها، وأوحي لنفسي هذا كله، وأنتهي بأن أعتقد بأن هذا هو الذي شعرت به حقيقةً لا توهمًا، وأنه هو الذي خامر نفسي لا الذي أنشأته أنا لها بقوة الإيحاء.

ولا يخلو من فائدة في بيان هذه الحقيقة، أن أقول: إن قرض الشعر هو الذي كان المقصود والذي اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة وإن ما كان من حب متوهم إنما كان ثمرة هذه الرغبة في قرض الشعر، أي أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له، كما يريد النجار أن يصنع كرسيًّا فيطلب الخشب وما إليه، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء، أن من أعرف

الآن من نفسي أني صغوت بقلبي إليها لم تكن قط موضوعًا لشعري، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرت عن زهرة إلى زهرة في بستان الحسن، فذاك لأن العاطفة لم تنشأ نشوءًا طبيعيًّا، بل بإيحائها إلى النفس.

وفي وسع القارئ أن يقيس على هذا، فأنا لم أكن في شبابي أتلقى وقع الحياة مباشرة، بل عن طريق الكتب، وكنت لهذا كالذي نومه غيره تنويمًا مغناطيسيًّا، فرأيه، وشعوره، وعاطفته، وهواه، وأمله، وخوفه، وحبه، وبغضه، هو ما يحدث في نفسه إيحاء منومه.

وقد شببت عن هذا الطوق، وما زال ولوعي بالكتب كما كان، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنبها تلك الفتنة، فأنا أنظر في الكتب، وفي الحياة، بعيني، لا بعين الكاتب أو الشاعر، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب، وأطلب الشيء لأني أريده وأراه جديرًا بالطلب، وأقيس قدرتي إلى رغبتي، وأوازن جهد السعي وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط، والموازنة الدقيقة.

وأحاول أن لا أغالي بقيمة شيء، أو أن أبخسه حقه، ولا يستخفني هوى، أو يغرني حال، أو يخرجني عن طوري أمر، أو يفقدني اتزاني فرح أو حزن، ورضا أو غضب، ولا تجمح بي شهوة، ولا تركض بي صبوة، لأني أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء، ولا أعدو بها مكانها، ولا أخلط بها الأوهام، ولأني أسير في الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجوانب، فإذا سألتني: لماذا أفعل الشيء؟ فإني أعرف الجواب الصحيح، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الرؤية والحساب والوزن، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه.

ويمكن أن أقول - ويمكن أن يصدق القارئ - إني كنت في شبابي أواقع الحياة مواقعة الهواة، أما الآن، فإني أواقعها مواقعة المحترف، وقد صارت

الحياة عندي حرفة، تعلمتها، وحذقت منها الجانب الذي طلبته ورأيته أوفق لي، والفرق بين الهاوي والمحترف لا يحتاج إلى بيان.

وكل عواطفي وأهواء نفسي، طوع إرادتي، وإرادتي لا تخضع إلا لتقديري لما ينبغي ويحق لي في رأيي أن أفوز به من الحياة، والعمد في سيرتي محقق، إلى الحد الذي يتيسر للمخلوق الخاضع لسنن الخلق. وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسي؛ لأنه يكسبني حظا من الاستقلال ويجعل لي فيما أشعر نصيبا من الحرية في الحياة، ولا شك أنه يجعل شعوري بالتبعات أقوى وأثقل، ولكن هذا هو الأكرم، إذ أي قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسؤول عما يصنع؟».

***

«كانت حياة الشباب، حياة كبت، وحرمان وحيرة، ولم أكن أعرف لي يومئذ معادًا غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرض الشعر».

عالم السدود والقيود

عباس العقاد

من شيم النفس البشرية أن تجعل مكان إقامتها واهتمامها مركز الكون ولو كان أتفه ما فيه، وكذلك كان سجن مصر العمومي الذي حُبس فيه عباس العقاد تسعة أشهر، حاول بعد ذلك أن ينقل للقارئ ما شاهده وما عايشه فيه، ليطلعه على حياة السجن مختصرًا التسعة أشهر في ساعات يقضيها القارئ مع سيرته وهو يتفكه ولا يضيق ذرعًا بعالم السدود والقيود.

بعد أن تراجع عن السفر لأوروبا خوفًا من منعه العودة، جاءه الضابط بورقة الاستدعاء ووقعها على أن يحضر للنائب العام في الغد، ولأنه لا يستطيع العيش من دون القراءة، فأول ما بدأ بتجهيزه لرحلة السجن التي كان واثقًا من وصولها هي الكتب التي سترافقه، ثم الأدوية والأغطية التي يحتاج إليها.

ولحالته الصحية ومقالاته السياسية التي كانت سبب إدانته قرروا سجنه في «قرة ميدان» الذي ما إن دخله حتى لاقى من سبقه مرحبين به بعد أن سبقت البشائر إلى العنبر قدومه! واستثمارًا لمقروءاته الوفيرة في النفس البشرية حاول استنطاق أوجه المجرمين ورفقاء السجن ومصنفًا لها حسب مقاييسه، و«من أصدق المقاييس التي تسبر بها طبائع النفوس الفكاهة والغناء. فإنك لن تجد الفكاهة ولا الغناء في نفوس خلت كل الخلو من الخير والمحبة الإنسانية وصلاح الفطرة للعطف والمؤاخذة».

«يسمح النظام في «قره ميدان» بالقراءة للمحجوزين على ذمة التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط، وتنحصر القراءة المسموح بها في الكتب الدينية والعلمية والأدبية التي «لا تخل بالنظام» ما عدا الروايات وكتب التسلية، ويرجع الأمر في التفريق بين ما هو جائز من المقروءات وما هو محظور إلى رأي الموظف «الكتابي» الذي يتفق وجوده ساعة وصول الكتاب؛ لأن الموظفين العسكريين يترفعون عن الخوض في هذه المسائل «الملكية» ولا يشعرون بغضاضة على أنفسهم من إلقائها على كاهل حملة الأقلام، ولكن ما الحكم في اللغات التي لا يعرفها الموظف الحاضر؟ وما الحكم في الروايات التي هي من صميم الأدب؟ وما الحكم في الكتب التي لا يلوح عليها أنها روايات إلا لِمَنْ قرأها وأحاط بتراجم أصحابها؟ وما الحكم فيما يخالف النظام من التصانيف إذا كان المراقب الفاضل لم يسمع قط باسم كارل ماركس ولا كروبتكين، ولا مانع عنده من إجازة كل تأليف لإخوان هذا الطراز؟

الحكم في ذلك كله للمصادفة والمزاج، فكثيرًا ما يتوغل في السجن من أجل هذا كتاب يقشعر له بدن النظام الاجتماعي وكل نظام في الوجود، وكثيرًا ما ينتظر الكتاب الإذن بعبور الجدران أيامًا وأسابيع حتى يرسل إلى الإدارة العامة ويعثر هناك على مَنْ يعرف الألمانية أو الأوردية أو الأرمنية وما شابهها إذا كان مكتوبًا بإحدى هذه اللغات.

وقد وقع اختياري عندما وصل إِلَيَّ إعلان دعوة التحقيق على كتابين في التاريخ والأدب، وهما الطبعة الجديدة من مختصر تاريخ العالم للمصلح الإنجليزي «ه.ج.ولز»، وسيرة بيرون للكاتب الفرنسي «أندريه موروا» مترجمة إلى الإنجليزية، فأفردتهما جانبًا ووضعت علامات على الكتب الأخرى

التي سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين.

ولم يكن اختيارًا في الحقيقة ذلك الذي هداني إلى اختصاص تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة في أيام السجن الأولى، ولكن الكتابين كانا قد وصلا إِليَّ في البريد الأخير فوجدت الفرصة سانحة للفراغ منهما في هذه العزلة المقسورة!

على أنني لو تعمدت الاختيار المناسب «لمقتضى الحال» كما يقولون لما اخترت غير كتابين من هذا الباب وعلى هذه الوتيرة، فليس أحب إلى الإنسان من أن يعوض حركة الجسم إذا فقدها بحركة الخيال، وليس أقرب إلى المعقول من أن يلتمس في عالم القراءة ما يعز عليه في عالم الواقع، وأي قراءة أليق بالسجين على هذا الاعتبار من تاريخ يصاحب به حركة الإنسانية بأسرها من بداية نشأتها ومن قبل نشأتها إلى يومها الحاضر؟ أو من سيرة رجل قضى حياته كلها جامحًا بين رحلات الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوى والمغامرة؟

فقد أحسن القدر الاختيار لي فيما أرى! ومن قبل ذلك بأعوام أذكر أنني كنت أنتقي ما أقرأ وأنا مريض يائس من الشفاء، فكانت يدي تتجه إلى نوعين من الكتب بينهما مسافة بعيدة من الاختلاف في الموضوع والوجهة، وأعني بهما الكتب التي تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية والكتب التي فيها بحث عَمَّا وراء الطبيعة واستكناه لحقائق الأرواح وعالم الغيب، وما أشد الاختلاف بين الموضوعين! وما أبعد المسافة بين النوعين! ولكن الصلة التي تجمع بينهما أقرب الجمع بعد ذلك هي «التعويض» النفسي الذي يشتركان فيه، فكلاهما كفيل بتعويض المريض الذي يحس من نفسه أنه سيفقد الحياة، وإنما يعوضانه في عالم الخيال والتفكير؛ لأن حياته الواقعية تريه مقدار الحاجة إلى عالم الحس كما تريه مقدار الحاجة إلى عالم الروح.

على أنني لم ألبث أن عرفت أن للكتاب في السجن فائدةً غير فائدة القراءة، وربما كانت فائدته الأخرى هي المقصودة في كثير من الأحيان عند كثير من المسجونين، ولا سيما المصاحف وكتب الدين على اختلاف الأديان.

أما هذه الفائدة الأخرى فهي الاستخارة! وهي أن يفتح القارئ الكتاب على الصفحة اليمنى ثم يعد سبعة أسطر ويقرأ ما يصادفه في السطر السابع، فإذا هو المصير الذي ينتظره و«القرعة» التي تصيبه بغير تدبير ولا مجاملة ولا مداراة، فإذا كان الكتاب مصحفًا أو سفرًا دينيًّا كائنًا ما كان فذاك إذن أشبه بالوحي السماوي وصوت النذير من عند الله.

ولا أظن أحدًا من القراء لم يسمع قائلًا يقول في دهشة وغضب: «أتريد أن أغالط نفسي» كأن مغالطة النفس أبعد الأشياء! وكأن الإنسان لا يغالطه إلا الآخرون ولا يغالط هو إلا الآخرين.

ولكن ساعة من ساعات الضيق الشديد أو الحزن الشديد أو اللهفة الشديدة لتُرِينَّ الإنسان - كل إنسان - أن المغالطة الكبرى إنما تكون من جانب النفس لا من جانب الخادعين بين الأصدقاء والأعداء، فهو يصدق الرجاء أو العزاء؛ لأنه يحتاج إلى تصديقه، لا لأنه يقيم البرهان عليه ويتبين الوقائع التي ترجحه وتقويه، والمقياس الوحيد لصدق العزاء في ساعة الضيق أنه ضروري لازم لا أنه صحيح معزز بالبرهان، ولهذا يغتبط المسجونون بالبشارة التي تأتي من الاستخارة كأنها خبر وثيق لا كذب فيه، بل يغتبطون بها؛ لأنها خبر لا يضير فيه الكذب ما دام يسر، ولا يفتقر إلى تمحيص الغد ما دام مقبولًا في حينه.

وقد كان بعض المسجونين الذين يلقونني عند الحلاق ويروننني في غفلة من الحراس يحدثونني ببشائر «الاستخارة» والأحلام كأنهم يتحدثون «بالأسانيد» والبينات، فأشكر لهم مودتهم، ولا أحب أن أزعزع فيهم ركنًا

من أركان العزاء، وما أوهى أركان العزاء جميعًا عند بني الإنسان!

كان باب الحجرة عندي مفتوحًا للتنظيف في صباح يوم، فجاءني زميلي ودليلي وجاري السيد علي شاهين يحمل مصحفه ويعلمني هذه الفائدة الجديدة من فوائد الكتب بين جدران السجون، ومن المصادفات المدهشة أنه أخذ في الاستخارة لنفسه، وانفتحت له إحدى الصفحات اليمنى من سورة يوسف فقرأ في السطر السابع: ﴿سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي﴾.

فانتفض صاحبنا كأنما سمع الحكم بالسجن يتلى عليه! وحق له أن ينتفض لأن المصادفة في الحقيقة كانت من المدهشات التي قلما تتفق في هذه الاستخارات، إذ ليس في المصحف كله آية تناسب استخارة السجين الذي سيحكم عليه كما تناسبها هذه الآية، ولكن ما أعمق معين المغالطة في نفس الإنسان كلما احتاج إلى الرجاء والعزاء! فإن صاحبنا لم يقف عند السطر السابع بل زعم أن أصول الاستخارة تقضي بمتابعة المعنى إلى تمامه، وجعل يقرأ ويقرأ حتى وصل في ختام الصفحة التالية إلى الآية التي تقول: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وكنت أقلب في كتاب «تاريخ العالم» فقال لي صاحبي: «ألا تستخير عندك؟»

قلت: «وهل تصلح الكتب الإفرنجية للاستخارة؟»

قال: «جرب!»

ولا أظن شيئًا يبعث الأسى على تاريخ بني الإنسان المساكين كما تبعثه الاستخارة في كتاب تاريخ عام، فما أذكر أننا وقفنا على سطر إلا وكان فيه عراك أو نكبة أو معنى محزن إن كان فيه معنى على الإطلاق، وفي إحدى هذه

الاستخارات ظهرت لنا آية قرآنية مترجمة علمت موضعها بقلم رصاص كان مع السيد علي شاهين، ولم أكن أنا أحمل قلمًا ولا رضيت أن يحمل إِلَيَّ شيء من المهربات، فإذا السطر السابع منها هكذا:

Grieve at what had escaped you, nor at what befell you; and (Allah is aware of what you do).

وتمام هذه الآية من القرآن في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾

وفي اليوم التالي لدخولي السجن أبلغت أن المصلحة ترخص لي في شراء الصحف التي أريدها على حسابي، فتعبنا جدًّا في إحضار صحف المساء قبل الغروب وإغلاق الحجرات - وهي توزع في ميدان القلعة نحو الساعة الرابعة - لأن البائع الخبيث علم أن هذه النسخ «مضمونة البيع» فالأولى به إذن أن يبدأ ببيع النسخ «غير المضمونة»! ولم يشأ من أجل هذا أن يحضر إلى السجن وفي ضوء النهار بقية، وأصر على ذلك مع تنبيهه مرة بعد أخرى، وإن كان هذا لا يمنعه أن يلقاني بالدعاء والابتهال كلما خرجت من السجن، وكلما عدت إليه في طريق التحقيق والمحاكمة!

وربما علم بعض حضرات القراء أنني شرعت في أيام سجني أتعلم اللغة الفرنسية، وهي مصادفة من المصادفات أيضًا لم تكن تجول في نيتي عندما دخلت السجن واخترت كتب القراءة التي تقدمت الإشارة إليها، وإنما فكرت في ذلك على أثر تحية وجيزة لقيتها من رجل إيطالي مهاجر وضعوه في الحبس ريثما يتثبتون من «جنسيته» في الوكالة الإيطالية، فقد اقترب مني هذا الرجل يومًا ورفع قبعته محييًا وهو يقول بالفرنسية: «يا حضرة النائب

....» ثم شفع ذلك بكلام كل ما فهمته منه يومئذ أنه قرأ أخبار قضيتي، وأنه يسره أن يراني ويبلغني تحياته، فحاولت أن أفهمه جوابي بالإنجليزية فلم يفهم إلا قليلًا لا يزيد على ما فهمت منه! فسألت نفسي: وما بالي لا أتعلم الفرنسية في هذه الفرصة؟ أمامي الآن نحو خمسة أشهر وهي مدة كافية للإلمام بالمبادئ، ولم يكن وقت التحقيق صالحًا للشروع في هذا البرنامج؛ لأنه وقت غير محدود، فلنبدأ الآن فقد عرفنا بعد صدور الحكم بالحبس البسيط مدى ذلك الوقت المحدود.

وأنت أيها القارئ - وقاك الله - لا تعلم كما علمت أنا في السجن أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول «قلم» إلى حجرة سجين بإذن من مصلحة السجون، فإن الترخيص للسجين بحمل القلم يقتضيه كما قيل لي أن يكتب عريضة لإدارة السجن، وأن ترفع هذه العريضة إلى مدير المصلحة، وأن ترفع بعد ذلك إلى كل من وزير الداخلية ووزير الحقانية، وهناك يصدر الأمر بالرفض أو القبول إذا شملته رعاية خاصة، والأرجح أن يرفض لغير سبب إلا أن الرفض مباح للرئيس، وإنه في معظم الأحيان شرط من شروط الرئاسة.

وَلِمَ كل هذا العناء؟

نعم إن القلم ضروري لتعليم الأسطر كما تعودت في دراساتي ومطالعاتي، ثم تدوين الكلمات التي تُرَاجع وَتُحْفَظ، ولكني استعضت منه بالظفر أحز به العلامة في الهامش وفي خلال السطور، وبثني الصفحات في مواضع المراجعة والإعادة، واستغنيت عن كتابة العرائض التي يقول فيها جبرائيل لميكائيل وميكائيل لإسرافيل وإسرافيل لعزرائيل، ثم لا ينتهي بعد ذلك إلى كثير ولا قليل.

ومن طرائف المقترحات التي سمعتها وأنا أبدأ دروس الفرنسية الأولى أن

أدع هذه اللغة وأعد نفسي - بدرس الفقه والشريعة والتصوف - لأن أكون إمامًا واعظًا في الأقطار الإسلامية! وأن أفطن للحكمة الإلهية التي قيضت لي محنة السجن، كما فطن لها صاحب الاقتراح الملهم بظهر الغيب.

وجعل صاحبي - أعني صاحب الاقتراح - يسأل ثم يجيب نفسه: هل تستحق أنت بلاء السجن؟ لا ولا ريب!

إذن لا يظلم ربك أحدًا! وما أراد ربك بسجنك إلا نفعك ونفع المسلمين بك، وأن لا تكون غاية سعيك خدمة الوطنية المصرية دون الجامعة الإسلامية، فدع الفرنسية واقرأ في الأشهر الباقية كتب التفسير وأصول الدين، وتجرد لما جردك له الله، وثق أنك هنا لأمر عظيم.

وهكذا كان يحاورني من حين إلى حين رسول تلك البشارة المغموطة، والهداية التي تخلق الهداة على الرغم منهم! ورسولنا هذا هو هندي متورع محبوس في قسم الحمايات لتهمة اختلاس في تجارة كبيرة ينكرها أشد الإنكار، ويزعم أن عداوته للحكومة في الحركة الهندية هي علة تلفيق التهمة عليه، وكان لا ينقطع عن كتب التفسير والأحاديث يقرؤها بالعربية فيفهمها بعض الفهم، ولكنه يتكلم الإنجليزية إذا أراد التبسط في الحديث.

وفارق الرجل السجن وفارق مصر وهو بغصة المحسور على ذلك الإمام الذي هو واثق أنه إمام منتظر، وواثق كذلك أنه قد ضيع بيديه الإمامة التي أعده لها القدر، وما أعجب الجمع بين الثقتين!».

عين النقد

صلاح فضل

قيمة السيرة الذاتية من تعدد تجارب ساردها، ورحلاته التي تضفي له ثراءً وحكمة، فكيف إذا كانت تغطي جوانب مهمة من التاريخ الاجتماعي والسياسي الذي عاصره المؤلف، ولا تنحصر على شخصه وتنقلاته وأفكاره.

الدكتور صلاح فضل بـ عين النقد يستعرض لنا الكثير من الأحداث المهمة التي عاصرها، ورحلاته بدءًا بدراسة الدراسات العليا في أسبانيا لسبع سنوات، وما تشّربه من الثقافة الأسبانية، مرورًا بالعمل أستاذًا للثقافة العربية بالمكسيك، ومستشارًا ثقافيا في مدريد، إلى العودة لمصر وصراعاته مع وضع التعليم البائس.

يكثر من عرض مؤلفاته ومبرراته فيها، وفخره بريادته في كثير من المجالات النقدية، ونقمته على عدم تقديره، ولقاءاته مع كبار الكتّاب المصريين والعرب، والحوارات التي دارت بينهم، مظهرًا بعضًا من غرور إحسان عبد القدوس، وتواضع لويس عوض، وموسوعية توفيق الحكيم.

«الحرية هي أوكسجين الإبداع أدبًا ونقدًا» كان شعاره في العمل الثقافي الذي حرص فيه على عدم التصنيف فكريًا وسياسيًّا، وما اكتسبه وفقده بسبب ذلك.

العزاء بالقراءة

«تعوّدت على مساءلة نفسي منذ الصغر قبل أن أخضع لمحاسبة الآخرين وتقييمهم، وكانت البيئة الريفية المفعمة بعطر التدين المبالغ هي الحاضنة الأولى لطفولتي المنتشرة، والمدموغة بالفقد والحرمان والرغبة المكبوتة في التمرد، غيّب الموت أبي وأنا لا أزال في الرابعة من عمري، فلم أفهم سببا لذلك، وشاهدت رفيقي وابن عمتي بعدها يمسك بيد أبيه، فذهبت إلى أمي أسألها أن تحضر لي أبي حتى أقبض على كفيه؛ فانفجرت بالنشيج، وأدمت قلبي، ولم تفلح محاولات جدي الشيخ الأزهري الوقور في هدهدة روحي المكلومة، بل زاد عذابي عندما أصر على قطع دراستي المدنية في المدارس بعدها؛ كي ألتحق بالكتاب، وأحفظ القرآن، وأنخرط في التعليم الأزهري؛ كي أعوض والدي الذي رحل وهو في عامه الأخير في تخصص القضاء الشرعي، كنت أخشى العمامة التي ستحرمني من أن أعيش طفولتي وصباي، وجدت ما توقعته؛ فقد صعدت لمنبر القرية وأنا في الحادية عشرة من عمري، وألقيت خطبة الجمعة، وقبل المصلون يدي، وحرم علي حينئذ أن ألعب بكرة الشراب في شوارع البلدة، أو أسبح عاريًا في الترعة، أو أرمق الشغف في عين إحدى البنات؛ فقد صرت شيخًا لا ينبغي له سوى الجد والاجتهاد. صار التفوق في الدراسة عزائي الوحيد، لكنني خُلقت بعيب لا حيلة لي في دفعه، فبقدر سرعتي في الحفظ كنت سريع النسيان، فذاكرتي مثل الغربال، لا تستبقي سوى ما يلتصق بالفهم، وفوجئت بأن الدراسة الأزهرية تعتمد على التكرار البليد والاستذكار العنيد، ليس فيها أي مجال الحرية كسر القواعد أو الخروج على النصوص، وقد وجدت عزائي في الاستغراق الممتع في قراءة الأعداد المتراكمة في خزانة بيتنا من مجلة الرسالة للزيات، حيث أصبحت أتلذذ في

تأمل صياغة أسلوب رئيس التحرير، وبلاغة مقالات الرافعي، وسحر طه حسين، وطرافة زكي مبارك والمازني، اكتشفت بعد ذلك الكتب؛ ففرحت بعميد الأدب العربي عندما انتقم لي بنقده للتعليم الأزهري في «الأيام»، ولاعب الشيوخ وأرهقهم في عبثه بالشعر الجاهلي، وإنكاره لقداسة القدماء، وحفاوته بالفكر العلمي، وأعجبت بجبروت العقاد الفكري، وقدرته على صناعة العباقرة وفق مزاجه، لكني ضقت بشدة من حِدّته في هدم شوقي الذي كنت أعشقه. ومن الحق أن أعترف الآن بأنني مدين لهذا الحمّام الأزهري الساخن بتشكيل قدرتي اللغوية وتنمية كفاءتي في الفهم، وتمكّني من التعبير، حيث كنّا ندرس النحو على إيقاعات الشعر وشواهده، ونحوم حول الآيات القرآنية، نمتص منها رحيق البلاغة، ونتغذى بأسرار اللغة، ونتباهى بدلائل الإعجاز، ونتشرب الروح والريحان من كتب الأقدمين، دون أن ننتبه إلى أنها في نهاية المطاف تصوغ عقولنا ووجداننا على مقاس العصور القديمة، دون أي اختلاف، هذا هو خطرها الشديد، لكن قدر لي أن أنجو مبكرًا من هذا المصير، بفضل ظروف طارئة أسهمت في تعزيز تمردي على القوالب الأزهرية، التحق عمي عبد الغني بحقوق القاهرة، وأقنع جدي بأن يصحبني معه إلى العاصمة؛ فحولت إلى المعهد الثانوي فيها، وخضعتُ لأكبر عملية «غسيل مخ» ممنهجة عندما ارتاح عمي إلى قدرتي على القراءة له وهو مضطجع على أريكته، أخذت أقرأ له بانتظام وتدبّر جميع مواد وكتب القانون الدستوري والمدني والجنائي والإجراءات والاقتصاد الدولي والنظريات المطولة عن القانون الروماني؛ فاكتشفتُ أن العالم الضيق الذي تصوّره العلوم الأزهرية محدود وفقير وقديم، دخلت بوابة العصر الحديث بعد أن أعادت الحقوق صياغة عقلي بالنظم السياسية والتشريعات الاقتصادية والاجتماعية، والوعي بمراحل تطور الحضارة الإنسانية، كما تكفّلت القراءات الحرة بالانفتاح على الحيوات الفنية الإبداعية في السينما والمسرح والشعر والفنون التشكيلية، أدمن

التردد اللاهث على الندوات والمحاضرات العامة المتعددة في الليلة الواحدة، بالقاهرة، نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، ثم التحقت بكلية دار العلوم؛ لأفرّ رسميًّا من الجُبّة والعمامة، وأدخل رحاب الجامعة المختلطة وأشهد أمام عيني صراع القديم والجديد في أحلى صوره، فهناك فريق من الأساتذة التقليديين يكررون علينا ما سئمنا منه في الأزهر من نحو وفقه وبلاغة، لكنهم يتضاءلون ويصبحون أقزامًا عندما نقارنهم بكوكبة طليعية من أساتذة الأدب والنقد والفلسفة يدرسون لنا علوم اللغة والنقد بمعارفهم التي اكتسبوها من أعرق الجامعات الغربية، تبين لي بوضوح قاس الخيط الأبيض من الأسود، وعرفت ماذا أبغي وما أقصد».

***

مسار القراءة

«حفظت القرآن الكريم في سن الثامنة، وعقب الاحتفال بعشاء «الخاتمة»، وإجازة الفقيه الذي تولى تحفيظي، اكتشف جدي، عالم الأزهر البليغ، أنني عندما وصلت لتسميع «الحواميم» كنت قد نسيت «البقرة»، قال لي: إن «حفظك مثل حرث الجمال؛ ما يخطه المحراث يطمره الخف». تكررت اللعبة مرتين قبل أن ألتحق بالأزهر، كنت لا أفهم معظم الصياغات الجميلة، فكيف أحفظها؟ عانيت كثيرا من تدريب الذاكرة على التماس المعالم المميزة للمواضيع المتشابهة، حاولت اختراق النص حتى أستطيع امتلاكه. أخذت أقرأ بنهم محموم أعداد مجلة الرسالة المتراكمة في مكتبة جدي، تذوقت إيقاعات الزيات في افتتاحياته، وعذوبة زكي مبارك وخفة روحه في «ليلى المريضة بالعراق»، وحيادية دريني خشبة في ترجماته للأوديسا، وشقاوة المازني

ورصانة النشاشيبي. تعلمت تمييز الأساليب المختلفة، راهنت رفاقي على إمكانية الحدس باسم الكاتب دون أن أقرأه مدوّنًا، وقعت مرّة على رسالة لجدي بعثها لزميل له في العاصمة، فرأيت نموذجًا جليًّا من كتابة الرافعي، كنت أحفظ «أوراق الورد» و«السحاب الأحمر»، وأتحير في الانحياز إليه بعد «راية القرآن»؛ لأني أعشق طه حسين. تأملت مليًّا - وأنا في العاشرة تقريبا - نص برقية بعثني بها جدي إلى مكتبة التلغراف في قريتنا، كان يريد أن يرسلها إلى رفيقه الذي تولى وكالة الجامع الأزهر، كان يقول له: «دواما ترقى وتهنئ»، فقلت لجدي: هكذا لن يكون من الضروري عندما يصبح شيخا للأزهر أن تبعث له بتهنئة أخرى، فقد تمنيت له الترقية التالية وهنأته عليها بالفعل في ثلاث كلمات، قليلة التكلفة، قال: ستصير ناقدًا.

عندما التحقت بمعهد دسوق الابتدائي تعرف عليّ زميلي النابغة الذي اختطفه الموت فيما بعد وهو في ريعان الشباب والتألق: «كمال زغلول»، كان موهوبًا في الزعامة والبيان مثل عمه «سعد»، ألف قصة مدهشة، وعهد إليّ مهمة توزيع اشتراكات بيعها؛ حتى نجمع ثمن طبعها مقدما، كان أكثر ما بهرني فيها العنوان: «ذئاب في إهاب الضأن»، لم أعرف حينئذ أن التماثل الصوتي بين ذئاب وإهاب هو الذي فتنني، فقلت له: لماذا لا تختار كلمة أسهل، وتقول: «في جلود الضأن». قال: هكذا أحلى.

وعندما أصدرنا أول مجلة حائط باسم «الوثبة» اتهمنا مشايخ المعهد بالشغب، وارتكبت أول - وآخر - عملية انتحال في حياتي، كنت قد وقعت على مجموعة أوراق لوالدي المتوفى وأنا في سن الرابعة، فيها أشعار كثيرة، ومقالات أظن أنها غير منشورة، فاخترت منها مقالا عن «الإسلام والأسرة»، ونسخته بخطي بعد اختصاره، وأعطيته لكمال كي ينشره في المجلة، قرأ السطر الأول فيه: «أحاط الإسلام الأسرة بسياج متين»، فقال لي: هل أنت

متأكد أنك صاحب هذا الكلام؟ عزّ علي أن يكشف سري، فصممت على أنني كاتبه، فما تركه أبي هو ملكي أيضا لكنني وعيت الموقف جيدا، وأدركت أن الأسلوب وضّاح وفضّاح.

كنت أعتقد أنني لابد أن أكتب الشعر مثل أبي، لكن ما أكتبه لا يعجبني، آخر قصيدة كتبها في مطلع الخمسينات كانت لتهنئة الملك فاروق على زواجه من ناريمان، طبّقت فيها الحيلة البديعية الحرفية في تكوين اسم الملك من مجموعة حروف الأشطر الأولى، واسم الملكة من حروف الأشطر الثانية، ألقيت على نفسي سؤالًا خطيرًا: هل يمكن أن أكون أشعر من شوقي؟ كان هو مثلي الأعلى الذي أحفظ ديوانه كاملًا، إلى جانب دواوين أخرى أقل منه في تقديري حينئذ، لم أكن قد اكتشفت مسرحياته، ووصلت لنتيجة قاطعة: لم أتفوق عليه، وقررت وأد الشاعر، استخدمت في سرّي هذه الكلمة ذاتها، نقلتها من العبارة الشهيرة: «وأد البنات من المكرمات».

ارتحت كثيرا لهذا القرار، فقد كان جنون علي محمود طه في «الملاح التائه» لا يستطيع أن يقنعني بنموذج بديل للشعر، أما الشابّي فقد كان قيثارة سماوية لا طاقة لي بمنافستها، قلت في نفسي: انتصر الناقد على أعدائه، فلأتأهب لهذه الرسالة.

تعددت مغامراتي في القراءة المستمرة، كل أسبوع كتاب جديد خلال الدراسة، وكل يوم كتاب آخر في الإجازة، خرجت الشعر لأدخل في حُميّا الكتابة والكتاب، بحثت عن أمير أقوم بتنصيبه للنثر مقام أمير الشعر الذي هجرته، نصّبتُ الحكيم أميرا للحوار، لكنني لم أحاول كتابة المسرح، كنت قد عرفت أن قدري رهين بهذه المنطقة الوعرة: الكتابة على الكتابة.

انتقلت خلال المرحلة الثانوية والجامعية إلى القاهرة، تمرست بالتقلب النشط بين وسطين: الديني والجامعي، تداخَلَا لديّ بشكل مبكر، كان لي

عمّان في العاصمة يدرسان، أحدهما في كلية الحقوق، كان شغوفًا بالاسترخاء اللذيذ على السرير، وتكليفي بقراءة المواد القانونية له واستذكارها عليه، مررت هكذا بشكل مباشر على جميع مناهج دراسة الحقوق، قمت بهذا الدور الذي يسمى نظيره في الأسلوبية «القارئ النموذجي». مازلت أعتقد أني مدين في توازن معلوماتي الحيوية عن الثقافة الإنسانية في جانبها التشريعي لهذه الفترة الخصبة من التلقي المتقشف للمعرفة السابقة على أوانها.

فكما حفظت القرآن صيغًا لغويةً بليغةً لا أفهم كثيرًا منها، كررت المعارف الاقتصادية والنظريات القانونية في تواريخ التشريع ومواده دون كثير من الاستيعاب الحقيقي، لكن ما ترسب في عقلي وقلبي منهما أصبح خميرة التكوين العميق للوعي.

كنت دائما أعزو موضوعية مندور، وقدرته على تنظيم معارفه، وتعليل أحكامه، والإصابة في تحديد مقاصده؛ بثقافته القانونية قبل الأدبية، وأتصور أن هذه الدراسة غير المنتظمة التي تورطت فيها عائليا قد وسّعت رقعة اهتماماتي بالفكر الإنساني في تجلّياته الحيوية الكبرى، وحالت بيني وبين الأسر في المنطقة المجاورة المستقطبة لممارساتي العملية».

الكلمات

جان بول سارتر

سارتر الذي قضى طفولته بين امرأتين وعجوز، مشى في جنازته خمسون ألف نسمة! وإن كان قصير القامة فقد امتدّت قامته الفكرية حتى طغت على أجيال! لم يعنون سيرته الذاتية بما اعتاد الكتّاب عنونتها به حياتي أو سيرتي، وإنما عنونها بالكلمات، وقسّمها إلى فصل القراءة والكتابة، وكأنه يريد أن يُفهم كيف أسهمت قراءات طفولته في تكوينه الأدبي والفلسفي، وكيف دفعه قلقه إلى خوض مغامرة جعلت منه قارئًا كاتبًا، وجعلت الأدب غاية بحد ذاتها، وألـمًا مقدسًا، وإيمان من لا إيمان له!

الناقم على أهله، الساخر من أمه، المحب لجده الذي أثّر فيه كثيرًا بعد وفاة والده صغيرا، عن السينما التي كانت متعة نادرة حينها، عن رؤيته للسياسة في أتون حرب فرنسا وألمانيا، كتب سيرته في الثامنة والخمسين من عمره، ليصحبك في عوالمه الداخلية، تفكيره الوجودي لما حوله، وكيف كان يتخيل الأشياء من حوله لدرجة أن شطحات خياله كانت تصدم أمه من شدة شناعتها.

وسط الكتب

«بدأت حياتي كما سوف أنهيها بلا شك: وسط الكتب. وفي مكتب جدي، كانت الكتب موجودة في كل مكان؛ وكان محظورًا نفض الغبار عنها إلا مرة في العام، قبل افتتاح المدارس في تشرين الأول. وكنت لا أعرف القراءة بعدُ حين كنت أحترمها، تلك الحجارة المرفوعة: مستقيمة كانت أم مائلة، مرصوفة كالقرميد على رفوف المكتبة أم منثورة في الممرات الحجرية، كنت أحس أن ازدهار أسرتنا متوقف عليها. كانت تتشابه جميعا، وكنت ألهو في معبد صغير، تحيط به أبنية كثيفة قديمة، رأتني أولد، وستراني أموت، وسيؤمن لي بقاؤها مستقبلًا لا يقل هدوءًا عن الماضي. وكنت ألمسها خفية لأشرف يدي بغبارها، ولكني لم أكن أدري ما أفعل بها، وكنت أحضر كل يوم حفلات يفوتني مغزاها: فقد كان جدي - الذي كان مرتبكًا أخرق الحركات في العادة، حتى أن أمي كانت تزرر له قفازيه - يقلب هذه الأشياء الثقافية ببراعة مقدس. وقد رأيته ألف مرة ينهض بهيئة غائبة، فيدور حول طاولته، ويعبر الغرفة في خطوتين، ويتناول كتابه بلا تردد، ومن غير أن يمنح نفسه وقتًا للاختيار، فيقلب صفحاته فيما هو يعود إلى أريكته، بحركة مشتركة من الإبهام والسبابة، وما يكاد يجلس حتى يفتحه بضربة جافة على الصفحة المطلوبة، جاعلًا إياه يصطفق كالحذاء. وقد كنت أحيانًا ما أقترب لألاحظ هذه العلب التي كانت تنشق كالمحار، وكنت أكتشف عُري أعضائها الداخلية، أوراق ممتقعة عفنة، منتفخة بعض الشيء، مغطاة بأوردة صغيرة سود كانت تشرب الحبر وتنبعث منها رائحة الفطر.

أما في غرفة جدتي فقد كانت الكتب مضجعة؛ وكانت تستعيرها من

مكتبة للمطالعة، ولم أر منها أكثر من اثنين معًا. وكانت هذه الترهات تجعلني أفكر بحلويات عيد رأس السنة، لأن وريقاتها الطرية المتلألئة كانت تبدو مقطوعة من ورق لماع. إنها حية، بيضاء، شبه جديدة، وكانت تتخذ حُجّة لأسرار خفية. فقد كانت جدتي، كل يوم جمعة، ترتدي ثيابها لتخرج وكانت تقول: «إني ذاهبة لأردها» وإذ تعود، بعد أن تخلع قبعتها السوداء وغلالتها، كانت تسحبها من كمها، فأتساءل بفضول: «أتراها هي نفسها؟» وكانت «تغطيها» بعناية، وبعد أن تختار أحدها، كانت تجلس قرب النافذة، في أريكتها ذات الوسادة، فتنتعل خفيها، وتتنهد سعادة واسترخاء، وتسبل جفنيها مع بسمة شهوانية رقيقة عثرت عليها مرة أخرى بعد ذلك على شفتي «الجوكوندا»؛ وكانت أمي تصمت، وتدعوني إلى الصمت، فكنت أفكر بالقداس، وبالموت، وبالنوم: كنت أمتلئ بصمت مقدس، وبين الفينة والفينة كانت تند عن لويز ضحكة صغيرة، فتنادي ابنتها وتدل بأصبعها على سطر، وتتبادل المرأتان نظرة متواطئة غير أنني لم أكن أحب تلك الكتب المضبورة المتميزة أكثر مما ينبغي: كانت دخيلة، ولم يكن جدي يخفي أنها كانت موضوع عبادة صغرى، نسوية وحسب: كان يدخل يوم الأحد غرفة زوجته، بدافع من التعطل، فينزرع أمامها من غير أن يجد ما يقوله لها؛ وكان الجميع ينظرون إليه وهو يدق الزجاج بأصابعه، ثم ينفتل نحو لويز وينزع روايتها من يديها، فكانت تصرخ غاضبة: «شارل، إنك ستفقدني الصفحة التي أقرأها!» ويكون قد شرع في القراءة، وقد رفع حاجبيه؛ وفجأة، تضرب سبابته الكتاب: «لا أفهم»! فتقول جدتي: «ولكن كيف تريد أن تفهم: إنك تقرأ من الداخل!» وينتهي به الأمر إلى أن يقذف الكتاب على الطاولة ويمضي وهو يهز كتفيه.

ولا شك في أنه كان على حق، لأنه كان من أصحاب المهنة. كنت أعرف ذلك: فقد سبق له أن أراني، على رف من المكتبة، مجلدات كبيرة ذات ورق

مقوى، مغطاة بالقماش الأسمر: «هذه، يا صغيري، قد صنعها جدك»، أي اعتزاز! لقد كنت حفيد فنان متخصص في صنع الأشياء المقدسة، لا يقل احترامًا عن صانع أراغن، أو عن خياط لرجال الكهنوت.

كل سنة، كان يعاد طبع Deutshes Lesebuch وفي أثناء العطلة، كانت الأسرة كلها تنتظر التجارب، بفارغ الصبر: إن شارل لم يكن يحتمل اللاعمل، وكان يغضب لكي يمضي الوقت. وكان الساعي يحمل أخيرًا رزمًا طرية ضخمة، فكانت خيوطها تقطع بالمقص، وكان جدي ينشر الأوراق المطوية فيمدها على طاولة غرفة الطعام ويخنجرها بالخطوط الحمر، وكان كلما التقى خطأً مطبعيًا جدّف على الرب بين أسنانه ولكنه لا ينقطع عن الصراخ إلا حين تقبل الخادمة وهي راغبة في وضع الصحون على المائدة. وكان الجميع مسرورين؛ وكنت أنا أعتلي كرسيًّا فأتأمل في انتشاء هذه الخطوط السود المخددة بالدم. وأعلمني شارل شوايتزر أن له عدوًا لدودًا، هو ناشره.

ولم يسبق لجدي قط أن أحسن العد: وهو المبذر بدافع من اللامبالاة، السخي بدافع من التباهي، انتهى به الأمر فيما بعد إلى أن يقع صريع ذلك المرض الذي يصاب به شيوخ الثمانين: البخل، نتيجة العجز والخوف من الموت. ولم يكن يظهر، في تلك الفترة، إلا بصورة حذر غريب: فحين كان يتلقى تحويلًا بحقوقه كمؤلف، كان يرفع ذراعيه إلى السماء وهو يصيح بأنهم كانوا يقطعون له حنجرته، أو كان يدخل على جدتي ويصرح في كآبة: «إن ناشري يسرقني كما لو أني كنت في غاب» واكتشفت وأنا مندهش استغلال الإنسان للإنسان. ومع ذلك، فلولا هذه الفظاعة، والتي هي محدودة لحسن الحظ، لكان العالم مصنوعًا على خير ما يرام: كان أرباب العمل يعطون حسب طاقاتهم العمال حسب استحقاقهم. فلماذا يسمح الناشرون، هؤلاء المختلسون، أن يؤذوهم بأن يشربوا دم جدي المسكين؟ وازداد احترامي لهذا

الرجل القديس الذي لم يكن ينال ثمن إخلاصه: وأعددت في وقت مبكر لأن أعتبر التدريس كهنوتة والأدب ألـمًا مقدسًا.

ولم أكن أعرف القراءة بعد، ولكني كنت معجبًا بما هو شائع إلى حد أني تطلبت أن تكون لي كتبي. وقصد جدي ناشره النذل، فجلب من عنده حكايات الشاعر موريس بوشور، وهي حكايات مقتبسة من الفولكلور ومكتوبة للأولاد بقلم رجل يقول إنه ظل محتفظا بعيني طفل. وأردت أن أبدأ على الفور احتفالات الامتلاك، فتناولت الكتابين، وشممتهما، ولامستهما، وفتحتهما بلامبالاة «على الصفحة المطلوبة»، وأنا أصفقهما. وحاولت، من غير أن أنجح أكثر من قبل، أن أعاملهما كلعبتين، فأهدهدهما وأقبلهما، وأضربهما. وإذ أوشكت أن أبكي، وضعتهما أخيرًا على ركبتي أمي. ورفعت عينيها عما كان بين يديها من عمل، وقالت لي: «ماذا تريد أن أقرأ لك، يا حبيبي؟ الجنيات؟» فسألتها، غير مصدق: الجنيات؟ أهي موجودة في الداخل؟ وكانت تلك الحكاية مألوفة عندي: كانت أمي غالبًا ما ترويها لي، حين كانت تغسل لي وجهي، فتتوقف لتفركني بماء الكولونيا، ولتلتقط من تحت المغسل قطعة الصابون التي زلقت من يديها، وكنت أستمع بشرود إلى الحكاية المعروفة أكثر مما ينبغي؛ ولم تكن لي عينان إلا لرؤية آن ماري، تلك الفتاة الصبية التي ترافقني كل صباح، ولم تكن لي أذنان إلا لسماع صوتها الذي كانت تفسده الخدمة، وكنت ألتذ بعباراتها غير الناجزة، وكلماتها المتأخرة دائما، وطمأنينتها المفاجئة التي تضطرب بقوة وتتحول إلى انهزام لتختفي في تمزق منغم، ثم تنتظم من جديد، بعد فترة صمت. أما الحكاية، فكانت تجيء، بشكل نافل: كانت الرابطة التي تشد مناجياتها الذاتية. وطوال الوقت الذي كانت تتحدث فيه، كنا وحيدين، خافيين، بعيدا عن البشر والآلهة والكهنة، وعلتين في الغاب، بصحبة الوعلات الأخرى «الجنيات»؛ ولم أكن أستطيع

التصديق بأن هذا الكتاب كله قد ألف ليصور فيه هذا الجانب من حياتنا المدنسة، التي كان ينبعث منها الصابون وماء الكولونيا.

وأجلستني آن ماري قبالتها، على كرسي الصغير؛ وانحنت فأسبلت جفونها واستنامت. ومن ذلك الوجه الصنمي خرج صوت من جصّ.

وأضعت رشادي: من كان الذي يروي؟ ماذا؟ ولمن؟ كانت أمي قد غابت: فلا بسمة، ولا علامة تواطؤ، وكنت أنا منفيًّا. ثم إنني لم أكن أتعرف لغتها. من أين كانت تستمد هذه الطمأنينة؟ وبعد لحظة، فهمت.

كان الكتاب هو الذي يتكلم. تخرج منها عبارات تخيفني: إنها حشرات حقيقية بألف رجل، وكانت تنغل بالمقاطع والحروف، وتعمد صوتياتها المزدوجة، وتُرعش حروفها الساكنة؛ كانت مغنية، مخنّة، مقطوعة بالوقفات والتنهدات، زاخرة بالكلمات المجهولة، كانت مسحورة بنفسها وبتثنياتها من غير أن تهتم بي: وكانت أحيانًا تختفي قبل أن أستطيع فهمها، وأحيانًا أخرى أفهمها مقدما، وتستمر في التدحرج بغطرسة نحو غايتها، من غير أن تتكرم عليّ بفاصلة. يقينًا، إن هذا الخطاب غير موجه إلي. أما الحكاية، فقد لبست ثياب يوم الأحد: فالحطاب والحطابة وبناتهما، والجنية، وجميع أولئك الأناس الصغار، أشباهنا، كانوا قد اتخذوا مظهر الجلالة، وكانت لهجة الحديث عن أسمالهم لهجة الروعة، وكانت الكلمات تزيل لون الأشياء، محولة الأفعال إلى طقوس، والأحداث إلى احتفالات. وأخذ أحدهم بطرح أسئلة: إن ناشر جدي، المتخصص في إصدار الكتب المدرسية، لم يكن يفوت أية فرصة لتمرين ذكاء قارئه الفتيّ. وخيل إليّ أنهم يسألون طفلًا: ماذا عساه كان يفعل، لو كان محل الحطاب؟ أي الأختين كان يفضل؟ ولماذا؟ أكان يوافق على معاقبة بابيت؟ ولكن هذا الطفل لم يكن إياي تماما، وكنت قد خفت أن أجيب. وقد أجبت مع ذلك، فضاع صوتي الضعيف وأحسستني أصبح طفلًا آخر.

وآن ماري كذلك، كانت امرأة أخرى، بهيئتها، هيئة العمياء البصيرة: كان يخيل إليّ أني كنت ولد جميع الأمهات، وإنها كانت أم جميع الأولاد. وحين انقطعت عن القراءة، استعدت منها الكتابين بقوة وحملتهما تحت ذراعي، من غير أن أقول شكرًا.

ومع الزمن راقت لي هذه الآلة المطقطقة التي كانت تنزعني من نفسي: لقد كان موريس بوشور ينحني على الطفولة بالعناية الشاملة التي يظهرها رؤساء الأقسام لزبونات المحلات الكبرى؛ وكان ذلك يثير غروري. وانتهيت إلى تفضيل الحكايات المصنوعة بتصميم على الحكايات المرتجلة؛ وأصبحت حساسًا إزاء التابع الصارم للكلمات: فقد كانت تعود، لدى كل قراءة، هي نفسها دائما وفي النظام نفسه، وكنت أنتظرها. وفي حكايات آن ماري، كان الأشخاص يعيشون ليومهم، كما كانت تفعل هي نفسها: فاكتسبوا مصائر. وكنت في قداس: كنت أشاهد العودة الأبدية للكلمات والأحداث.

وأخذتي الغيرة آنذاك من أمي، فصممت أن أسلبها دورها. واستوليت على كتاب عنوانه «مصائب صيني في الصين»، فحملته إلى حجرة للحاجات اللامجدية؛ وهناك، اعتليت سريرًا قفصيًا، وتظاهرت بأني أقرأ: كنت أتابع بعيني الخطوط السود من غير أن أقفز أي سطر، وكنت أروي لنفسي حكاية بصوت مرتفع، وأعتني بنطق كل مقطع. وفاجأوني - أو جعلتهم يفاجئوني - فصاحوا، وعزموا على أنه قد آن الأوان لتعليمي الأبجدية. وتحمست كطالب العماد، بل ذهبت حتى إلى إعطاء نفسي دروسا خاصة:

كنت أتسلق سريري القفصي ومعي (بلا أسرة) لهكتور مالو الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب، فأقرأ مرة ظاهرًا، ومرة محاولًا أن أحل الألغاز، حتى تصفحت جميع الصفحات، الواحدة تلو الأخرى: وحين قلبت الصفحة الأخيرة، كنت أعرف القراءة.

وكنت مجنونًا من الفرح: أنها لي، تلك الأصوات التي جفت في مجموعتها الورقية، تلك الأصوات التي كان جدي يبعث فيها الروح بنظره، والتي كان يسمعها، والتي لم أكن أسمعها! سوف أصغي إليها، وسأملأ نفسي بالخطب الاحتفالية، وسأعرف كل شيء. وقد تركوني أتجول في المكتبة، وأعطيت الكرّة للحكمة البشرية. وهذا ما صنعني. وفيما بعد، سمعت مئة مرة مناهضي السامية يأخذون على اليهود جهلهم دروس الطبيعة وألوان صمتها وكنت أجيب: «إنني في هذه الحالة أكثر منهم يهودية».

عبثًا سوف أبحث في نفسي عن الذكريات المتشابكة والضلال اللذيذ للطفولات القروية. إنني لم أنبش الأرض قط، ولا فتشت عن الأعشاش أقطف نباتًا قط، ولم أقذف العصافير بالحجارة. ولكن الكتب كانت عصافيري وأعشاشي، حيواناتي الداجنة، مراحي وريفي؛ أما المكتبة، فكانت العالم مأخوذا في مرآة؛ كانت تملك منه صفات الكثافة اللامتناهية والتنوع وعدم قابلية التنبؤ.

وقذفت نفسي في مغامرات لا تصدق: كان ينبغي أن أتسلق الكراسي والطاولات، وأواجه خطر أحداث انهيارات من شأنها أن تدفني. وقد ظلت مؤلفات الرف الأعلى خارج متناولي وقتًا طويلًا؛ وما كدت أكتشف كتب أخرى حتى انتُزعت من يدي؛ وكانت كتب غيرها مختبئة: وكنت قد أخذتها وبدأت قراءتها، وكنت أحسب أني أعدتها إلى موضعها، فكن لا بد من انقضاء أسبوع للعثور عليها. وحدثت لي لقاءات فظيعة: فقد كنت أفتح مجموعة صور، فأقع على لوحة بالألوان، وكانت حشرات كريهة تنغل تحت نظري. وتمددت على السجادة، وبدأت رحلات شاقة عبر «فونتنيل» و«أرسطوفان» و«رابليه»: وكانت الجمل تقاومني متماسكة على غرار الأشياء؛ وكان ينبغي مراقبتها، والاستدارة حولها، والتظاهر بأني أبتعد ثم أرتد فجأة إليها لأباغتها

خارج حراستها: وكانت أغلب الأحيان تحتفظ بسرها. وقد كنت «لابيروز و ماجيلان، و فاسكودو غاما»؛ وكنت أكتشف سكانًا أصليين غرباء، وكلمات غريبة، ومئة كلمة أخرى مبهمة كانت تنبعث في منعطف صفحة، وكان ظهورها وحده كافيًا لتمزيق شمل المقطع كله. ولم أفهم معنى هذه الكلمات القاسية السوداء إلا بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر، وهي ما تزال اليوم تحتفظ عندي بكثافتها التي لا تخرق: إنها ذبال ذاكرتي.

لم تكن المكتبة تضم إلا كتب فرنسا وألمانيا الكلاسيكية الكبرى. وكان فيها كذلك بعض كتب القواعد وبضع روايات مشهورة، و«حكايات مختارة» لموباسان، وكتب فنية عن «روبنس» و«فان ديك» و«دورر» و«رامبرانت» وكان تلامذة جدي قد قدموها له بمناسبة عيد رأس السنة. عالَم هزيل. ولكن «لاروس الكبير» كان يُغني لدي عن كل شيء: وكنت أتناول أحد أجزائه، كيفما اتفق، من خلف المكتب، فوق الرف قبل الأخير، وكنت أضعه في مشقة تحت قرطاس جدتي، فأفتحه وأكتشف فيه أعشاش العصافير الحقيقية، وأقوم فيه بصيد الفراشات الحقيقية الواقفة على زهور حقيقية. لقد كان الناس والحيوانات موجودين هناك، شخصيًّا؛ وكانت الصور أجسامهم، وكان النص روحهم، وجوهرهم الفريد؛ كان المرء يلتقي خارج الجدران، رسوما إيجازية مبهمة كانت تقترب كثيرًا أو قليلًا من النماذج، من غير أن تبلغ كمالها: ففي (حديقة التوطين)، كانت القرود أقل قردنة، وفي (حديقة اللكسمبورغ) كان البشر أقل بشرية. ولكوني أفلاطونيًّا في الوضع، كنت أمضي من المعرفة إلى غرضها؛ وكنت أجد للفكرة واقعية أكثر مما كنت أجد للشيء، لأنها كانت تهب نفسها لي أولا، ولأنها كانت تهب نفسها كشيء. دائمًا في الكتب، التقيت الكون: متمثلًا، مصنفًا، مدموغًا، مفكرًا به، مخيفًا بعد؛ ولقد خلطت اضطراب تجاربي الكتبية بالمجرى الاتفاقي للأحداث الواقعية. من هنا مصدر تلك المثالية التي أنفقت ثلاثين عامًا للتخلص منها».

سيرة الوجع

أمير تاج السر

الأديب الطبيب، وصف يماثل جزئي إحدى سيره سيرة الوجع، وكأن أمير تاج السر يخبرك أنها مزيج من العمل والحياة، من تطبيب الآخرين بالدواء، وتطبيب النفس بالقراءة والمعرفة.

بأكثر من خمسين مقالًا يستعرض الكاتب بكثير من الواقع وكثير من الخيال بعضًا من سيرته الممتدة على أكثر من كتاب، بين أحياء قرى السودان، ومستشفياتها، وزوار عيادته ومساعديه من الممرضين، ومع ذلك لن تصدمك النصائح ولا دروس الحياة، عليك أن تنقّب عنها، وتتأمل القصص لتدرك كنهها.

يملك أمير أسلوبًا مشاغبًا، يُركب الكلمات على غير هيئتها المعتادة، يجاور بين المتباعدات، يدمج بين العامي والفصيح مبررًا ذلك بأن «المحلية عندي جزء من التركيب الداخلي، وهي النار التي تركت عليها تجربتي حتى أوشكت أن تنضج، ولا أستطيع أن أجد اسمًا غريبًا، أو طقسًا، أو عادة، دون أن أوظفها».

المزيد من تجارب الكاتب مع القراءة والكتابة جمعها في كتابين، الأول بعنوان: «ذاكرة الحكائيين»، والآخر: «الكتابة شيزوفزينيا».

فضول الكتب

«كان عشقي للكتب والمكتبات، ولا يزال، عشقًا كبيرًا، عشقًا له تاريخ، وجغرافيا، وتضاريس تتعمق في الدم كلما تعتق، كان «رفعت ضرار» السواكني الأبيض، والصديق للعائلة، هو أول من استولى على طفولتي الهائمة، حولها إلى طفولة قارئة، وابتعد بها أعوامًا من طفولة الأطفال، التي اكتفت بلعب البلي والكرة، والمشاغبات.. وحين كان المراهقون يسقطون صرعى في شرك العيون والابتسامات، والرسائل الملتهبة، كنت أسقط في شرك أي كتاب يغازلني حتى لو كان غزلًا ممزقًا، ومتسخًا، ومركونًا في أي رف كاسد. أيضا حين تعلمت السفر، والعودة، والتسوق، لم أكن أطعم حقائبي هدايا طازجة يستمتع بطزاجتها الأهل والأحباب، كنت أتخمها بوجبات الكتب إلى حد الإيذاء، فتحملها وهي كارهة. وكنت بذلك أكثر مسافر في العائلة لا يخب الفضول إلى حقائبه، حين يعود من السفر، كان الفضول يعرف ما في تلك الحقائب.

حين انغرستُ في البلدة البعيدة، انغرس معي ذات الجوع القرائي الذي يلازمني، التهمت كتبي التي أحضرتها معي في عدة أيام، وبدأت أتلفت، مدفوعًا بنغزات من ذلك الجوع.. كانت البلدة شديدة الفقر، وكثيفة الأمية، ينحصر متعلموها في زمرة من الغرباء ينزوون تحت عزلة الغرابة، وعدد من المعلمين، واللاجئين، والتجار الذين اختزلوا اللغة إلى أسماء سلعية محددة، يكتبونها آليًا في دفاتر السلف والدين، نقّبتهم واحدًا.. واحدًا، وعثرت في خزائن بعضهم على كتب كانت هامة في ما مضى، وأكلت «الأرضة» أهميتها تمامًا عند ذلك بزغ في تخبطي «سر الختم»، فأطفأ الجوع بكفاءة.

كان اسمًا «شايقيًّا» خالصًا، يجاور النيل، والنخيل، وينادي بأصوات تلك المنطقة الخصبة في الوطن، ولم أكن أتوقع أبدًا أن أصادف ذلك الاسم في تلك البيئة المغبرة، ينادي بأصوات الرطانة العرجاء، فتصيبه وتخطئه، سألت عن هويته، وأماكن وجوده، فقادتني البلدة كلها إليه، ليس لشهرة فيه، ولكن لضيق في البلدة، يحول النمل إلى جراد، والهمس إلى صراخ «مايكروفوني». قال الذين قادوني إلى بيته المتواضع في أحد الأركان البعيدة إنه شاعر في قامة «ود هداب» كبير شعراء المنطقة، لكن شيطانه عدواني، لا يحتفي كثيرًا بغرباء الحكومة.

لم ألتفت كثيرا إلى مسألة عدوانية الشياطين، ولا أظن أنه يملك شيطانًا أكثر عدوانية من شيطان «محمد آدم» الشاعر القاهري، الذي آخيته في فترة ما؛ حتى اختصني شيطانه بكثير من الود.. حششت الخطى إلى بيته وبأسرع مما توقع المرافقون.

استقبلني العدواني استقبالًا يليق بشهرته، وفي بيت دلّت كل مفردات ترتيبه، أنه بيت أعزب صِرف، لم يعش بين جدرانه ذوق أنثوي، كانت الكتب عيالًا متسخة يسيل من أغلفتها المخاط، تتبعثر في فوضى البيت، وتأكل كثيرًا من مساحته، وكان العدواني مستندًا إلى صف منها، ويبدو أن غفوة صارمة كانت تمسك بمزاجه. قال دون أن يسأل عن هويتي، التي يبدو أن البلدة أوصلتها إليه قبل أن أصله.. فقط مسح هيئتي الغريبة بعينين خمسينيتين كانتا تشعان دما:

- كلكم جواسيس.. وتسرقون الشعر لتنسبوه إلى أنفسكم..

حتى الفرنسيين الذين جاءوا بزعم تغذية الأطفال ذهبوا وهم يحملون شِعري لينسبوه إلى «بودلير».. اذهب لن تسمع قصيدة، ولن تقرأ كتابًا من هذه الفوضى..

شخّصت حالته بقليل من التنقيب في معلوماتي المتواضعة عن الطب النفسي، وبذلت مجهودًا جبارًا حتى استملته إلي، كان مثقفًا منفيًّا في روحه، لم أعرف ظروف هجرته إلى هذه البلدة، لكنني أخمن ظروف انتسابه إليها، أسمعته قصائد من رامبو، ولوركا، وأمل دنقل، وأسمعني قصائد شديدة الإعياء تخرج لاهثة.. وعندما انتقلت إلى كتبه الفوضوية، انتقلت معي أريحيته، أهداني العشرات منها دون أن تفارقه الإغفاءة الصارمة، أو يتغير استناده إلى صف الكتب المغبّر.

حين عدت إلى مدينتي بعد عام ونصف من ذلك، كانت حقائبي كالعادة بعيدة عن فضول الأهل والأحباب.. كان الفضول يعرف سلفًا أنها مثقلة بالكتب، ولن يعرف أبدًا من أي عرين انتقيتها».

مسيرتي في التأليف
ستيفن كينغ

على غير عادته في إنهاء مسودة أي كتاب في ثلاثة أشهر، طالت مدة مسيرته في التأليف بسبب حادث سير فتّت ركبتيه - فتّتها فعليًّا حتى أصبحت مجموعة كبيرة من القطع الصغيرة في جورب - فصعُب عليه الجلوس فترة طويلة على حاسبه الآلي ليكتب.

بدايات نشأته، مشاغباته في المدرسة، المجلة التي أصدرها بنفسه يتهكم فيها على معلميه فعوقب بالفصل المؤقت، عمله في التحرير الصحفي الرياضي، ثم كتابة القصص، هذا كان مجمل الفصل الأول، ليتحدث بعده عن أدوات التأليف التي ينبغي على الكاتب امتلاكها، وقد أبدع في هذا حتى أصبح كثير ممن يكتب عن الكتابة لا يقوى على تجاهل آرائه، وركّز على أدوات قصص الخيال العلمي لتخصصه فيها.

جمع الأسئلة التي تتكرر عليه في المحاضرات ولقاءات القراء عن التأليف والتعامل مع دور النشر وأهمية ورش الكتابة وأجاب عنها بإسهاب في الفصل الثالث، ليختم ستيفن كينغ الكتاب بقصة إصابته بالحادث المأساوي، ونموذج قصة له بالصيغة الأولى ومرفقا بعدها القصة مع تعديلات المحرر، ليبين أهمية دور المحرر في حماية القصة من الترهل.

قراءة الكاتب

«إذا كنت تريد أن تكون كاتبًا، يجب أن تفعل أمرين قبل أي شيء آخر: تقرأ كثيرًا وتؤلف كثيرًا. لا توجد أي وسيلة أعرفها للالتفاف على هذين الأمرين، لا يوجد أي طريق مختصر.

أنا قارئ بطيء، لكنني أنهي عادة سبعين أو ثمانين كتابًا في السنة، أغلبها روايات خيال. لا أقرأ بقصد دراسة الحرفة؛ بل أقرأ لأني أحبّ القراءة. هذا ما أفعله في الليل، مستلقيًا على كرسيي الأزرق. بشكل مماثل، لا أقرأ روايات الخيال بقصد دراسة هذا الفن، بل فقط لأني أحب القصص. لكن هناك عملية تعلم جارية. فكل كتاب تقرأه يعطيك درسًا أو دروسًا، وفي كثير من الأحيان تعلمك الكتب السيئة أكثر من الكتب الجيدة.

عندما كنت في الصف المدرسي الثامن، وقعت يداي على رواية ورقية الغلاف لـ موراي لينستر، كاتب روايات خيال علمي مبتذلة ألف معظم أعماله خلال الأربعينات والخمسينات، عندما كانت المجلات مثل Amaz-ing Stories (قصص مدهشة) تدفع سنتًا للكلمة. قرأت ما يكفي من كتب أخرى للسيد لينستر لكي أعرف أن نوعية كتاباته متفاوتة. إحدى حكاياته تحكي عن التنقيب في حزام الكويكبات، وكانت الأقل نجاحًا، إذا ما أردنا أن نكون لطفاء. كانت فظيعة، في الواقع، قصة مليئة بشخصيات ركيكة تدفعها تطورات مؤامرة غريبة.

وأسوأ ما في الأمر - أو هكذا بدا لي وقتها - أن لينستر وقع في حب كلمة (متلذذ). الشخصيات راقبت اقتراب الكويكبات الغنية بالمعدن الخام بابتسامات متلذذة. الشخصيات جلست لتناول العشاء على متن سفينة

تنقيبهم بتوقع متلذذ. بالقرب من نهاية الكتاب، عانق البطل البطلة الشقراء كبيرة الصدر في عناق متلذذ. بالنسبة لي، كان هذا المرادف الأدبي للقاح الجدري: لم أستخدم أبدا، على حد علمي، كلمة متلذذ في أي رواية أو قصة. وإن شاء الله، لن أستخدمها أبد.

كان Asteroid Miners (منقبو الكويكبات) - هذا ليس العنوان، لكنه قريب بما فيه الكفاية - كتابًا مهمًا في حياتي كقارئ. يستطيع كل شخص تقريبًا أن يتذكر أول مجامعة في حياته، ويستطيع معظم الكتاب تذكر أول كتاب وضعه من يده وهو يفكر: يمكنني تأليف أفضل من هذا. تبًّا، أنا فعلا أؤلف أفضل من هذا! هل هناك شيء يمكن أن يكون مشجعًا أكثر للكاتب المكافح من إدراكه أن عمله أفضل قطعًا من عمل شخص قبض أجرًا فعليًا لكتاباته؟

يتعلم المرء بوضوح كبير ماذا عليه ألا يفعل عندما يقرأ نثرًا سيئًا مثل رواية Asteroid Miners (منقو الكويكبات) أو Valley of the Dolls (وادي الدمى) وFlowers in the Attic (زهور في العلية)،

و The Bridges of Madison County (جسور مقاطعة ماديسون)، - على سبيل الذكر لا الحصر - تستحق فصلًا دراسيًا في كلية التأليف الجيد، حتى مع استضافة المحاضرين النجوم.

التأليف الجيد، من جهة أخرى، يعلم الكاتب الطالب عن الأسلوب، الحوار اللبق، تطور الحبكة، إنشاء شخصيات قابلة للتصديق وقول الحقيقة، رواية مثل The Grapes of Wrath (عناقيد الغضب) قد تملأ الكاتب الجديد بمشاعر يأس وغيرة - «لن أكون قادرًا أبدًا على أي شيء من هذه الجودة، ليس إذا عشت حتى سن الألف» - لكن بإمكان هكذا مشاعر أن تكون محفزة أيضًا، فتحفز الكاتب على أن يبذل جهدًا أكبر وأن يصبو إلى هدف أسمى. أن

تجرفك تركيبة من قصة طيبة وتأليف عظيم - أن تسطحك، في الواقع - هو جزء من التشكل الضروري لكل كاتب. لا يمكنك أن تأمل بأن تكون قادرًا على جرف شخص آخر بقوة تأليفك إلى أن يحصل ذلك لك. لذا نحن نقرأ لكي نختبر النصوص العادية والعفنة؛ تساعدنا هكذا خبرة على التعرف على تلك الأشياء عندما تبدأ بالتسلل إلى عملنا، فنتحاشاها. كما نقرأ لكي نقارن أنفسنا بالجيد والعظيم، لكي نأخذ فكرة عن كل شيء يمكن تنفيذه. ونقرأ لكي نختبر أساليب مختلفة.

قد تجد نفسك تعتمد أسلوبًا تعتبره مشوقًا جدًّا، ولا عيب في ذلك. عندما قرأت راي برادبيري في صغري، كتبت مثل راي برادبيري: كل شيء أخضر ورائع ويرى عبر عدسة ملطخة بشحم الحنين إلى الوطن. وعندما قرأت جايمس م. كاين، جاء كل شيء كتبه مقصوصًا أو معرّى وقاسيًا. وعندما قرأت لافكرافت، أصبح نثري فاخرًا وبيزنطيًا. كتبت قصصًا في سنوات مراهقتي اندمجت فيها كل تلك الأساليب، مما أعطى نوعًا من يخنة مضحكة. هذا النوع من التمازج الأسلوبي جزء ضروري من تطوير المرء لأسلوبه الخاص، لكنه لا يحدث في الفراغ. عليك أن تقرأ كثيرًا، وتصقل كتاباتك (وتعيد تعريفها) باستمرار. أجد صعوبة في تصديق أن الأشخاص الذين يقرؤون قليلًا جدا (أو لا يقرؤون على الإطلاق في بعض الحالات) يتجرؤون على التأليف ويتوقعون من الناس الإعجاب بأعمالهم، لكني أعرف أن هذا حقيقي. لو ادخرت نيكلا (خمسة سنتات) كلما أخبرني أحدهم أنه يريد أن يصبح كاتبًا لكن «ليس لديه الوقت ليقرأ»، لتمكنتُ من دعوة نفسي إلى عشاء فاخر. هل يمكنني أن أكون فظا بشأن هذا؟ إذا كنت لا تملك الوقت لتقرأ، فلن تملك الوقت (أو الأدوات) لتؤلف. الأمر بهذه البساطة.

القراءة هي مركز الإبداع في حياة الكاتب. وأنا آخذ معي كتابًا أينما

أذهب، وأجد أن هناك جميع أصناف الفرص للاستفادة منها. السر هو في تعليم نفسك القراءة برشفات صغيرة وبابتلاع طويل. لقد وُلدت صالات الانتظار للكتب طبعًا! وكذلك ردهات المسارح قبل بدء العرض، وصفوف الحجز الطويلة والمضجرة، والمكان المفضل لدى الجميع، الحمام. حتى إنه يمكنك أن تقرأ بينما تقود، بفضل ثورة الكتاب الصوتي. من بين الكتب التي أقرأها كل سنة، حوالي ستة إلى اثني عشر منها موضوعًا على شريط. أما بالنسبة لكل البرامج الإذاعية التي ستفوتك، بالله عليك كم مرة يمكنك أن تستمع إلى فرقة ديب پيرپل تغني «نجمة الطريق العام»؟

القراءة أثناء تناول الطعام تعتبر أمرًا فظا في المجتمع المهذب، لكن إذا كنت تتوقع أن تنجح ككاتب، يجب أن تكون الفظاظة البند ما قبل الأخير في لائحة همومك. آخر همومك يجب أن يكون المجتمع المهذب وما يتوقعه منك. فإذا كنت تنوي أن تؤلف بأصدق ما يمكنك، فإن أيام عضويتك في المجتمع المهذب معدودة على أي حال.

أين يمكنك أن تقرأ أيضا؟ هناك دائمًا جهاز المشي، أو أي شيء تستخدمه في النادي الرياضي المحلي لتمارس الرياضية التنفسية. أحاول فعل ذلك لساعة واحدة كل يوم، وأعتقد أنني سأصاب بالجنون من دون رواية جيدة لترافقني. معظم مرافق التمرين (داخل المنزل وكذلك خارجه) مجهزة الآن بتلفزيونات، لكن التلفزيون - بينما تتمرن أو في أي مكان آخر - هو حقًا آخر شيء يحتاج إليه الكاتب الطموح.

إذا كنت تشعر أنك بحاجة إلى الاستماع إلى متبجحي تحليل الأخبار، بينما تتمرن، أو متبجحي البورصة، أو متبجحي الرياضية، فقد حان الوقت لكي تسأل نفسك عن مدى جديتك في أن تصبح كاتبًا. يجب أن تكون مستعدًا لتجري بعض الدوزنة الداخلية الجدية نحو حياة الخيال، وأخشى أن هذا يعني رحيل جيرالدو، وكيث أوبرمان، وجاي لينو. فالقراءة تستغرق وقتا،

والتلفزيون يستهلك الكثير منه.

بعدما يفطمون من التوق العابر للتلفزيون، سيجد معظم الناس أنهم يستمتعون بالوقت الذي يمضونه في القراءة. أود أن أشير إلى أن إطفاء ذلك الصندوق الصاخب إلى ما لا نهاية سيحسن نوعية حياتك وكذلك نوعية كتاباتك. وما مقدار التضحية التي نتكلم عنها هنا؟

الموهبة تجعل فكرة التدريب بأكملها بلا معنى؛ فعندما تجد شيئا لديك موهبة فيه، تفعله (مهما يكن) إلى أن تنزف أصابعك أو توشك عيناك على السقوط من رأسك. حتى عندما لا يكون هناك أحد يسمعك (أو يقرؤك، أو يشاهدك)، تتسم كل جلسة بالبراعة، لأنك أنت شخصيًا سعيد. ينطبق هذا على القراءة والكتابة وكذلك العزف على آلة موسيقية، أو ممارسة رياضة البيسبول أو الركض في الماراثون. برنامج القراءة والكتابة المرهق الذي أوصي به -من أربع إلى ست ساعات كل يوم- لن يبدو مرهقًا إذا كنت تستمتع حقًا بفعل تلك الأشياء ولديك موهبة فيها؛ في الواقع، ربما تطبق هكذا برنامج من قبل. لكن إذا كنت تشعر بحاجة إلى إذن لكي تفعل كل أعمال القراءة والكتابة التي يرغب بها قلبك الصغير، فاعتبر هذا ترخيصًا مني لكي تفعل ذلك.

الأهمية الحقيقية للقراءة هي أنها تولد فيك مودة مع عملية التأليف؛ مودة تأتي إلى دولة الكاتب حاملةً أوراقها الثبوتية النظامية تمامًا. ستسحبك القراءة المتواصلة إلى مكان (عقلية، إذا كانت هذه الكلمة تعجبك أكثر) يمكنك أن تكتب فيه بتلهف ومن دون وعي ذاتي. كما تقدم لك معرفة متزايدة باستمرار عما تم وعما لم يتم، عما يعتبر مبتذلًا وعما يعتبر ناضرًا، عما ينفع وعما يقبع هناك محتضرًا على الصفحة. كلما قرأت أكثر، كلما قلت فرص أن تجعل نفسك أضحوكة للناس بقلمك أو معالج نصوصك».

زهرة العمر

توفيق الحكيم

هربًا من كلف القضاء وبيئته التي تمنع إبراز أي اهتمامات أدبية أو فلسفية خارج نطاق العمل، كان يتنفس، ويتكلم، مع إنسان بعيد عنه بالرسائل التي تؤرخ زهرة عمره، يشاركه خيالاته، همومه، وتأملاته. فبعد أن التقيا في باريس، وغادر صديقه أندريه للعمل في شمال فرنسا، بدأت المراسلات بالفرنسية، وما توقفت رغم عودة توفيق الحكيم إلى مصر وتنقله بين مدنها، وترقّي صديقه ليصبح رجلًا مهما في الصناعة الفرنسية. وبعد فترة طويلة من افتراقهما، ذهب توفيق إجازة إلى فرنسا فزارهم في المنزل، ومع تذاكر الماضي برفقة الشاي، نهض أندريه بهدوء وصمت، واختفى بصمت؛ ليعود حاملًا صندوقًا صغيرًا وهو يقول باسمًا: «لم يكن من السهل أن ننساك أو ننسى تلك الأيام؛ وهذه رسائلك عندنا نلمح فيها طيفك ماثلًا أمامنا» دهش توفيق وطلب أن يأخذها ليعيد قراءتها على مهل بعد أن قضى بقية تلك الليلة يقلبها منعزلًا عنهم، ثم ترجمها للعربية ونشرها بعد أن اعتزل الوظائف الحكومية تذكارًا لصديقه. قراءة الرسائل الشخصية للأدباء والمفكرين تدخلك معهم المطبخ الخاص، بينما كنت تلقاهم في غرفة الضيوف مع بقية كتبهم، تتعرف على طريقة إعدادهم للأكل، والوجبات التي يفضلون، وكذلك طريقتهم في ترتيب أدوات المنزل، وقد تجد في المطبخ ما لا يظهره الكاتب لضيوفه البتة.

لغة القراءة

«عزيزى «أندريه»!

هل حقا أنت تفهمني؟ وهل تقدر ما أنا فيه؟ إنها دائمًا حالة القلق والبحث والتنقيب عن الأسلوب! لكن انتظر! ماذا أريد أن أقول؟ هل لي الحق أن أتكلم في الأدب؟ مع ذلك أتقطع شكًّا وقلقًا وبحثًا يا صديقي «أندريه» لا عن أسلوب الأدب وحده، بل عن أسلوب حياتي!

عزيزي «أندريه»!

ولنعد إلى ما جاء في رسالتيك الأخيرتين عن غرقك في بحر الكتب والمطالعات وخروجك مصابًا بحمى الشك والقلق.. ينبغي أن أبادر فأقول لك إن هذا القلق مرض دوري لكل رجل فكر! أين كنت أنت أيام أصابني هذا المرض الإصابة الأولى؟ لقد حدث لي بالضبط كل ما وصفت، في ذلك الوقت كنت أنت في مصنعك بعيدًا عن المنطقة الجدية العميقة من نفسي، وكنت أنا في حجرتي قريبًا من مسكن المأسوف عليه «إيفان»!، لقد كان العامان الأخيران من عهد «باريس» رازحين تحت أثقال هذا المرض الموهن. لقد فتحت أمامي المطالعات دنييات لا قبل لي بها، وعوالم لا حدود لها.. وقد حدث ذلك فجأة أو على الأقل في سرعة لم يتحملها ذهني فصار مثلي مثل ذبابة أطلقت في أجواز الفضاء الهائل، وهي التي ما هامت إلا في جو الحجرة الضيقة، وما عرفت النور إلا من خلال النافذة الزجاجية المغلقة. على أن هنالك فرقا بيني وبينك، لا يجوز أن تنساه ... فرق جعل مرضي أثقل وطأة وأشد فتكًا، ذلك أني كنت أعتبر شؤون الأدب والفكر حرفة وغاية!

وكنت أدع المتصلين بي يفهمون عني ذلك، وكنت أعلن لا فقط حبي

لشؤون الفكر والأدب والفن بل اشتغالي الكلي بها، أما أنت فقد كنت تعمل عملًا حقيقيًا ترتزق منه، وتأخذه على سبيل الجد، وما كانت المطالعات عندك إلا هواية، وما كان الإغراق في التأمل والتفكير والخيال إلا موضوع سخريتك، على الأقل في أول عهدك إلى أن رضيت آخر الأمر أن تتفضل على هذه الأمور بنظرة تسامح. ذلك حالك وهو كما ترى ليس خطيرًا إلى حد كبير، أما أنا فقد تفاقم خطبي، لقد أضعت وقتي كله في باريس منحنيا على مكتب الحجرة رقم 48 بشارع بلبور، أقرأ وأقرأ حتى قرأت كل شيء! لم أترك شيئا في تاريخ النشاط الذهني لم أطلع عليه.

لقد غرقت في آداب الأم كلها وفلسفاتها وفنونها.. لم أكن أسمح لنفسي بأن أجهل فرعا من فروع المعرفة؛ لأني كنت أعتقد أن الأديب في عصرنا الحاضر يجب أن يكون «موسوعيًا». لذلك بذلت جهدي في أن أحيط بأبرز ما أنتجت العبقرية الإنسانية! حتى العلوم، أردت أن ألم إلماما بأهم نتائجها، ففي الهندسة: حاولت فهم هندسة «نيومان» المعارضة لهندسة «إقلديوس» التقليدية، والرياضة: أردت فهم مراميها العليا في مؤلفات الرياضي «هنري بونكاريه»، والطبيعة والفلك: بدأتهما بـ«إسحق نيوتن» حتى بلغت نظرية «أينشتين» التي قرأت فيها وحدها نحو خمسة كتب، وفي علم الحياة قرأت بعض كتب «داروين» و «لامارك» وفي علم النفس: بدأت بكتب «جورج توماس» «وأرمان ريبو»؛ وانتهيت إلى أكثر ما كتب عن نظريات «فرويد»، ولفتت نظري العلوم «التيوزوفية» فقرأت كتب «آن بيزانت»، «وإدوار شوريه» و«رودلف ستينر» وخرجت منها إلى العلوم الروحية، فقرأت أبحاث (أوليفر لودج) و (وليام باريت) و(فلاماريون)؛ حتى علوم الكهرباء: حاولت فهم ما أستطيع فهمه من نظريات (فاراداي) و(تومسون) و(بيران) إلخ..

أما قراءتي في القصص التمثيلي فهي أعجب شيء فعلته. لقد قرأت كما أخبرتك ذات مرة (المكتبة المسرحية) برمتها، فأنا كنت أراسلها من مصر قبل نزوحي إلى فرنسا، وأعرف عنوانها في «الجران بولفار»، وكانت هي أول حانوت دخلته إذ دخلت «باريس» فجعلت أختلف إليها أياما طويلة، أطالع صفوف كتبها صفًّا صفًّا، وأنطلق آخر النهار ما أستطيع شراءه مداراة لصاحب الحانوت، واعتاد الكتبي رؤيتي كل يوم على هذا الحال. إلى أن نظر ذات يوم حوله فلم يجدني، فسأل في ذلك أحد عماله مستغربًا، ثم حانت منه التفاتة إلى أعلى المحل، فأبصرني في قمة السلم لاصقًا بالسقف ألتهم الكتب التي في الصف العلوي الأخير. أجل يا «أندريه» فعلت هذا، وبعد ذلك كله انكببت أكتب وأكتب مخطوطات كانت مصيرها كلها التمزيق، إن ما جعلتك تقرؤه منها يا «أندريه» لا يوازي جزءًا من عشرة أجزاء مما أخفيته عنك، وانتهيت إلى تمزيقه قبل أن تطلع عليه عين.. ولعل ما قرأته أنت هو أنكب وأقبح ما سودت به وجه ورق.

إنها سهول من الصحاري والرمال تصور لنا سرابًا بعيدًا لن نبلغه أبدًا، سهول من الأساليب المختلفة كلها «السهل الممتنع».

يحسب القارئ أنه محيط بأسرارها، واضع اليد على مفاتيحها، مستطيع أن يبلغ مبلغها لو أمعن في السير والبحث والكتابة فيسير ويسير متوهمًا في كل خطوة أنه يبصر «أسلوبه الخاص» المنشود يلمع فوق تلك السهول، لكنه ما يبصر غير سراب. ولشد ما توهمنا أن الأسلوب الخاص معناه التجديد وأن التجديد معناه الإغراب، وبهذا الوهم كتبت حماقات كنت أحسبها شعرًا، ونزعت إلى الإغراب خشية التقليد؛ فإذا بي أقع دون أن أشعر في محاكاة «الدادايزم» و«السوريالزم» و«الكونزم» الأدبي، وإذا ما كنت أظنه استيحاءً مبتكرًا في وضع الشعر على طريقة «بيكاسو» و«ماتيس» في التصوير الحديث؛

ليس إلا صدىً باهتًا لطريقة «جان كوكتو» ونزعات «مارسيل شووب» واتجاهات «ماكس جاكوب» وضعت في هذا الأسلوب قطعًا كثيرة أهمها: «النفس» و«القبلة» و«أبو الهول» الفصول التمثيلية إلخ.. مزقتها طبعا قبل أن أفكر في إطلاعك عليها.. وغير ذلك كم من الفصول التمثيلية كتبت ومزقت!

لقد كنت أظل أكتب أحيانا تسع أو عشر ساعات في اليوم بلا انقطاع دون أن أذكر الجوع، أو أفطن إلى أوقات الطعام.. ولقد أنفقت شهورا في وضع قصة تمثيلية، قرأتها لصديقي «مسيو هاب» وقد كان قبل الحرب ممثلًا مهمًا، كما تعلم، في أشهر مسارح «باريس».. قرأناها معًا في يوم بأكمله بحديقة «اللوكسمبورج»، وكان مصيرها «الإلقاء» في أول مرحاض عام بشارع مدسيس.

ذلك أني لم أستطع صبرا على الانتظار حتى أعود إلى مسكني فألقيها في سلة المطبخ، ولكني لم أقنط مع كل ذلك.. لقد استمرت الحمى بعدئذ سنتين كاملتين قاسيت فيهما كثيرا.. لقد كان القلق مستحوذًا عليّ إلى درجة مروعة، لأني كنت أظن في الأدب مستقبلي، لقد كنت أضن على نفسي المتعبة بشيء من الراحة والاستجمام. لقد دعاني زملائي المفلحون من دكاترة الحقوق إلى السفر معهم في الصيف إلى شاطئ «أوستند»، أو الفوج أو إلى قرية على بحيرات «سويسرا» استكشفوها، وكانوا يذهبون لنزهة الصيف زرافات، يضحكون ويلهون وكلهم فرح بالحياة، مدرك لقيمة الشباب. أما أنا ففي باريس دائما قد انحنى ظهري على مكتبي بشارع «بلبور» أبحث وأبحث عن ذلك السراب الذي يدعى «الأسلوب». حتى الحب، حتى «فينوس» ضحيتها من أجل «أبوللون»، لقد كنت أصالح «إيما» يوما لأخاصمها شهرًا، ولقد كانت تشاء الظروف أن أقابلها في المصعد وجها لوجه، وتسنح فرصة الصفاء واللقاء،

ولكني أقول في نفسي، علام الصلح وأنا لم أزل مع الفن في خصام؟

وأعود إلى أوراقي أنكب عليها انكبابًا غير حافل بغضب «إلهة الحب» معفرًا جبيني عند أقدام «إله الشعر والفن»! وإذا بهذا الإله القاسي يهزأ في النهاية بتعبي وكدي، ويبسم لي قائلًا بلسان مسيو هاب:

«نعم!.. نعم!.. لديك موهبة الحوار ... لكن...».

فيلقي بهذه الكلمة الصغيرة جرثومة الشك في أعماق نفسي، فأنهال على عملي تمزيقًا لأبدأ عملا آخر في كدّ ونشاط قاتلين، ويأتي الشتاء دون أن أشعر، ويسافر أصدقائي إلى التمتع بالشمس في «نيس» و«جراس»، وأنا على عهدي أرفض الذهاب معهم؛ لألقي بنفسي من جديد في أتون تلك الحمى المستعرة! ولا أكاد أفيق إلا على صوت غناء «إيما» يصعد إلي من نافذتها بالطابق السفلي، ولكن.. أين لي راحة الضمير؟ أين لي ذلك الاطمئنان إلى آخره طريق الوعي المغلف بالضباب؟ أين لي ثقتي بنفسي وعملي؟ أين الأمل ببعض النجاح؟ أين لي القليل من الرجاء بلطف من ذلك القلق الذي يحرمني التمتع بالحياة والشباب، وباريس؟ ما كان شيء يؤلمني ويطعن قلبي مثل سماع تلك الأغنية الباريسية ومطلعها:

«إذا كنت تريد الغرام فلا تنتظر ثمانية أيام!...»

وأنا لا أنتظر ثمانية أيام فقط، إنما أنتظر الأبد، أنتظر السراب الذي لن يأتي... أنتظر الوصول إلى مفتاح حياتي وسر غدي، بل أنتظر على الأقل علامة واحدة، تدلني على أن ما أنفق من وقت وجهد وألم في البحث لم يضع عبثًا!

لقد كان مسيو هاب يعيب عليّ شيئًا واحدًا: كتابتي الفرنسية مباشرة، لكن ذلك لم يفت في عضدي، ووضعني هذا القول وأمثاله في جحيم الحركة

من جديد! فاندفعت أعمل سنة كاملة أخرى، كتبت في نهايتها صفحات تقرب من الخمسمائة لم أطلعك عليها، ولكن بعض الأصدقاء حملوها إلى ناقد فرنسي معروف لم يرني ولم يعرفني، يستطيع أن يصدقني الرأي، فأبدى رأيه في خطاب طويل، فيه تحليل دقيق ختمه بالعبارة المعهودة: «أفكار كثيرة، وموهبة في الحوار.. ولكن»

آه لهذه الـ«لكن»! قتلتني، لطالما مزقت وقتي وجهدي وقلبي وشعرت أني سجين هذه الـ«لكن» أفظع مما سجن بها ملك روما في قصة «إدمون روستان»! ومزقت تلك الصفحات أيضًا.

إن اعتراضات الجميع لا تتغير: «لماذا تحاول أن تتكلف الأسلوب تكلفًا؟! إنه لا يفوح من أسلوبك الفرنسي أي عطر شخصي أخّاذ، إنما هي عبارات محفوظة في كتب البلاغة تحسب أنها أسلوب رائع!».

حقا.. إن احتفالي بأمر الأسلوب قد أوقعني في التقليد، آه لكلمة أسلوب!

لقد بدأت أبصر وقتئذ، لقد تبين لي بعد طول الجري والجهد أن الأسلوب أحيانًا حجة الكاتب الذي لا يجد ما يقول! إن الذي عنده ما يقول للناس يخرج بكل بساطة ما لديه من كنوز، فلا يحفل بأسلوب التقديم ويتكلف الوضع المسرحي في الإعطاء إلا ذلك الذي يعطي شيئًا تافهًا!

ما الأسلوب إلا تلك الآلة الصناعية التي تتوسل بها للوصول إلى الحقيقة، ولكن ما أروع الحقيقة لو تفجرت وحدها، من أعماق القلب الصادق، في كلمات بسيطة!

لهذا كان الأسلوب أحيانًا كل أدب أولئك الذين لا يحملون في جعبتهم ما ينفع الناس!

ولقد لاحظت أنت يا «أندريه» بحق أن كتابا مثل كتاب «السحر الأسود»

لـ «بول موران» هو مجرد أسلوب، وأن كتابًا مثل كتاب «قافلة بغير إبل» لـ«ولان دور جليس» ليس سوى أسلوب!

هذا العصر الآلي يلجأ أحيانًا إلى آلة الأسلوب كلما أعوزته روح الحقائق الإنسانية التي أبرزها الأدب القديم، الأسلوب هو المظهر الخادع الذي يخفي به كتّاب اليوم جهلهم المطبق بروح الشعوب التي يزعمون النفوذ إلى صميمها، في مدى رحلة شهرين بالقطار والباخرة! إنهم يستعيضون بفن الديكور الكلامي و«الريبورتاج» السريع، واللون المحلي السطحي، عن الحقائق التي لا يحسنها إلا أهلها، إن ما يطلبه الغرب، وما يطلبه الشرق، أشياء غير ذلك.. أقرأ مقالات «لويس برتران» عن إسبانيا.. إنه قد أدرك كل هذا، فهو يتهم كتاب فرنسا المعاصرين بأنهم - لاهتمامهم باللون السطحي وحده - قضوا على «إسبانيا» أن تظل مجهولة إلى الأبد لعين «فرنسا».. وأنا أزيد عليه أن كتاب إسبانيا أيضا من أمثال «بلاسكو إيباتيز» ساهموا في هذا التضليل، لقد قيل: إن هذا الكاتب الإسباني المشهور كان ذا وجهين: وجه يتجه إلى وطنه، ينشئ له أعمالًا هي وحدها ذات القيمة الحقيقية، ووجه يتجه إلى أوربا، فينشئ لها أعمالًا دولية..

وأوروبا للأسف لا تعرف إلا هذا الجانب المصنوع لها صنعًا!

إذا كان هذا قيل على «إسبانيا» فماذا يقال عن مصر والشرق؟ إن مهمة كاتب مصري أو شرقي لأشق وأعسر وأكبر من ذلك كله، ولكن لابد من جهادنا حتى في بلادنا أيضًا؛ فإن الأسلوب السليم لم يزل في عرفنا مرادف اللغة المتصنعة المنمقة، وقليل من فطن إلى أن الأسلوب هو روح وشخصية!

لقد كان مسيو هاب يدعوني إلى ترك الكتابة الفرنسية لا لأني لا أحسنها! على النقيض؛ لأنه رآني أتكلفها، وأنمقها، وأستخدم تراكيب موضوعة، وبلاغة محفوظة؛ مما حبس روحي وسجن شخصيتي في أغلال من الكذب

والتصنع، لقد أصاب الحقيقة، لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق في شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه أنه ينشئ أسلوبًا.

البلاغة الحقيقية هي الفكرة النبيلة في الثوب البسيط، هي التواضع في الزي والتسامي في الفكر، كذلك كان أسلوب الأنبياء في حياتهم: انظر إلى «محمد» و«عيسى» على الخصوص: بساطة في الملبس، وتواضع في المظهر، وسمو في الشعور والتفكير! إني يا «أندريه» مهتم كل الاهتمام بالتفاتك الحاضر إلى الأدب، وإن بحثك وشكك وقلقك لما يدنيك إلى نفسي، فمرحبا بك.. امض فيما أنت فيه، ولا تخش هذا المرض الضروري، بل يجب ألا تشفى منه سريعا.. حبذا لو اتصلت بك، وبما تقرأ أكثر من ذلك! ولو أني أتبع اليوم نظامًا صحيًا، أي عدم المطالعة في الأدب إطلاقًا، قراءتي الآن قليلة، وفي أشياء أخرى غير الأدب، مثل تقارير عصبة الأم، وسياسة أوربا الاقتصادية بعد الحرب! إلخ».

***

«عزيزى «أندريه» !

إني الآن غارق في الأدب العربي ... أريد أن أدرس قضيته من أساسها، أريد أن أعيد النظر في أمر اللغة العربية - لغتي - وأكشف أسرارها وأضع إصبعي على مواطن ضعفها وقوتها، هذا الوقت هو خير وقت أستطيع فيه أن أرى وأميز وأحسن «الحكم» فلي عينان قد طافتا - منذ أمد ليس بالبعيد - مختلف الآداب العالمية. ولقد نجحت فكرتي حقا!

إني أقرأ نصوص هذا الأدب في عصوره المتعاقبة بعين جديدة، عين عامرة بالصور، حافلة بالمقارنات، وبنفس رحيمة عادلة صابرة، تلتمس العلل والأسباب، وتطيل التريث والبحث، قبل أن تصدر الأحكام!

قبل كل شيء أحب أن أقول لك إن أولئك الذين علمونا اللغة العربية، في المدارس الابتدائية والثانوية، كانوا يجهلون لا معنى اللغة العربية وحدها، بل معنى اللغة على الإطلاق. إنك لن تجد مستنيرًا في مصر لا يقول لك إن اللغة العربية - للأسف - قاصرة عن التعبير في شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالي، بل منهم من يقول إنها ليست لغة تفكير، لغة بهرج وتنميق. لماذا؟ السبب بسيط: هو أن النماذج التي بأيدينا - ونحن صغار - للبلاغة في اللغة العربية كانت كتبًا غثة المعنى متكلفة المبنى، لو كتب بها شخص اليوم لأثار سخرية الناس! نعم، إنهم يعلموننا في المدرسة لغة إذا استعملناها في الحياة ضحك منا الناس! من ذا يستطيع بعد انتهاء دراسته أن يكتب رسالة على نمط «عبدالحميد الكاتب»، أو مقالًا أو بحثًا أو تقريرًا على طريقة «الحريري» دون أن يتعرض لسخرية الساخرين؟!

ليس من اليسير أن أطلعك أو أترجم لك مثل هذا الأسلوب «النموذجي»! ولكني أقول لك إنه أسلوب يستخدم اللغة استخدام الجواري للعود في مجالس الأنس والسكر بقصور «هارون الرشيد»! أسلوب غايته قبل كل شيء أن يبهر السمع النائم ويطرب الأذن المسترخية! لست أدري! أيجوز أن تجعل لغة من اللغات وسيلة لهو وأداة براعة؛ كفنون المغنين، وألعاب الحواة، أم أن اللغة أداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة؟ إني أفهم أن يضرب مثل هذا الأسلوب مثلا للضعف والسقم، لا للسلامة والبلاغة، فإن التكلف أبرز عيوب الفن، كان «جويو» يقول: إن الرشاقة في فن الرقص هي أداء الحركة الجثمانية العسيرة، دون تكلف يشعرك بما بذل فيها من مجهود، تلك أولى خصائص الأسلوب السليم في كل فن، حتى الحاوي الماهر هو ذلك الذي يخفي عن الأعين مهارته، ويحدث الأعاجيب في جو البساطة والبراءة. لعل الكاتب الوحيد الذي ضربوه للطلاب مثلا فصدقوا هو «ابن المقفع» في ترجمته «كليلة ودمنة». هذا كاتب تصنع في أسلوبه هو الآخر ولكن بخفة

ومهارة، وطلاه وجمله ولكن بذوق وكياسة، فلم يبد عليه سماجة التكلف ولا ثقل الصناعة!

إنه ذلك الحاوي البارع! أو تلك الحسناء الذكية التي تطلي وجهها بالأصباغ، ثم تمسح أثرها الصارخ، فتظهر وكأن نضارتها نضارة الأصل والفطرة.

إن «ابن المقفع» يجهد في أسلوبه ليخفى أثر الجهد! إنه تلك الراقصة الرائعة التي تخفي حركاتها العسيرة فلا تبدو لنا منها إلا تموجات رشيقة يسيرة! هذا الكاتب هو على كل حال مثل طيب للصناعة في الكتابة! وإذا أردت أن تعرف حقًّا جلال اللغة العربية؛ في بساطتها وسيرها نحو الغرض: فاقرأها عند الفلاسفة والمؤرخين العرب! أولئك عندهم حقيقة ما يقولون؛ فهم لا يضيعون أوقاتهم وأوقاتنا في العبث اللفظي والطلاء السطحي؛ إنما هم يحدثوننا في شؤون فكرية واجتماعية وأخلاقية ودينية في لغة سهلة مستقيمة، لا لعب فيها ولا لهو ولا ادعاء.

إني لأدهش كيف أن مؤلفين مثل «ابن خلدون» و«الطبري» و«ابن رشد» و«الغزالي» لم يعرضوا علينا قط في دراساتنا للأدب العربي بالمدارس؟! كيف نعرف لغة بدون أن نطالع فلاسفتها ومؤرخيها؟ أتستطيع معرفة الفكر اللاتيني دون أن نقرأ «سنيكا» و«مارك أوريل» و«تيتوس ليفيوس» و«كورنليوس تاسيت»؟! لو أنه عرضت علينا صفحة واحدة مع شرحها، لكل فيلسوف بارز ومؤرخ مشهور من فلاسفة العرب ومؤرخيهم؛ لتغير رأي أكثر المستنيرين عندنا في اللغة العربية، وقدرتها على التعبير عن أدق الأفكار وأعلاها وأعمقها وأنبلها. أوليس بهذه اللغة نقل «ابن رشد» و«ابن سينا» أعمق آراء فلاسفة الإغريق إلى أوربا المتعطشة للمعرفة؟! أنتم معشر الفرنسيين فعلتم ذلك في تدريس الأدب الفرنسي!

ما من كتاب مدرسي - صغر أو كبر - لا يذكر فيه نماذج من أسلوب «مونتابي» الفلسفي، وأسلوب «روسو» الاجتماعي و«بوسويه» الديني و«فولتير» التاريخي؛ بل حتى أسلوب «موليير» الفكاهي أحيانًا إلى حد التهريج!

ذلك أن المدارس الفرنسية أدركت أن تدريس اللغة يجب أن يشمل كل نواحي التعبير بها، أما قصر تعليمها على نماذج البلاغة اللفظية الجوفاء؛ فهو امتهان لكرامة اللغة، وانتقاص من قدرتها على الأداء!

في العربية كاتب متعدد النواحي، له باع طويل في الجد والهزل، هو «الجاحظ»! هذا أيضا لم نقرأ له سطرا في المدارس كل كاتب عربي بسيط الأسلوب نافع لنا في الحياة يقصونه عنا إقصاء بحجة أنه غير بليغ، ويأتون إلينا بالكاتب الذي لا ينفع في حياتنا إلا نموذجًا لإثارة السخرية.

حتى الشعر وهو مفخرة اللغة العربية، الشعر الذي كان يجب أن ترى فيه نفوسنا المتفتحة أول لون من ألوان الفن، ماذا انتخبوا لنا منه؟ قصائد المواعظ والحكم؟ هنالك حقًّا أنواع من الموعظة والحكمة يعرف الشاعر الحق كيف يلبسها ثوبًا من الصور الحسية والذهنية، ترفعها إلى مرتبة الفن العالي، كما فعل «أبو العلاء» و«المتنبي» و«النابغة الذبياني» في بعض قصائدهم، ولكن الفرز والتمييز والتخير في هذا الباب يحتاج إلى حاسة فنية لا يملكها القائمون بهذا العمل.

حتى الشعر الموسيقي والشعر التصويري الذي عرضوا علينا بعض نماذجه - في أعمال «البحتري» و«ابن الرومي» على الأخص - لم يكن من خير آثارهما.

ليس كل شعر فنًا عاليًا؛ لأنه يعظ أو يصور أو يرنم! فالشعر الحق هو شيء

أبعد كثيرًا من مجرد إصابة الأهداف الظاهرة، أو تحقق الأغراض المباشرة، بل ربما انحط شعر في عرف الفن العالي؛ لأنه اقتصر على صياغة حكمة أو تصوير منظر أو إحداث جرس. إنما الشعر الحق قد يتوسل بهذه الأشياء لبلوغ مأرب أسمى: هو الارتفاع بالناس إلى سحب لا تبلغ والرحيل بهم إلى عوالم لا تنظر! هو أن يريهم من خلال كلماته البسيطة ووسائله البادية أشياء لم تكن بادية ولا طافية، في محيط ضمائرهم الواعية. هو بالاختصار ذلك السحر الذي يوسع ذاتية الناس، فيرون أبعد ما ترى عيونهم، ويسمعون أكثر مما تسمع آذانهم، ويعون أعمق مما تعي. هذا هو الشعر، هذا هو المقصود من كلمة الشعر في إطلاقها على كافة الفنون! ما من فن عظيم بغير شعر، أي بغير تلك المادة السحرية التي تجعل الناس يدركون بالأثر الفني، مالا يدركون بحواسهم وملكاتهم!

لقد أثقلت عليك يا «أندريه» بهذا الحديث في موضوع لا يعنيك كثيرًا، ولكن من غيرك أبثه كل خواطري..؟ تحمّل!...».

مسار

عبدالفتاح كيليطو

«لربما ينبغي على الكاتب أن يتجنب الحوارات، أن يكتفي بكتبه ويدع قارئه يتدبر أمره. وإن كان ولا بد، فليكن حوارًا واحدًا» هذا ما يقوله عبد الفتاح كيليطو، لكن الحمد لله أنه لم يلتزم به، فسجّل العديد من الحوارات التي جمع بعضها في مسار، بعد أن أعاد تنقيحها وصياغتها بما يتلائم مع شكل الكتاب.

كيليطو يجيد فن المراوغة في الإجابة، لن تحظى بإجابة مباشرة، عليك أن تكون فطنًا لمجاراته في الحوار، تظن أنه سيسهب في هذه الإجابة فتصدم باختزاله لها.

عن اختياراته في القراءة، ودوافع تأليف أعماله، عن حيرة اختيار اللغة التي يكتب بها، فن النقد والترجمة، وأشياء كثر دارت هذه الحوارات، حاولت أن أختار من إجاباته ما يرسم درب قراءاته، وفي الكتاب المزيد، فهو يكتب ليتكلم عن الكتب التي دمغته بأثر لا يزول. ستجد في كل إجابة - غالبًا - استشهادًا من كتاب قرأه أو إحالة لعمل كتبه، وكأنه يسير على خطى الجاحظ الذي كانت تسعون بالمئة من أعماله كذلك.

«لا أتذكر إلا بصورة غير واضحة ما الذي كنا نقرؤه في القسم. من ألفونس دودي أتذكر (رسائل من طاحونتي)، كذلك (غارغانتوا) لفرانسوا رابليه (في طبعة عصرية)، طرتوف لموليير، البؤساء لفيكتور هوغو (في طبعة مختصرة). ثم ماذا أيضًا؟ ذهني كان شاردا في مكان آخر. في البيت قرأت لروبرت موزيل (رجل بلا صفات)، لتوماس مان قرأت (الجبل السحري)، هرمان هسه قرأت (نرسيس وغولدموند)، قرأت نصوص أوبرات فاغنر، هاينريش هاينه، مسرحيات بريخت، جميع أعمال كافكا (ما عدا اليوميات)، قرأت دوس باسوس إذا لم تخني الذاكرة، وبطبيعة الحال جان بول سارتر. كنت أتبجح بمعرفتي لكل أعماله الأدبية. لكن في أحد الأيام، استفسرني صديق قرأ (نيكراسوف)، إن كنت أعرف هذه المسرحية، وما كنت أعرفها. تفوق عليّ إذن بنقطة.

أتذكر أني قرأت (دكتور جيفاغو) لبوريس باسترناك في الستينيات. وكانت تلفت انتباهي أعمال غوركي المعروضة في المكتبات، لكنها، لسبب ما، لم تكن تستهويني، لا شك بسبب الصور الموضوعة على الأغلفة.

ممن تركوا أكبر الأثر عليّ رواية (موبي ديك). ولاحقا دوستويفسكي: كثير من المراهقين الذين يقرؤونه يشرعون في التصرف كما شخصياته، يصبحون صموتين، يتظاهرون بالكبرياء، ويحسون بالتميز فيأخذون في التبجح بآراء غريبة. ما يُلفت النظر عند الكاتب الروسي أن التماهي يتم مع أغلب شخصياته وليس مع البطل فحسب، إن كان هناك من بطل، الأمر الذي ليس هو حالة الإخوة كارامازوف.

قرأت تقريبا جميع الأعمال المنشورة للكتاب المصريين واللبنانيين. ولست في ذلك مباهيًا: لم يكن منها العدد الكثير. كنت أميل إلى طه حسين، وبفضله اكتشفت أن كل شيء هو موضوع للمناقشة وللمجادلة وإن تعلق الأمر بكبار الكتاب القدامى. لم يكن طه حسين يُشفق على أحد، ولم يكن يهيم بأحد، حتى الأساطير لم تكن منه في مأمن. كان ذلك، بمعنى من المعاني، مخيّبًا للأمل بعض الشيء: باقتفائي أثره، لم يبق ما يثير الإعجاب، ولا حتى بطل واحد. لكن، في نفس الوقت، كان يتكون لدي انطباع، بقراءته، أني أصير أكثر فطنة. أحببت أيضا توفيق الحكيم لسبب مختلف. كان لروايته عصفور من الشرق الأثر البالغ عليّ. كنت مثله أرغب بشدة في الذهاب إلى باريس، في ارتياد المسارح، في زيارة المتاحف، في الهيام بامرأة فرنسية. فقط بهذه الكيفية، كما كنت أتصور، كان يمكنني أيضا أن أصير كاتبًا».

***

«الطفل هو القارئ المثالي، يقرأ من أجل أن يقرأ القراءة عنده غاية في ذاتها. في حين يعتبرها البالغ غالبا كوسيلة، يقرأ من أجل أن «يقتل الوقت»، «أن يثري لغته»، يقرأ بفعل التقليد، كأن يقال له إن القراءة عمل مفيد وبواسطتها يصل المرء إلى المعرفة. الطفل يتعاطى لقراءة خالصة. صلته بالكتاب مماثلة لصلة الكلب بالعظم عدا أن الطفل لا يبحث عن «اللب»، عن معنى مخبوء أو عميق. وحده السطح يغريه، ينزلق فوقه كأنه فوق جليد».

سيرتي الذاتية هي سيرة قراءاتي

«لا أكتب سيرًا ذاتية. فأية سيرة ذاتية يا ترى في أنبئوني بالرؤيا وفي حصان نيتشه؟ لا أتحدث عن نفسي إلا إذا بنيت قولي على كتاب ما أو على إحالة

معينة. ولهذا يمكن أن أقول إن سيرتي الذاتية هي سيرة قراءاتي. قد يكون من المفيد أن يسرد المرء جدول قراءاته، وهذا مع الأسف ما لا يقوم به النقاد عادة. يسألونك عن نفسك ولا يسألونك عن قراءاتك. يمكن أن نلاحظ مثلًا أن قراءاتي في خصومة الصور ليست هي قراءاتي في بحث، ولا هي ذاتها في حصان نيتشه، وفي أنبئوني بالرؤيا.

قل لي ماذا تقرأ أقل لك كيف تكتب».

***

«غالبا ما ننزع، من جهة أخرى، إلى إقامة تعارض بين الكتاب وبين الحياة. لكن، هل ثمة فكرة أو فعل ليسا، بوجه من الوجوه، مأخوذين من الكتب؟ لنتخيل القارئ متأملًا في سكينة وفي رصانة داخل مكتبته، لكنه في الحقيقة متورط، منذور لكي يأخذ موقفًا فيما يمكن أن نسميه تخاصم الكتب»

***

يظل الأدب الآسيوي بالنسبة إلي لغزًا، وهذا دون شك نقصان كبير. تبقى لقاءات الصدفة: الأمريكي دوس باسُوس كان اكتشافًا. لا نظل ما كنا عليه بعد أن نقرأ كاتبًا عظيمًا. بورخيس: لقاء حاسم وتجاور حميمي، أتحسس تواضعه الكاذب (ليس هناك ما هو أكثر عجرفة وشموخا من الخشوع الذي يظهره)، تنقيبه المبنيّ على اللعب، إيثاره للخطاب الـمَرويّ، استشهاداته الصائبة إلى هذا الحد أو ذاك، الانطباع الذي يتركه (وإن أنكر ذلك) بأنه قرأ كل شيء... سمات مميزة تقربه - أمر لافت للنظر حقا - من الجاحظ الذي يشير إليه في قصته «بحث عن ابن رشد».

«بورخيس قرأته متأخرًا وقت كنت على وشك إنهاء كتابي (الكتابة والتناسخ). أدين له بالكثير. من اليسير التعرّف، في كتاباتي اللاحقة، على موضوعات أثيرة لديه: المكتبة، الكتاب اللانهائي، المرآة، القرين. ساهمت مقالاته في تجديد مقاربتي للأدب العربي. أرى قرابة بينه وبين كاتبين عظيمين من القدماء؛ الأول هو الجاحظ، الناثر العظيم من القرن التاسع الميلادي، المتحمس للاختلاق وللخطاب المنحول؛ وقد أومأ له بورخيس في واحدة من حكاياته، بحث عن ابن رشد. والثاني هو المعري، الشاعر العظيم الأعمى من القرن الحادي عشر الميلادي والذي يبدو أن الأرجنتيني يتقاسم معه نقاطًا مشتركة، تعلقهما بالأم ولكن أيضا فزعهما من الإنجاب.

الاختلاف بين الجاحظ وبورخيس يكمن في مراجع وإحالات هذا وذاك. الجاحظ يتحاور بالعربية مع الحكمة الفارسية ومع الفلسفة اليونانية، بينما بورخيس يتحادث بالإسبانية مع الآداب الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية... على الرغم من ذلك، فإن بينهما العديد من النقاط المشتركة. كان لهما، هما الاثنين، مشكل في العين، الأول بارز الحدقة، والآخر أعمى كما المعري. إلا أنهما وبجدية (لكن، أليست العين مشكلًا جديًّا؟) كانا من أكبر القراء ويحبّان أن يتكلما عن قراءاتهما. موضوعهما الأثير: استحضار الكتب واستدعائها. أعتقد أن تسعين بالمئة من عمل الجاحظ يتألف من استشهادات. بالنسبة إليه، أن يكتب هو أن يستشهد. هو، بهذا الصنيع، يذكّر بمونتيني.

لا نظنّن أن الاستشهاد تمرين سهل، ولا هو أثر من كسل. يدرك مؤلفو الأنطولوجيات بعض ما في هذا الأمر من عنت. وكما الجاحظ، فإن بورخيس لا يمكنه الكتابة دون أن يستدعي هذا الكاتب أو ذاك حرفيًّا بطريقة مراوغة. يحدث لهما أحيانًا، وكنقطة مشتركة أخرى وبشكل تدليسي خفي، أن يسندا خطابهما الخاص إلى أسلاف أو إلى كتاب متخيلين».

«لا يمكن للذة القراءة أن تؤمّن إلا بالإحساس بأنك توجد فيما هو حقيقي، إلا بصدق النبرة، وإخلاص الموقف، والتنبه إلى أن الكاتب دائب البحث عن فكرة، عن صورة، وأنه يحيا في الارتياب، في التذبذب، وفي الإخفاق. ذبابة تصر على مضايقته ولا ينجح لا في اصطيادها ولا في طردها. انظر مثلا إلى روايات جوزيف كونراد. هو على النقيض من كتاب يتراءون مملين، فقط لأنهم وجدوا ضالتهم قبل الأوان، لأنهم لا يلاحقون، كيف أقول، أي حلم. يقدمون إليك ما هو صحيح سياسيًّا، غير أن النبرة كاذبة وتافهة. وكما يقول لوثر، «لقد سبق لهم أن نالوا مكافأتهم».

شظايا من عمري

عبد المنعم الملوحي

يُشبّه عبد المنعم الملوحي استعراض سيرة الإنسان وهو في الخمسين من عمره، بترتيب المكتبة! هذا الكتاب أين يضعه؟ وذلك الكتاب ما موضوعه؟ وهل قرأ هذا السفر؟ وما ملاحظاته عليه، ولا يكاد يمضي في تصنيف مكتبته نصف ساعة، حتى يكاد يختنق فينفض يديه منها، في سرعة، ويعود إليها بعد ذلك في شيء من القسر، ينتهي بعد محاولات عديدة منها، وهو لا يطمئن اطمئنانًا تامًّا إلى ما صنع، كل ما كان من أمر أنه وجد كتبه مرة أخرى تقبع في رفوفها بعد انتقاله من بيت إلى بيت أو من بلد إلى بلد.

سيرة المؤمن بالله، وبالعروبة، وبالاشتراكية، كيف أصبح مؤمنًا بهذا الثالوث، وما عايشه من تقلبات حتى كتابة هذه السطور. لقناعته أن كاتب المذكرات الشخصية لا يلزم أن يكون ذا شأن في هذه الحياة، يكفيه أن يكون إنسانًا عاش وفرح وتألم!

كثيرة هي تجاربه مع النساء، ولا يخجل من سردها بأسماء أهلها وصلة قرابتهم له أو سكنهم، وأعجب منه كيف يقدّم كتابه: لو سألوني يوم حشري: ماذا فعلت؟ لقلت لهم في صدق: (هاؤم اقرؤوا كتابيه)!

عن أحمد أمين، وشوقي ضيف، وأمين الخولي الذين درسوه في القاهرة، وطرفًا من المواقف معهم، في شظايا من عمره التي كتب عليها الجزء الثاني ولم أجد سيرته الأولى.

دفاتر التلخيص

«الزحام على الحياة يفقد كثيرًا من الناس كرامة الحياة.

تقدمت إلى دار المعلمين وقبلت في الصف الأول في دمشق، وكانت في موضع وزارة المعارف ثم مديرية تربية دمشق قرب التكية السليمانية اليوم. كانت السنتان اللتان قضيتهما في دمشق من أخصب سني حياتي جِدًّا وعملًا ودراسةً وأجملها حياةً خاصة.

أما الجد والدراسة والعمل فقد كانت هاتان السنتان حافلتين بالدراسة الجدية اهتممت أول ما اهتممت بعلم النفس وعلم التربية، قرأت كل ما في مكتبة دار المعلمين من كتب تتعلق بهما، وكانت لي في الدراسة عادة طيبة، كنت أقرأ الكتاب بالعربية أو الفرنسية، فإذا كان بالعربية لخصته وكتبت تلخيصه في دفاتر سميتها (دفاتر التلخيص) كتبت عناوين الفصول، وأهم ما فيها، وسجلت كلماتها الهامة ومقاطعها الضرورية، وإذا كان بالفرنسية ترجمت التلخيص أو كتبته بالفرنسية، وسجلت أهم مقاطعه و كل عناوينه، وما تزال هذه الدفاتر موجودة لدي، وأعتبرها من أنفس ما فعلت.

وقرأت كثيرًا من الأدب والقصص ودواوين الشعر وسجلت ذلك ولخصته.

ومن المؤسف أن هذه العادة الطيبة لم تستمر، وتخليت عنها بعد سنين، ولو استمرت لكانت عندي الآن كتب كثيرة فيها أحسن ما فيها ملخصًا. بل كنت في كثير من الأحيان أناقش الكتب وأبدي فيها رأيي سلبًا أو إيجابًا، ولكن كنت تركت تلك العادة الحميدة فإني أنصح كل مطالع بتلخيص ما يطالع وبتسجيل أهم ما في الكتاب شعرًا ونثرًا وتاريخًا وقصصًا، لتغدو

مرجعًا هامًا له، يعرف فيها ما قرأ، ويعرف فيها أيضا أهم ما قرأ. وكنت جديًّا في دراستي في دار المعلمين، كنت أحصل على أرفع الدرجات في المواد وما أزال أذكر أن الأستاذ محمد البزم - رحمه الله - كان يختصني بحبه وعطفه ويدعوني إلى بيته لأقرأ له شعره، وكنت أقرأ هذا الشعر، وهو شعر يرقى إلى العصر الأموي بل الجاهلي أحيانا في أسلوبه، ودون خطة. وكان يُسرُّ كثيرًا بقراءتي ثم يحدثني عن كثير من مشكلات اللغة والنحو والصرف والأدب، ولقد ظفرت منه بزاد أيّ زاد. وفي دار المعلمين أيضا عرضت لي تطورات فكرية هامة، كنت مثل كل الناس أحب ألمانيا وأتمنى أن تنتصر على فرنسا وهي الدولة المستعمرة لكثير من الشعوب العربية، ومنها سورية.

ولكن مطالعاتي في دار المعلمين، ومطالعاتي لبعض الكتب الماركسية، وتطور الحرب بعد استيلاء ألمانيا على بعض الشعوب الصغيرة كاليونان ويوغوسلافيا، ثم دخول الاتحاد السوفياتي في الحرب بعد هجوم ألمانيا عليه، واتصالاتي ببعض المثقفين والمدرسين ولاسيما الدكتور كامل عياد، كل هذه الأمور كانت أول شرارة أوحت إلي العودة إلى دراسة مفاهيمي السابقة، فصرت رويدًا رويدًا من أنصار الديمقراطية ثم من أعضاء الحزب الشيوعي وحضرت مؤتمر اللجنة المركزية في بيروت، وساعدت المرحوم عمر الفاخوري في حملته الانتخابية بعد ذلك، وعملت في تحرير جريدة صوت الشعب».

***

دوستوفسكي في المحمصة!

«اتجهت حياتي في القاهرة إلى نطاق الفكر والثقافة والأدب. وبذلت جهدًا كبيرة في هذا النطاق.

قرأت كل ما عثرت عليه من كتب الفلسفة بالعربية وبالفرنسية، ولاسيما كتب الفلسفة الماركسية التي تسربت إلى مصر بشكل كبير خلال الحرب العالمية الثانية.

وقرأت كل ما عثرت عليه من الكتب الثقافية العامة ومن الأدب العالمي، ومن هذه الكتب التي قرأت (ذكريات حياتي الأدبية) لمكسيم غوركي وقررت فور قراءتي له أن أترجمه، وترجمته فعلًا وتمت طباعته في القاهرة، عام 1944 - 1945 وهو أول كتاب أطبعه، ولعله أن يكون أول كتاب لمكسيم غوركي باللغة العربية.

وقرأت كل دوستويفسكي وأعجبني أكثر ما أعجبني من مؤلفاته روايته «في سردابي» وقد بدأت بترجمتها، وأنا في القاهرة، لأطبعها بعد ذلك في حمص.

ولمعرفتي بدوستويفسكي حادثة طريفة: عندما دخل الإنكليز سورية مع الديغوليين. للخلاص من ممثلي حكومة (بيتان) في فرنسا المحتلة، سافر عدد من الموظفين الفرنسيين إلى فرنسا وتركوا وظائفهم في سورية ومن هؤلاء الموظفين كان المستشار أو ما يشبه ذلك في الرستن قرب حمص.

مررت ذات يوم في السوق وأردت أن أشتري شيئًا من الموالح، وجئت إلى دكان، وطلبت منه قضامةً وبزرًا، أعد البائع ما طلبت وأراد أن يضعه في ورقة، فإذا هو يخرج كتابًا باللغة الفرنسية ويهم بتمزيقه، فقد كان الورق غاليًا

في فترة الحرب، وكانت الكتب - وا أسفاه - أرخص من الورق.

وإذا أنا أرجو البائع ألا يمزق الكتاب وأن يعطيني إياه لأراه، وقرأت بالفرنسية اسم (دوستويفسكي) المؤلف واسم الكتاب «المهانون المذلون»، وقلت له: من أين لك هذا؟ قال: عندي مجموعة كبيرة من الكتب اشتريتها من مستشار فرنسي عاد إلى فرنسا... ورجوت البائع أن يريني هذه المجموعة.

وهالني ما رأيت: أكوام من الكتب فيها مؤلفات «راسين» كاملة ومؤلفات «روسو» و«فولتير» و«هوغو» ومؤلفات عدد من الكتاب الإنكليز... والروس... الحق أن هذا المستشار كان مثقفًا كبيرًا.

بحثت في جيوبي فوجدت معي خمس ليرات سورية، وقلت للبائع: أعطني هذه الكتب. قال: خذ منها ما تشاء.

وجمعت مجموعة كبيرة وحملت ما أستطيع وسرت بها ظافرًا إلى البيت. ما تزال هذه المجموعة تشكل النواة الأولى والممتازة لمكتبتي باللغة الفرنسية.

كنت أتمنى أن أشتري كل الكتب... ولكن ما حيلة موظف يدفع كل ما بقي له من راتبه في شهر كامل ليشتري كتبا.

قرأت الكتاب فأعجبني جدًا، واكتشفت أننا لا نعرف من الثقافة شيئًا، ولا من الأدب. لقد تعلمنا كثيرًا عن الثقافة الفرنسية وقرأنا كثيرًا من الأدب الفرنسي، ولكن سياسة فرنسا الثقافية كانت تقتصر على تعريفنا بالأدب الفرنسي وحده، أما العالم فما كنا نراه بل كنا لا نسمع بأدبه..

وخرجت بعد أيام، فإذا أنا في الطريق، في حمص، بصديقي المرحوم الدكتور سامي الدروبي قلت له فرحًا: يا سامي لقد اكتشفت اليوم كاتبًا كبيرًا روسيًا هو دوستويفسكي وقرأت كتابًا له هو المذلون المهانون.

قال: وهل تعيرني الكتاب؟ وأعرته الكتاب، ولم يعد إليّ بعد ذلك طبعًا.

أولم يكتب أناتول فرانس في مكتبته هذا الإعلان العجيب: «لا تعر كتبك لأحد فإنه لن يردها».

«لو فحصت مكتبتي أنا مثلًا، لما وجدت فيها إلا الكتب التي استعرتها من الناس».

رحم الله سامي: لعل هذا الكتاب الذي استعاره ولم يرده، كان أول بذرة أوحت إليه أن ينصرف بعد سنين إلى ترجمة آثار دوستويفسكي الكاملة...

ولم أكتف بترجمة هذين الكتابين، بل ترجمت مقالات وأبحاثًا كثيرة أخرى. وإلى جانب المطالعة والترجمة، كنت لا أكاد أترك محاضرة عامة دون أن أستمع إليها، وكانت أكثر المحاضرات تلقى في الجامعة الأمريكية في أول شارع القصر العيني، وممن استمعت إليهم المرحوم سلامة موسى».

الذات بين الوجود والإيجاد

بنسالم حميّش

بمقدمة نقدية عن سؤال السيرة الذاتية، ثم المبررات التي هوّنت عليه التغلب على رفض الحديث عن النفس، بدأ بسرد طفولته الصعبة التي مر بها، وسطوة أخيه به، وأول حب له، مرورًا بالصلات الأدبية التي يفخر بها مع كبار الكتّاب المغاربة، ودراسته وإيجاده أدبيًّا وفكريًّا ولغويًّا وثقافيًّا، مفردًا هذه السيرة لِـــذَات بنسالم الإنسان المؤلف المفكّر، بعيدًا عنه وزيرًا للثقافة المغربية التي أفرد أخبارها في كتاب مستقل.

يعرّف بمؤلفاته التي كتبها، مبررًا اختياره لمواضيعها، مدافعًا عن آرائه اللغوية والفكرية، وخاتمًا الكتاب بفصل جمع فيه شيئا من سجالاته الفكرية كالتي مع أدونيس ويوسف زيدان، وكأنه يحاول إعفاء الآخرين من محاولة استنطاق مبرراته واختياراته الحياتية.

من أعجب تجاربه كيف أسس مجلة وعمل فيها زهاء سنيتن وهو لا يعلم مولها الحقيقي، ليكتشف بعد ذلك أنه أبرز رموز المقاومة المسلحة ومن كبار معارضي حكم الملك حسين في الخارج!

كان ممتنًا للرافدين الأساسين الذين شكّلا شخصيته: الرافد الفلسفي والرافد التاريخي، مما مكّنه من تسطير عدد من الكتب الفكرية، والكثير من الروايات التاريخية.

«أيام شبابي المتمرد، عرفت فترة لم أكن فكريًا أدين فيها إلا لعلمين، هما كارل ماركس وجان بول سارتر. تعلقت بأعمالهما إلى درجة برمجة بعضها في دروسي الأولى حول الماركسية والوجودية بكلية الآداب بالرباط، شعبة الفلسفة. ومن ثمرات شغفي بالأول أني أصدرت أواخر 1983 كتيبي البكر، عنوانه في (نقد الحاجة إلى ماركس)، ذهبت فيه إلى تحديد علاقة مثقفي العالم الثالث بماركس في سياق حاجتهم إلى استجلاء الآليات والتناقضات التي أنتجت في حاضر هذا العالم التأخر والتبعية. ورأيت وقتذاك أننا مع ماركس نكون أحسن تسلحًا لعرض وعكات تاريخنا وأزماته في وضح النهار المعرفي، وأيضا للإلمام علما بعناصر الانتكاس في تاريخنا الوسطوي. كما أن الآلية النظرية الماركسية، ونحن نختبر طاقتها ونفسها في تحليل تلك الحالات الخاصة، تصير جدلية محتاجة إلى تلقي ما يوحي به أو يفرضه الميدان من تغييرات وتكييفات في المفهوم والممارسة... أما سارتر فقد شغفت بمذهبه الوجودي الذي كان لأفكاره ومقولاته في نفسي وذهني وقع بليغ وتأثير نافذ؛ كما أني بفضله قويت علاقتي بالأدب وأسبغت عليها طابع الجد، وذلك بدءا من كتابه (ماذا يستطيع الأدب أن يفعل؟) إلى مسرحه وأعماله الروائية تتصدرها (الغثيان). وقد بلغ شغفي بسارتر حدًّا جعلني أتخذ نظارة تشبه نظارته المستديرة الشكل، كما أني قرأت أكثر من مرة سيرته الذاتية الانتقائية (الكلمات) ذات الفصلين «القراءة» و«الكتابة»، وظللت زمنًا مديدًا مأخوذًا بفلسفته الوجودية وتمظهراتها في أعماله الأدبية، كما بنظريته في الالتزام ومؤلفه (دفاعًا عن المثقفين) حيث يعرف المثقف بكونه هذا «الذي عليه واجب الوفاء لمجموعة سياسية واجتماعية، مع ممارسة حقه في انتقادها»، وأعقب عليه: إن

المثقف من يتدخل في ما لا يعنيه مع استيفاء شرط الخبرة والدراية. هذا علاوةً على أني كنت أمتح من نقده الصائب والصارم للطبقة البورجوازية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة، وذلك لصب جام غضبي على البورجوازية المغربية الاتجارية والريعية. ولا ريب عندي أن بعض أعمالي الروائية الأولى متضمنة لتأثر سارتريّ بيّن.

لقد أعقب تلك الفترة زمن عطفي على التراث العربي الإسلامي من بوابة إقبالي على قراءة أدب التصوف. وفسرت هذه النقلة بما لهذا الأدب من قرابةٍ وتماهٍ مع أهم التيارات الوجودية في تاريخ الفلسفة الغربية. وقد وجدت ضالتي المنشودة في فعل ثلاثي هو «جَهَدَ»، اشتق منه الجهد والاجتهاد والمجاهدة والجهاد، ووقفت عند آيات قرآنية مضيئة كثيرة، منها {والذين لا يجدون إلا جهدهم}،{والسابقون السابقون} {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} و{كل امرئ بما كسب رهينة}، ومن الأحاديث النبوية: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم»، وغير ذلك مما بيّن كـحدوس ولوامع أفضت بي إلى إدراك أن ما يقوم في كتب التراث إجمالًا على شكل قوالب وأنماط هو هذه الاجتهادات والنزوعات النظرية وهذه الممارسات الأساسية المتعارضة، والتي تحدده معالم الوجوه الرئيسة في الكتابات الإسلامية الكلاسيكية: رجل الفقه بين الاجتهاد في تطبيق حكم تعاليم الشريعة النصية وبين الاجتهاد في تطويع هذه التعاليم لضغوط السياسة والواقع؛ المتكلم بين الحديث والعروض النظرية وبين العنف ونظريات المعارضة وأخيرًا الصوفي بين التجرد والمجاهدة من جهة والطرقية والعيش الفطري الهامشي من جهة أخرى؛ أما الفيلسوف فإنه لا يتبدى بين هذه الوجوه إلا كمستقبل وباعث للرسائل الفلسفية اليونانية، وفلسفته إجمالًا لا تتسرب إلى المجال الذهني الإسلامي إلا كعامل غير مرغوب فيه. أما ثمرة اهتمامي ذاك فكانت أطروحتي (التشكلات الإيديولوجية في الإسلام الاجتهاد والتاريخ)، التي صدرت في كتاب قدم

لطبعته الفرنسية الراحلان ماكسيم رودنسون ومحمد عزيز الحبابي، وصدر في 1990 بالعربية مزيدًا ومنقحًا في ثلاث طبعات، آخرها في سنة 1993.

على ذكر رودنسون، أسجل أن هذا المستشرق الكبير، الماركسي التوجه، قد ربطتني به منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي علاقة متميزة، بدأت بالتتلمذ عليه كمشرف على أطروحتي تلك، تحولت إلى صداقة جيدة مثمرة. فكانت كل لقاءاتي تأتيني به بتعريف جاد حي لماهية التحصيل الموسوعي والبحث العلمي، كما كانت تؤكد لي بالتجسيد الصورة التي يلزم أن تكون للعالم الحق، وهي الأمانة العلمية وشيمة التواضع. وقد نخالف رودنسون الباحث في مناهجه أو بعض نتائج تحاليله (والاختلاف في العلم الإنساني مزية)، إلا أن ما قد نجمع على إدراكه عنده هو خصاله الإنسانية النبيلة وعمق كتاباته وصدق مواقفه، بما فيها موقفه العادل من القضية الفلسطينية. لم يمارس رودنسون الاستشراق بمعانيه التقليدية الضيقة وبربط أعماله بعلم كما هو الشأن مثلا عند ماسينيون مع الحلاج وبيلا مع الجاحظ وأرندیز مع ابن حزم، بل إنه مارس أساسًا أبحاثه على مواد علمية كان موضوعها لديه الشرق والبلاد الإسلامية على وجه الخصوص؛ كما أنه لم يهتم بالشرق من أجل اختزاله في معادلات أو جواهر قارة ومجردة، وكان هذا دأب المستشرقين المثاليين، بل قصد إلى تحليل الشرق ومعرفته ككتل من البلدان والشعوب والثقافات تقوم في التاريخ وتحيا فيه، وذلك بالمنهج المادي الجدلي الذي عمل رودنسون به على تأليف كتابيه الشهيرين (محمد) و(الإسلام والرأسمالية). وفيهما نرى نفس الاهتمام بالأشياء الملموسة ونفس الاجتهاد التنقيبي في جمع المادة والإحاطة بتفاصيلها، وفي الوفاء لكل شروط الموضوعية الممكنة. وقد تعلمت منه إعمال هذا المنهج على نحو يقظ منتج، كما كان أمري مع ابن خلدون الذي اشتغل بمقتضى مبدأ العلية و«المادة التي للشيء»، حسب تعبيره.

وتلت ذلك الكتاب مؤلفات أخرى منتسبة إلى الميدان نفسه، ومنها علاوة على مؤلفي الأخير في الإسلام الثقافي:

- الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ (1998) حيث رأيت أن الخلدونية، شأنها شأن كل الأعمال الفكرية الخصبة الثرية، ليست ملفًّا إداريًّا أو قضائيًّا يتطلب تصفية نهائية ويستدعي الكلمة الفصل وموقف الحسم. فالقراءات، كيفما تعددت وتنوعت، لا تتوفر فيها حقا شروط الجودة البحثية والعطاء الفكري إلا نادرًا. فكم من قراءة لا يمكن عدها كذلك لكونها عائبة المنطق أو قاصرة النظر والمنهج! وكم من قراءة تتخذ الخلدونية ذريعة تمارس بها وحولها شتى أنواع التهافتات والاسقاطات المفهومية، ذات الجعجعة ولا طحن! هذا فضلًا عن قراءات أخرى تتم في حالات من الغفلة والشرود، أو تكون مدرسية ومكتظة بالاجترارات والنسوخ. وفي آخر الأمر لا يتبقى من كثرة الدراسات الخلدونية التي يلزم على كل حال النظر فيها إلا قسط يسير يدل على براعة أصحابه في إعمال المقاربة المونوغرافية النافعة، أو على مهارتهم في التنظير الجيد والمعقول. وهذا القسط كيفما اتسع وانتعش، فإنه لا يزيد الموضوع إلا تأصيلًا وانفتاحًا، سيما وأن الخلدونية نفسها ليست سوى عنصر من المركب الذي يحيل إليه، وهو المركب الاجتماعي - الثقافي لفترة تاريخية زاخرة بالوقائع والدلالات الجسام، تعد بحق قطب الرحى في نشأة مغرب وإلى حدّ ما مشرق - ما قبل الاستعمار.

- العرب والاسلام في مرايا الاستشراق (ط. 2 في 2011) ذهبت في هذا المؤلف إلى أن أي علاقة مع تاريخ الاستشراق الآن دائم على منطق الصدام قد أصبحت غير ذات راهنية ولا أسبقية.

الحال ليس من المجدي أن نستمر في الرد على أطروحات المستشرقين «المغرضة»، كما سماها شيوخ ومثقفون مسلمون منذ منتصف القرن التاسع

عشر، أو في التصدي لرؤاهم الخاطئة عن طبيعة العرب وعقليتهم. إن الخروج من ذلك الموقف، كما زعمت، سيجدد تعاملنا مع الاستشراق، فيحصره في نطاقه النافع، أو يحوله إلى «موضوع» ندرس من خلاله تفكير واضعيه وأنماطه وصيغه. إن تضاؤل المد الاستشراقي في مجالات الدراسات التاريخية والتراثية العربية والإسلامية يزيد من شعورنا بجدية وخطورة المهام المعرفية الملقاة على كاهلنا اليوم، نحن الباحثين العرب. ذلك أن تهاوننا في الاضطلاع بهذه المهام بالأمس هو الذي ساهم في خلق شروط هيمنة الاستشراق نفسه لمدة عقود خلت. إن الغاية مما أوجزت أعلاه هو أن أبوح الآن بما ظل زمنا يخالج خاطري من أسئلة قلقة أبرزها: ألم يكن من الأجدى والأفيد لو أني أعرضت عن الأبحاث التي مثلت على بعضها، وذلك حتى أتفرغ للإيجاد الإبداعي شعرًا وروايةً وشذرات؟ لكن بعد أن فكرت في الأمر مليًّا، أدركت أن قلقي المشوب بشيء من الندم ليس له محل من الإعراب والصواب، إذ لولا عطفي على قطاعات من التراث العربي واشتغالي عليها لما كتبت رباعيتي الروائية التاريخية، ولما تيسر للغتي أن تتأثر بفنون القول العربية ومقدراتها، وبهذا صرت أجيب من كان يعيب عليّ تعدد مشاربي واهتماماتي في التحصيل والإنتاج. التعدد يكون صنو «التقدد» أو القددية حين يجمع بين عناصر متناثرة متنافرة، ويكون غير ذلك إذا أحسنا فيه عملية المجانسة والملاءمة، وتوخينا الخلق والابتكار. وهذا الخيار الثاني هو ما آليت على نفسي تقصده بوصلةً وقِبلة، فلم أجد غضاضةً ولا مانعًا في الاشتغال بالبحث التراثي والفلسفي، كما بالأدب عبر صنوفه المذكورة، فضلًا عن السياسة وكتابة السيناريو، وكلها أنشطة عملت ما قدرت على تحويلها إلى أوعية متواصلة أو أوتار متناغمة. وعلى أي حال فالأمور بخواتيمها ونتائجها، وللقارئ أمام إنتاج متنوع حرية اختيار ما يهمه ويبتغيه. إنتاج كان لي في إيجاده أئمة قدوات، منهم الجاحظ وطه حسين وچوته وسارتر وإيكو وغيرهم ممن حاولت ما

استطعت اقتفاء أثرهم وتمثل أعمالهم وتنوعهم الخلاق.

من بين النصوص التي زكّت انعطافي إلى ثقافة الإسلام، أكتفي بالإشارة إلى واحد لنيتشه في كتابه (الدجال)، وهو نص عجيب المأتى والمتن، يسكت عنه كل الأخصائيين في الدراسات النيتشوية ويطمرونه. ومما ورد في هذا النص الذي عرفت به وحللته في مؤلفي في الإسلام الثقافي هذه الفقرة: «لقد حرمتنا المسيحية من حصاد الثقافة القديمة، وبعد ذلك حرمتنا أيضًا من حصاد الثقافة الإسلامية. إن حضارة إسبانيا العربية، القريبة منا حقًّا، المتحدثة إلى حواسنا وذائقتنا أكثر من روما واليونان، قد كانت عرضة لدوس الأقدام (وأؤثر ألا أنظر في أيّ أقدام!) لماذا؟ لأن تلك الحضارة استمدت نورها من غرائز أرستقراطية، غرائز فحولية، ولأنها تقول نعم للحياة، إضافة إلى طرائق الرقة العذبة للحياة العربية... لقد حارب الصليبيون من بعد عالـمًا كان من الأحرى بهم أن ينحنوا أمامه في التراب...».

قصة نفس

زكي نجيب محمود

على لسان صديقه الأحدب يبدأ أستاذ الفلسفة زكي نجيب محمود بالحديث عن خلجات نفسه بعيدًا عن الأحداث الخارجية التي هي على مرأى ومسمع الناس، وإنما آثر الكلام عمّا استثارتها تلك الأحداث في دخيلة النفس؛ لأنها المحتاجة إلى بصيرة نافذة إلى العمق.

بعد أن عانى من واقعيته المبالغ فيها، والتشاؤم الذي ولّدته تلك الواقعية، يقول: «إن الذي ينقصك هو الخيال، ينقصك مثلٌ أعلى تعمل من أجله فيُنسيك مشاقّ الطريق».

رغم أن «اللحظات في حياة الإنسان ليست كلها سواء من حيث فعلها في توجيه الأحداث، فمنها ما يمضي ولا أثر له، ومنها ما يكون له بُعد الأثر وعمقه ما يظل يؤثر في مجرى الحياة إلى ختامها» لم يستحضر من ذكريات طفولته الكثير، سوى موقف محرج كان من النوع الثاني في لحظات الحياة السابق تقسيمها.

في عشرة فصول جاءت قصة نفس التي تعتبر الجزء الأول من سيرته، جاء بعدها قصة عقل وحصاد السنين.

قراءة الإجازة

«في مدرسة المعلمين العليا، لهي في الحق حياة لم تخل من ضنك وضيق، لكننا برغم ذلك لم نكن نحس مما نحن فيه إلا بالحيوية الدافقة إلى العبّ من ثقافة أيامنا عبًّا ليمتلئ الإناء! كنا نجمع كل ما كان يخرجه أعلام الفكر والأدب من كتب خلال العام الدراسي لنجعله زادنا في أثناء إجازة الصيف، على أن كل ما كانت تخرجه المطابع عندئذ خلال العام كله لم يكن ليجاوز أصابع اليدين، ولم تكن أثمان الكتب بحيث نعجز عن الشراء.

كان أحمد حسن الزيات قبيل ذلك الزمن بقليل، قد أخرج كتابيه المترجمين: «آلام فيرتر» لجيته، و «رفائيل» للامارتين، فكم مرة تظنني قد قرأت هذين الكتابين؟ لو قلت إنني قرأتهما على الأقل ثلاث مرات متوالية لما بالغت، لأن لغة الترجمة سحرتني إلى حد الفتنة! وإن لم تكن هي فتنة المسحور، فماذا تسمي هذا السلوك الآتي: أردت أن أكتب خطابا إلى أبي، وكان لم يزل في منصبه في حكومة السودان بالخرطوم، وكنت قد عدت من إجازة قصيرة قضيتها معه هناك، وكان طريق السفر تتخلله مرحلة بالسفينة البخارية فيما بين أسوان ووادي حلفا، وفي هذه المرحلة النهرية كان يحدث للسفينة أن تقف بركابها عند أبي سمبل، ليستطيع من أراد أن يزور ذلك المعبد القديم المنحوت في حجر الجبل. فلما أردت الكتابة إلى أبي بعد عودتي إلى القاهرة، أغرتني صفحات جميلة في «رفائيل» يتحدث فيها الكاتب عن معبد قديم، فانتحلتها لنفسي وكتبتها خطابا مستفيضًا لأبي، دون أن أذكر له شيئًا عن حقيقة ما كتبت، لأوهمه بأنني صاحب هذا الإبداع. ومن الفتنة نسيت أن أضع في الخطاب - لا في أوله ولا في آخره - التحية المألوفة في الخطابات التي يرسلها

ابن إلى أبيه، فأرسل إليّ يعاتبني على إهمال تحيته في الخطاب، ولم يذكر لي شيئًا عما ورد في الصفحات الطوال التي نسختها وبعثت بها إليه.

فُتنت بأسلوب الزيات يومها، فلا هو الأسلوب الذي يفوح بالقدم لما يرد فيه من لفظ غريب وسجع أغرب، ولا هو الأسلوب الذي يخلو من العناية باختيار اللفظ ويصقل العبارة صقلا يعطيك شيئا من التوازن بين أجزائها. نعم كانت كتب المنفلوطي هي الأخرى أمرًا يشبه أن يكون واجب الأداء، فليس قارئًا بين الشباب من لم يقرأ «العبرات» و«النظرات» للمنفلوطي، ولكن كان شائعًا بين هؤلاء الشباب من الكاتبين أن يستخدموا كثيرا من «لوازم» المنفلوطي في التعبير، ولست أقول إني نجوت من هذه العدوى، لكنني أقول إنني أضفت إلى ذلك ما لم يضفه كثيرون غيري، وهو الإعجاب بأسلوب الزيات إعجابًا تمنيت أن يكون له أثر عندي وصدى.

وكانت «للمطالعات» و«المراجعات» وغيرهما مما أخرجه العقاد في ذلك الحين أو قبله بقليل، أثر في عقولنا أكثر منه أثرا في قلوبنا أو في أسلوبنا! فعند العقاد وجدنا زادًا فكريًّا غزيرًا، لقطناه ووعيناه ورددناه في أحاديثنا إلى حد الإسراف، فمن ذلك مثلًا أننا حين عرفنا فكرة العقاد عن الجمال بأنه هو الحرية، بمعنى أن الشيء يكون جميلًا بمقدار ما يتغلب على القيود وينساب في حركة سهلة، كالنهر الجاري بالقياس إلى الماء الآسن، وكالبدن الراقص بالقياس إلى البدن الثقيل البطيء، وكالزهرة الطبيعية التي تشف عما يجري في أوراقها من عصارة الحياة بالقياس إلى زهرة شبيهة بها صنعت من ورق، وهكذا.. وهكذا. أقول إننا حين عرفنا فكرة العقاد هذه في إرجاعه صفة الجمال في الشيء إلى ما يكون في ذلك الشيء من حرية الحركة وعفوية الحياة، ملكت علينا عقولنا إلى الحد الذي جعلنا - أخي وأنا - حين ذهبنا في إجازة الصيف إلى الريف، واعتدنا الجلوس أمام دكان لبقال كان يرحب

بأمثالنا من طلبة العلم يجلسون للمناقشة أمام دكانه، يسمع منهم معجبا وهو صامت، إلا ذات مرة طرقنا نحن فيها فكرة العقاد في الجمال! ففي هذه الحالة لم يستطع البقال الريفي - كان على شيء يسير جدًّا من العلم الأزهري - أن يمسك لسانه بالصمت، فتدخّل في حديثنا ساخرًا من هذا الكلام الفارغ الذي نقوله أو يقوله العقاد عن الجمال! ثم زعم لنفسه المعرفة العملية - لا النظرية - بالموضوع، وهي عنده معرفة ترجح ألف مرة ما ينقله القارئون من الكتب. فهو - كما قال متحمسًا - متزوج من أربع زوجات، ولم يكن للعقاد زوجة واحدة، فمن حق أمثاله أن تكون لهم كلمة في طبيعة الجمال أكثر جدًّا مما يكون ذلك من حق رجل كالعقاد، أو من حق شباب مثلنا لم يكن لهم بدنيا النساء علم! قال ذلك جادا. فلئن كان الرجل عجيبًا في انعراجه بالحديث إلى ما لم نعنيه، فذلك مفهوم من رجل مثله لم يتسع أفقه لأمثال هذه الأفكار النظرية في علم الجمال، أقول إن كان هذا الرجل عجيبًا، فنحن كنا أعجب منه وأغرب، لأننا قابلنا جِدّه بجدّ مثله، وأخذنا بكل الحرارة المشتعلة ندافع أمامه عن فكرة العقاد تلك، بأن الجمال كائن في الحرية من القيود المعوقات مهما يكن نوع الشيء الجميل، ومهما تكن ضروب القيد والتعويق. وكان سلامة موسى داعيًا آخر من دواعي انشغالنا الفكري في تلك السنين، خصوصا حين نشر كتابه عن الحرية، وكتابه عن التطور. وسأقص عليك القصة الآتية: إنني حين قرأت كتاب «حرية الفكر» - وهذا هو عنوان الكتاب كاملا - وجدت فيه قصة الإمام ابن حنبل وما تعرض له من محنة يقشعر لها البدن لما فيها من قسوة فظيعة بالرجل، وجد أنه خالف رأي الخليفة المأمون في مسألة القرآن: أهو قديم أم حديث مخلوق؟ فالخليفة يريد للناس أن يقولوا عن القرآن إنه مخلوق، والإمام أحمد بن حنبل يصر على أنه قديم، فكان ما كان من تعذيب له حتى يغير رأيه، لكنه لم يغيره. لم أكن قبل ذلك سمعت بهذه المشكلة العربية، ولم أفهم شيئا من هذين

المصطلحين «مخلوق» و«قديم» بالنسبة للقرآن، فانتهزت فرصة في أول محاضرة في التاريخ الإسلامي - وكان هو مقررنا في التاريخ لذلك العام - وسألت الأستاذ المحاضر عن المشكلة وما أصلها وفصلها؟ وكان الأستاذ قد عاد لتوه من بعثته بإنجلترا، وكنا قد لاحظنا عليه نواحي كثيرة من ضعف الشخصية ومن الخصائص التي تبعث على الاستخفاف به والسخرية منه، حتى لسرعان ما أصبحت نوادره حديث مجالسنا، لكن لم يكن لأي شيء من ذلك دخل في جدية سؤالي، وفي جدية المأخذ الذي توقعت أن أجاب به، فما كان أشد دهشتي حين ثار الأستاذ ثورة صبيانية، وأمرني بالخروج من قاعة الدرس! وبينما كنا نتجادل في عنف دق الجرس، فأسرعت لأشكو إلى العميد هذا التصرف من الأستاذ، وخصوصا وقد قضى بحرماني من حضور محاضراته إلى آخر العام، فلكم دهشت مرة أخرى حين رأيت الأستاذ يجري جريا في فناء المدرسة ليصل إلى غرفة العميد قبل أن أصلها، ودخل هو وأمرت أنا بالانتظار، حتى إذا ما خرج سُمح لي بالدخول، ولم أبدأ الحديث إلا وقد تلقيت اللعنات والشتائم، والأمر بألا أحضر محاضرات التاريخ الإسلامي إلى أن يأذن لي الأستاذ بذلك!

وأما طه حسين فقد كان هو الذي ملأ خيالي في تلك الأعوام. ليست المسألة هنا متعلقة بالمادة المكتوبة نفسها، وإلا فلست أظن أن طه حسين بما كان ينشره عندئذ أغزر فكرًا من سواه. لا، بل ربما العقاد أو سلامة موسى أو الدكتور محمد حسين هيكل أوفر محصولًا من محصوله، لكن المسألة متوقفة على الروح التي يبثها في النفوس، ولذلك فقد كان طه حسين دون هؤلاء جميعا هو الذي انشقت له جماعة المثقفين معسكرين: معسكر معه يؤيده ويسانده ومعسكر ضده يعارضه ويحاربه. ولقد كنت بغير شك من المؤيدين المساندين. إنك تظلم طه حسين لو وزنت مقداره بوفرة المحصول

الفكري الذي قدمه للناس في كتبه، لأنه استمد معظم قيمته من قدرته على تغيير الاتجاه، إنه لم يكتب ما كتبه لمجرد الرغبة في الكتابة أو الرغبة في اكتساب الرزق، بل ولا مجرد عرض الأفكار المنقولة أو المبتكرة، وإنما كان يكتب ليغير وجه الثقافة في الأمة العربية، ومن ثم جاءت خطورته. إنه لم يتحرج ذات يوم أن يقول عن مراكز التقليد الثقافي في مصر، التي كانت عقبة كأداء في سبيل التغيير المطلوب، أقول إنه لم يتحرج ذات يوم من أن يعلن في الناس عنها، إنه لا بد من هدم قرطاجنة ليستقيم لنا السير. لست أمدح نفسي ولا أذمها حين أصفها أمينًا فأقول: إن لديها استعدادًا قويًا - لا بد أن تكون له جذوره البعيدة في طفولة لم تجد فرصتها في نمو حر طليق - استعدادًا قويًا لتلقف كل فكرة تراها مؤدية إلى تقويض ما هو شائع مقبول، لتقيم مكانه جديدًا مأمولًا. إنني لأتصيد الأفكار التي يثور بها أصحابها على التقاليد المستقرة الراسخة تصيدًا، وأخرج كلما وقعت منها على شيء يغذي هذا الميل في نفسي، فلو كان مجموع الناس على اتفاق بأن الشيء الفلاني صحيح، ثم ظهر كاتب يقول إنه خطأ، لم أجد في نفسي رادعا يصدني عن تأييد هذا الكاتب الخارج على الإجماع! فأنا أؤيد خروجه أولًا، ثم أنظر بعد ذلك في صدق حجته، ولكي أنصف نفسي لا بد أن أضيف أن هذه الرغبة القوية في تأييد الخارج على التقليد الشائع، إنما هي رغبة في التحطيم حين يكون البناء المراد تحطيمه قد أكله البلى ولم يعد صالحًا إلا للعناكب تعشش في سقوفه وجدرانه، وللعفن يسري في أجوائه فيزكم الأنوف.

وبعد تلك السنوات الأربع التي أضع معالمها الآن علي أن أقول إني كتبت بعدها بأكثر من ربع قرن، في مقدمة كتابي عن «برتراند رسل»، أقول إنني وإن لم أكن تابعًا كل التبعية لبرتراند وما في فلسفته ولا رافضًا كل الرفض لها، فإنني مع ذلك أشعر برباط بينه وبيني، وهو الدفاع الحار الذي ينهض

به رسل في سبيل حرية الفرد من كل طغيان: طغيان التقاليد الاجتماعية وطغيان الحكومات؛ فإني لأوشك أن أرى الدق كل الدق في دعوى «رسل» بأن النظم الاجتماعية والسياسية كلها في أرجاء العالم أجمع وعلى اختلاف العصور مؤامرة كبرى يراد بها الحد من حرية الفرد التي كان ينبغي أن تكون هي الأساس وهي المدار لكل نظام في اجتماع أو سياسة، وإن شئت فانظر في أي بلد من بلاد العالم إلى ما يسمونه «التربية» تجدها تسابقًا من الهيئات ذوات السلطان للاستيلاء على عقل الناشئ ومشاعره! واستمع إلى رجال «التربية» يسألون: ما الغاية من التربية؟ ثم يجيبون: هي إنتاج «المواطن الصالح»، وصلاحية المواطن هي دائما - كما ينبهنا «رسل» - الموافقة على النظم القائمة. ويستحيل عندهم أن يكون معنى «الصلاحية» هو الثورة على تلك النظم. وإنه لمن عجب - كما يقول «رسل» - أنه بينما تستهدف الحكومات جميعًا إخراج رجال من طراز يؤيد الأنظمة القائمة، ترى أبطالها من رجال الماضي هم على وجه الدقة رجال من الطراز نفسه الذي تحاول الحكومات أن تمنع ظهوره في الحاضر.

وكذلك بيني وبين برتراند رسل رباط آخر يقربه من نفسي، هو تلك الفرحة الكبيرة التي يفرحها كلما استطاع إقامة البرهان على خطأ اعتقاد كان يظنه الناس بدهية لا تحتمل الشك والجدل. وربما قيل إن مثل هذه النزعة انقلابية هدامة خطيرة، وإن صاحبها يكون في شخصيته شبيها بـ «مفستوفوليس» شيطان فاوست، لكني أراها برغم ذلك ضرورية لتمهيد الطريق نحو تغير الأوضاع الاجتماعية والأفكار والمعتقدات التي قد تتحجر على مر الزمن، فيظن الناس أن صلابتها تلك هي صلابة الصواب واستحالة الخطأ. إن أصحاب هذه النزعة هم دائما بمثابة الفدائيين الذين يتسللون إلى حصون العدو فيمهدون الطريق إلى دكها وتخريبها، والفرض هنا - بالطبع - هو أن ما يراد دكه وتخريبه ومحوه، بناء فاسد يستوجب التغيير والإصلاح.

وهكذا كان طه حسين فيما كتب يومئذ، وهكذا كنت حين تابعته بقلبي وعقلي معًا».

***

«وكانت دار الكتب في القاهرة مزارًا أتردد عليه مرارًا متلاحقة منذ أيام الدراسة، فازدادت جاذبية بوجود صديقي بين العاملين فيها. ولقد كان ييسر لي ما كان عسيرًا، فهنالك من الكتب ما لا يعار إما لنفاسته وإما لخساسته، فكان يهيئ لي ما كنت أريده من الصنفين! وقد تفهم ألا يعار الكتاب لنفاسته خوفا عليه من الضياع، ولكن ما هي تلك الكتب التي تخس فلا تعار؟ أأقولها؟ نعم قلها، فهي «نفس» وأنت في رواية لقصتها فما خفي من سرها قد يكون أهم مما ظهر من علنها، فهنالك كتب من أفحش الكتب عن الجنس، عرفها صديقي وعرفني بها وأعانني على استعارتها خفية لأنقل مادتها كما أريد، ولم يكن هنالك ما يمنع أن هذا الذي يستعير الفحش سرًّا، هو نفسه الذي يستعير كتب أفلاطون أو أرسطو علنًا، وياما أكثر ما تحويه النفس البشرية من عجائب ومتناقضات!».

***

تلوّن القارئ

«أقول إني لم أدهش حين علمت فيما بعد بما كان يضطرم به صدر الأحدب في تلك الفترة نفسها من ضيق بالمعروف المألوف وتشوّف إلى ما هو ذاتي أصيل، فرأيت له مقالة وكأنه كتبها ليعارض يقول فيها شيئا كهذا:

لقد قرأت في صدر شبابي كل ما أنت به اليوم معجب مفتون واجتزت

عهدًا أراك تجتاز مثله الآن، عانيت فيه ما عانيت من كرب وضيق، وكم قرأت وقرأت، فكنت أتلون بما أقرأ كأني حشرة حقيرة تدب على ظهر الأرض وتسعى، فتصفر إن كانت تحبو فوق الرمال، وتخضر إن كانت تزحف فوق الحقول.

كنت أقرأ للشكاك فأشك، ثم أقرأ للمؤمنين فأؤمن. هذا كتاب متشائم أطالعه فإذا أنا الساخط الناقم على حياتي ودنياي، وذلك كتاب متفائل أطالعه فإذا أنا الباش المرح الطروب. لكن أراد الله بي الخير فأفقت إلى نفسي فوجدتها مضطربة هائمة تعصف بها الريح هنا وهناك، وهي في كل ذلك تعاني من القلق والهم ما تعاني. وضرب الأحدب في مقالته تلك الأمثلة: ضرب مثلًا بالإمام الغزالي الذي قرأ ما قاله الحكماء الفلاسفة، فلم يكن له منها سوى أن ارتجت نفسه ارتجاجًا عنيفًا، وأخذه الشك من كل جوانبه، حتى نالت منه العلل بما نالت، لم يشفه منها إلا أن يستمع إلى وحي نفسه، وضرب مثلا بتولستوي الذي غاص في أغوار الفكر ما غاص، وانتهى به الأمر إلى اضطراب وحيرة، فما كان منه إلا أن يفرغ مكتبته من كل ما فيها على أنه أباطيل. لقد قرأ تولستوي للفلاسفة الأعلام جميعًا: قرأ لأفلاطون وكانت وشوبنهور وباسكال، لكنه تبين أن آراء هؤلاء الحكماء إنما تكون واضحة دقيقة حينما تبعد عن مشاكل الحياة المباشرة، ولكنها في ميدان هذه الحياة لا تهدي الحائر سواء السبيل».

ماذا علمتني الحياة؟
جلال أمين

يحوّل جلال أمين سيرته الذاتية إلى أداة سبر للمجتمع الذي نشأ فيه بفكر عميق وقلم شديد السلاسة، فإذا به يقارن بين ظروف نشأته وظروف نشأة والده ومن ثم أولاده وأحفاده، إلى ظواهرها وأصولها العامة فيربط الخاص بالعام ويتحول الفرد إلى مرآة عاكسة لمجتمعه، ويتحول كتاب السيرة الذاتية إلى كتاب يتناول حياة أجيال بكاملها. يتناول الكتاب بعض التفاصيل الشخصية ولكن بهذا الربط الحيوي والذكي مع الأسباب العامة فعندما يتحدث عن إخوته الثمانية والاختلاف في شخصية كل منهم رغم نشوئهم في بيئة واحدة يكاد يرسم بورتريه لكل منهم بطريقة شديدة الذكاء والصراحة أيضا.. ويتناول طبعًا تحوله الفكري العميق والهادئ من القومية في بواكير شبابه إلى الاشتراكية إلى المادية الوضعية إلى أن وصل إلى مرحلته الأخيرة في نظرته المتعاطفة مع الدين عموما والإسلام خصوصا، دون الالتزام بتعاليمه. بعد أن كتب سيرته رأى أن ما كتبه يمكن أن يكون جوابا لسؤال ماذا علمتني الحياة؟ حيث قدّم الإجابة بهذه الطريقة العبقرية التي تجعل القارئ يستعيد حياته الخاصة ويحاول ربطها بالإطار العام الذي يعيش فيه، ومن أجمل ما كتبه المؤلف حديثه عن الجيل الرابع من أسرته أولاد الأحفاد: «أتساءل ماذا سيكون شعور أبي لو علم أن واحدًا من أحفاده سيكسب رزقه من الغناء بالإنكليزية أغاني تروج لصابون أمريكي مشهور في واحدة من القنوات العربية؟!».

مباهج الصبا

«ما أجمل الكتب التي قرأتها بين سِنيّ العاشرة والعشرين. كانت هذه هي السنوات العشر التالية للحرب العالمية (45 - 1955).وعندما أسترجع في ذهني ما كنت أقرؤه في تلك الفترة لا تدهشني كميته بقدر ما تدهشني جودته. وأتساءل بأسف: كم هو صعب في أيامنا الحالية أن يصادف صبي في مثل هذه السن، لا في مصر وحدها بل وفي غيرها أيضا، هذه الفرصة الرائعة التي أتيحت لي منذ خمسين عاما. كان الفضل الأكبر في هذا يعود بلا شك إلى طبيعة البيت الذي نشأت فيه. كان أبي يتلقى سيلًا لا ينقطع من الكتب المهداة إليه من مختلف الأنواع. وكان بعضها من قصص الأطفال التي كتبها بعض أصدقائه أو تلاميذه، فكان يلقي إلينا بهذه الكتب لنقرأ منها ما نشاء دون أي توجيه منه أو متابعة لما نقرأ. هكذا قرأت في سنواتي الأولى كتب كامل كيلاني ذات الطباعة الأنيقة والصور الملونة، وما كان يؤلفه أو يترجمه أحمد عطية الإبراشي وجودة السحار. لا تزال منطبعة في ذهني حتى الآن صورة الحصان المسحور ذي الجناحين التي كانت مرسومة على غلاف قصة مفضلة لي، والتي لابد أني كنت أطيل النظر إليها لشدة التصاقها بذاكرتي، وقصة العرندس الذي ابتلع سمكة فاستقرت في حلقه. لعلني قرأت كل قصص كامل كيلاني الذي يدين له جيل بأكمله من المصريين بإجادة العربية، وبخيال أكثر اتساعًا، وبطفولة أكثر سعادة أو أقل بؤسًا.

من الأمثلة القليلة التي لا أزال أتذكرها مما قرأته في طفولتي وصباي، يُلفت نظري كم كان المرء مستعدًّا في تلك السن لأن يضرب الصفح عن أي أحداث غريبة وغير معقولة في مقابل أن يحصل على الحد الأقصى من الإثارة.

فالبساط السحري الذي يحمل بطل القصة من مكان إلى مكان، أو مصباح علاء الدين الذي يجلب لصاحبه أي شيء يريده، بمجرد أن يحك المصباح بيده، أو جنية البحر التي تقودك إلى ما في قاع المحيط من لآلئ، وكنوز، أو عبارة «افتح يا سمسم» المدهشة التي تتيح لك الاغتراف كما تشاء من كهف علي بابا.. إلخ، كل هذا يقبل دون تساؤل، ويستمتع المرء بقراءته المرة بعد المرة وبرؤية صوره، التي قد تكون مرسومةً رسمًا بدائيًا للغاية، بل ورسمًا سيئًا، دون أن يبالي قط بمدى الواقعية أو الغرابة. كم كان يجذبنا في تلك السن أي قصة تدور حول الملك والوزير، والملكة أو الأميرة ذات الحسن والجمال، وكم كنا نصدق ما تفعله الصبية الجميلة، البيضاء كالثلج، مع الأقزام السبعة، وتلك الصبية الجميلة الأخرى التي ذهبت لزيارة جدتها فوجدت الذئب قد التهمها، وتخفّى في صورة الجدة بمنتهى السهولة، أي بمجرد أن وضع على رأسه غطاء رأسها وعلى عينيه نظارتها، فلم تستطع الصبية أن تميز بين الذئب والجدة. كل هذا يقبل بصدر رحب في سبيل أن نصل إلى نهاية سعيدة للقصة.

ثم انتقلت كبقية جيلي إلى قراءة محمود تيمور وتوفيق الحكيم وطه حسين والمازني والمنفلوطي، والروايات أو المسرحيات المترجمة ترجمة بديعة التي كانت تنشرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار المعارف وغيرهما لجوته وبرنارد شو وتوماس هاردي وأندريه جيد، وبعض مسرحيات سوفوكليس.. إلخ، قبل أن نصل في مطلع الشباب إلى نجيب محفوظ. أثرت في نفسي بوجه خاص، في تلك الفترة، رواية جوته «آلام فيرتر» التي ترجمها الزيات، والروايات الفرنسية الشهيرة التي اقتبسها المنفلوطي، ورواية «سلوى في مهب الريح» لتيمور، وأعجبت بشدة بكتاب «زهرة العمر» للحكيم، وهو كتاب يصف فترة إقامته في باريس في بداية شبابه متلهفًا على تثقيف نفسه من ناحية، ومعبرًا عن افتتانه الشديد بمختلف مظاهر التقدم الفني والأدبي في أوروبا. وجد هذا

الكتاب صدىً قويًّا لديّ، وأنا في تلك السن المبكرة. ولكن عندما وقعت يدي من جديد على نسخة من هذا الكتاب وقد تجاوزت الستين، وقرأته مرة أخرى، لم يترك لدي أي أثر من الإعجاب والتقدير القديمين، بل تعجبت كيف ظفر هذا الكتاب بإعجابي وإعجاب كثيرين في أي وقت من الأوقات. كان فيما يبدو ليس أكثر من تعبير عن زفرات وطموحات شاب وجد صدى لدى صبي مراهق له طموحات مماثلة. كذلك فتنت لفترة قصيرة في تلك الأيام بأسلوب طه حسين، ولكن لم تمض سنوات كثيرة قبل أن أجده مملًا ومصطنعًا. كنت في تلك السن أصغر من أن أقدر كتب العقاد حق قدرها أو مقالات وكتب النقد الأدبي للويس عوض أو مندور أو أنور المعداوي، فكان أسلوب العقاد سرعان ما يصيبني بالإعياء فيما عدا قصة سارة التي أحببتها، ولم يلفت نظري أحد في ذلك الوقت إلى سلامة موسى الذي كان يكتب على أي حال في موضوعات لم تكن تثير اهتمامًا لدي في تلك السن.

كان يغيظني من أخي حسين، الذي يكبرني بعامين ونصف، أنه كان دائمًا يتكلم عن «مثله الأعلى» الذي كان نابليون مرة وتولستوي مرة، ويسألني باستمرار عمن يكون مثلي الأعلى دون أن أكون حصلت على واحد بعد. فبحثت بسرعة عن مثل أعلى لا يقل قيمة عن مثله العليا، وإذ وقع بيدي كتاب عن فولتير، قرأته بسرعة ووجدت الرجل مناسبًا تمامًا فأعلنت لأخي حسين أن فولتير هو مثلي الأعلى، وكتبت عنه مقالًا كان لدى أبي الجرأة الكافية لنشره في مجلة الثقافة التي كان يرأس تحريرها، تشجيعًا لي على القراءة والكتابة. وربما كان هذا أول مقال نشر لي على الإطلاق. مع ازدياد شهرة نجيب محفوظ أخذت أقرأ له، ولكني لا أظن أني تحمست له مثل حماسي لبعض كتب الحكيم وطه حسين، باستثناء ثلاثيته، وعلى الأخص (بين القصرين)، إذ كنت دائمًا أفتقد فيه الفكرة الفلسفية أو الاجتماعية، أو هكذا كنت أظن

وقتها، ولا أذكر أنني كنت أطيل التفكير لدى انتهائي من قراءة رواية له. ولهذا لا أظن أني خرجت من كتب نجيب محفوظ بغير المتعة. على العكس من ذلك فتنت بقصص يوسف إدريس في الخمسينات، واشتعل حماسي وأنا أشاهد مسرحيتيه ملك القطن وجمهورية فرحات، وظللت حريصًا على قراءة ما ينشره، بما في ذلك مقالاته السياسية في الصحف.

كان لي أيضا بعض الشغف بالفلسفة، حتى في تلك السن المبكرة، فكنت قادرًا على الصبر على كتبها بل والاستمتاع ببعضها، لاهتمام حقيقي لديّ بالعثور على إجابات عن بعض أسئلتها. أذكر أني في الخامسة عشرة أعجبت بديكارت، بفضل كتب الدكتور عثمان أمين، وكتبت عنه مقالًا لا بأس به بعنوان «أدلة ديكارت على وجود الله»، ونشره لي أبي في مجلة الثقافة قبل أن أدخل الجامعة، كما نشرت نفس المجلة، في نفس الفترة، بعض المقالات الحمقاء بعنوان «نظرات فلسفية».

ثم بدأت مرحلة جديدة عندما بدأت أقرأ كتبًا في الأدب باللغة الإنجليزية. كان أول كتاب أقرأه بالإنجليزية، عدا ما كان مقررًا علينا في المدرسة، قصة طويلة للكاتب الأمريكي ذي الأصل الأرمني: وليام سارويان، أعارها لي زميل في المدرسة ممتدحًا إياها بشدة. لابد أن قراءتي لها قد استغرقت وقتًا طويلًا، إذ لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة، وكانت معرفتي بالإنجليزية محدودة. ولكني أذكر أني طرت بها فرحًا وكأني قد دخلت عالمًا لم أكن أعرف بوجوده من قبل. وتحمست لكاتبها تحمسًا شديدًا ورحت أبحث عن كتبه في مكتبات شارعي عماد الدين وعبد الخالق ثروت فوجدت له أربعة أو خمسة كتب أخرى، تضم روايات أو قصص قصيرة. وزاد إعجابي به وحماسي له، إذ لم أكن قادرًا وقتها على مقارنته بغيره، ومن ثم خدعتني بساطته وخفة دمه وما بدا فيه من مشاعر إنسانية. كان إعجابي بأول رواية قرأتها له «الكوميديا

الإنسانية» قد وصل إلى حد أني ترجمت أحد فصولها ونشرته لي أيضًا بمجلة الثقافة، ووصلتني عنه مكافأة قدرها جنيه واحد.

ثم نسيت سارويان نسيانًا تامًّا، وضاعت كتبه مع ما ضاع بسبب سفري في البعثة إلى إنجلترا، والغريب أني لم أحاول أثناء وجودي في إنجلترا أن أبحث عن أي كتاب آخر له، بل لا أظن أني تذكرته أو سمعت اسمه طوال إقامتي هناك. ومرت السنوات حتى تصادف، عندما زرت الولايات المتحدة وأنا في الخمسين من عمري، أن وجدت كتابًا صغيرًا له في إحدى المكتبات يضم بعض ذكرياته.

ففرحت بعثوري على صديقي القديم بعد فراق 35 عاما، ولكن خاب أملي خيبة عظيمة. لم أجد فيه، وأنا أقرأه في سن الخمسين، أي سمة من سمات العبقرية التي كنت أظنها فيه عندما كنت في الخامسة عشرة، ومع ذلك فقد صادفت بعض الفقرات القليلة التي ذكرتني بمتعتي القديمة به. ففي روايته لذكرياته وهو طفل، ووصف وصفًا شائقًا عملية الاستحمام التي كان يتعرض لها على يد جدته، وراعني الشبه الشديد بين ما كانت تفعله به جدته في أرمينيا، وما كانت تفعله أمي أثناء استحمامي وقيامها بتنظيف جسمي، كجلوسها على كرسي الحمام الخشبي الصغير صنع خصيصًا لهذا الغرض، وغلي الماء في صفيحة موضوعة على وابور جاز، وملء كوز بالماء البالغ السخونة ثم صبه على جسمي الصغير دون أن تقبل أمي أن تصدق صياحي وشكواي من شدة السخونة ودخول الصابون في عيني، وهريْ جسمي باللوفة حتى يحمر الجلد من شدة الحك، ورفض أمي أن تعتبر أن الاستحمام قد تم حتى تسمع صياحي وترى حمرة جلدي.

بحثت عن كتب أخرى له على أمل أن أجد ما يعيد إليّ إعجابي القديم به، فوجدت كتابًا له نشر في 1961، ويحتوي على سيرته الذاتية، فقرأته في

محاولة لاكتشاف حقيقة الرجل، وربما أيضًا لاكتشاف سبب إعجابي المبكر به، فخاب أملي مرة أخرى إذ كان من الواضح أن الرجل كان قد أصابه الهرم وهو يكتب هذا الكتاب، ففقد حتى ظرفه القديم. لفت نظري في الكتاب أنه وإن كان لا يكف عن ذكر ابنه (آرام) وابنته (لوسي) وأهله الأرمن الذين هاجروا إلى أمريكا، ويفيض بالتعبير عن الحب لهم جميعا، لا يذكر أي شيء عن زوجته، التي يوحي الكتاب بأن أمرها انتهى بالطلاق. ثم وجدت في نفس المكتبة كتابًا آخر عن ساروبان، كتبه ابنه آرام، فشاقني بشدة أن أعرف قصة الرجل بالتفصيل، خاصة إذا كان الراوي هو هذا الابن المحبوب الذي كتب عنه الأب بكل هذا الحنان وسمى أحد كتبه باسمه. فإذا بي أجد كتاب الابن لا يحتوي إلا على ذم مستمر للأب، وكأن الرجل ليس له حسنة واحدة تستحق الذكر. بل إنه حتى عندما يأتي إلى ذكر منحه جائزة بوليتزر، وهي أعلى جائزة أدبية في أمريكا، ورفض ساروبان للجائزة قائلا: «إن المال لا يجب أن تكون له صلة بالأدب»، حتى هذا فسّره الابن بحب ساروبان للشهرة.

كان من الواضح أن الابن لم يكتب هذا الكتاب إلا في محاولة مستميتة للدفاع عن أمه، وإلقاء الذنب كله على أبيه الذي ينعته بالأنانية المفرطة والقسوة وما يشبه الجنون. والذي يفهم من الكتاب أن الأم كتمت عن زوجها أنها طفلة غير شرعية وأنها يهودية حتى انقضت عدة سنوات على زواجهما، وذلك خوفًا من أن يهجرها إذا عرف الحقيقة. وقد طلقها الرجل بالفعل عندما أخبرته بالحقيقة، إذ لم يتصور أن تكون لديها هذه القدرة على كتمان مثل هذا عنه، واستمرارها في الكذب طوال تلك السنوات. على أن إقبالي على قراءة كتب الأدب بالإنجليزية حدث أساسًا بفضل أخي حسين، فعن طريقه تعرفت على الأدب الروسي فانفتح أمامي فجأة عالم جديد تماما. كانت روايات دستويفسكي وتولوستوي وتورجنيف من نوع يختلف عن

أي شيء قرأته من قبل، وكانت قصص ومسرحيات تشيكوف على الأخص هي التي استولت على قلبي. ولا زلت لا أمل من رؤية بستان الكرز أو الشقيقات الثلاث أو الخال فانيا على المسرح، المرة بعد الأخرى. فإذا حللت بلندن وكانت تعرض مسرحية من مسرحيات تشيكوف كانت هي ما أختار رؤيته مهما كان عدد مشاهداتي لها من قبل. عرفني حسين أيضا على سارتر وأندريه جيد وكامي، وعلى ستيفان زفايج وإبسن وآرثر ميلر، حتى إنني عندما تركت مصر إلى إنجلترا في1908، كانت قراءتي بالإنجليزية تكاد تقارب قراءتي بالعربية في السهولة، وإن لم تقاربها حتى الآن في السرعة. لا أستطيع أن أفخر بمعرفة واسعة بالشعر والشعراء، في أي لغة، بما في ذلك اللغة العربية، كما أني لا أحفظ منه إلا أقل القليل. بهرتني أحيانًا بعض عبارات شكسبير ولكن يصعب عليّ أن أعثر على مثال لشاعر أوروبي آخر أثار حماسي، بل ولا أستطيع أن أزعم هذا حتى عن شكسبير، وقليلون جدًّا من الشعراء العرب من جلبت لي القراءة لهم متعة زائدة، فيما عدا المتنبي الذي أدين بحبي له للصدفة البحتة. ففي آخر سنوات دراستي الثانوية كانت وزارة المعارف تسمح للتلاميذ بدخول مسابقة في الأدب العربي يتغير موضوعها سنويًّا، وتتطلب ممن يشترك فيها قراءة مجموعة من الكتب في موضوع واحد، ويمتحن فيها تحريرًا ثم شفويًّا من كبار أساتذة الأدب في مصر. وكانت الجائزة فيما أذكر ثلاثين جنيهًا. وكان موضوع المسابقة في المتنبي والشاعر الأندلسي ابن زيدون، فكان علينا أن نقرأ شعر المتنبي ونحفظ بعضه وندرس حياته، بما في ذلك كتابان كتبهما الشاعر علي الجارم. والتحقت بالمسابقة وقرأت فيما قرأت عن المتنبي كتاب طه حسين عنه، والكتاب الصغير الرائع الذي كتبه محمود شاكر، واستطعت أن أعرف قدر هذا وتفوقه على كتاب طه حسين، وأنا في تلك السن الصغيرة، ولم أكن أعرف وقتها أن الأستاذ شاكر كان قد اتهم طه حسين بالسطو على بعض أفكاره عن المتنبي. المهم أني فتنت وقتها

بالمتنبي ولا أزال حتى الآن أفضله على غيره، وألفت عنه مسرحية كاملة بالاشتراك مع زميل لي، لا أعثر لها الآن على أثر. حصلت على الجائزة إذ كنت الأول في المسابقة، رغم أني حصلت على درجة منخفضة نسبيا في امتحان اللغة العربية في السنة التوجيهية (الثانوية العامة)، وكانت درجتها تضاف إلى درجة مسابقة المتنبي. كما حصلت على جائزة أكبر منها، هي خمسون جنيها، لكوني أول الثانوية العامة في القسم الأدبي في القطر المصري، ونشر اسمي في الجرائد وأذيع في آخر نشرة الأخبار بالإذاعة، رغم أني كنت أخشى الرسوب بسبب خروجي عن الموضوع المطلوب في سؤال الإنشاء في امتحان اللغة العربية. حدث أيضا عندما كنت طالبًا في المدرسة الثانوية، في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، أن جاء يوما زميل إلى المدرسة وهو يحمل كتابًا صغيرًا، لا يزيد حجمه على حجم الكف، يتضمن شعرًا بالإنجليزية للشاعر الهندي الشهير طاغور. اسم الكتاب «البستاني»، وقال لي إنه معجب جدًّا بهذه الأشعار وأعار الكتاب لي. وبالفعل وجدت الشعر رائعًا، وبدأ اسم طاغور يصبح محببا إلى نفسي، ترجمت له وأنا في الخامسة عشرة أو نحوها بعض أشعاره، ونشرت أيضا في مجلة الثقافة، ثم اقتنيت مجموعة أشعاره في مجلد واحد لا أزال أعتبره من الكتب المحببة إلي. وبعد سنوات كثيرة شاهدت له في التلفزيون الإنجليزي فيلمًا مأخوذًا عن روايته «البيت والعالم» فراعني، ليس فقط جمالها وحكمتها، بل وما تلقيه من ضوء وما تثيره من فكر، وهي المسرحية المكتوبة منذ ما يقرب من مائة عام، عما يحدث الآن من تعصب وتطرف في بلادنا وخارجها، وفي الصراع الخالد بين الوافد والموروث. كان الفيلم من إخراج ذلك المخرج الهندي الشهير أيضا، والذي أصبح بدوره من المحببين إلي، ساتياجيت راي، فأصبحت أتلقف أي خبر يتعلق بطاغور أو بساتياجيت راي بشغف وأقرأ باهتمام أي خبر أو مقال يتعلق بهما. لا عجب أن أقبلت بلهفة على قراءة مقال وجدته في صحيفة بريطانية كتبه

المخرج راي بمناسبة ذكرى طاغور. وفيه إشارة إلى الواقعة المؤثرة الآتية التي حدثت له وهو طفل في الثامنة من عمره. قال راي إنه نشأ في نفس البلدة من بلاد البنجال بالهند، التي عاش فيها طاغور. وكانت أم راي تزور طاغور أحيانًا فكان يسألها عن تعليم ابنها وتطوره العقلي. وفي أحد الأيام جاءته الأم مصطحبة ابنها ساتياجيت وطلبت من طاغور أن يدعو لابنها ويباركه، فقام طاغور وأحضر قلمًا وورقةً وكتب عليها مقطوعة شعرية قصيرة من تأليفه، وطواها وأعطاها للأم قائلًا: «احتفظي بهذه القصيدة القصيرة لابنك حتى يكبر. إنه لن يفهمها الآن، ولكنه سيفهمها بكل تأكيد عندما يكبر». وكانت القطعة التي كتبها طاغور: «لقد أنفقت ثروة طائلة في السفر إلى شواطئ بعيدة، فرأيت جبالا شاهقة ومحيطات لا يحدها حد. ولكني لم أجد متسعًا من الوقت لأن أخطو بضع خطوات قليلة خارج منزلي، لأنظر إلى قطرة واحدة من الندى، على ورقة واحدة من أوراق العشب».

وقعت يدي على مفكرة صغيرة لسنة 1951 وجدت أني دونت فيها، يومًا بيوم، من أول السنة إلى آخرها، ما فعلته خلال اليوم باختصار شديد، بما في ذلك ذكر أسماء الكتب التي كنت أقرأ فيها والأفلام والمسرحيات التي شاهدتها. كانت هي سنة امتحانات الثانوية العامة (التي كانت تسمى حينئذ بالتوجيهية)، ودخلت خلالها أيضًا مسابقة الأدب العربي التي ذكرتها حالًا والتي عقد امتحانها في فبراير 1901، وكانت الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة هي أول شهور لي في كلية الحقوق. ومع ذلك وجدت أني خلال اثني عشر شهرًا (هي السنة السابعة عشرة من عمري) قرأت عددًا لا بأس به بالمرة من الكتب الجيدة، بالعربية والإنجليزية. فبالإنجليزية قرأت عشرة كتب لوليام سارويان (ما بين روايات وقصص قصيرة ومسرحيات) وجزءًا كبيرًا من كتاب يضم الأعمال الشعرية والمسرحيات الكاملة لطاغور،

وقصتي لويزا ألكوت الشهيرتين نساء صغيرات وزوجات طيبات، ورواية عصر العقل لجان بول سارتر، ورواية لتولستوي أظن أنها رواية البعث، وأربع روايات لترجنيف، وثلاث روايات لدستويفسكي من بينها الجريمة والعقاب، وثلاث روايات لأندريه جيد من بينها الباب الضيق، ومجموعة من القصص القصيرة لتشيخوف، ومسرحية الضابطة بربارا لبرنارد شو وأخرى لإبسن (البطة البرية)، ومجموعة من القصص القصيرة لموباسان، وبعض قصص أوسكار وايلد. قرأت كل هذه الكتب بالإنجليزية، كما قرأت بالعربية كتبًا عن المتنبي وابن زيدون (استعدادا لمسابقة الأدب) وكتابًا عن الفيلسوف سبينوزا، وأربعة كتب لتوفيق الحكيم، ورواية إبراهيم الكاتب للمازني، وترجمة لآلام فيرتر الجوته، وترجمة لرواية تاييس لأناتول فرانس، وترجمة لرواية البيت والعالم لطاغور، وجزءًا من ترجمة الكتاب أصل الأنواع لداروين، وترجمة لكتاب لديكارت لا أذكر الآن كم فهمت منه. ومع ذلك فأنا واثق من أنه كان من السهل عليّ أن أقرأ أكثر بكثير من هذا القدر من الكتب لولا انشغالي المستمر في تلك السنة بما تفعله بنت الجيران، دون أن يسفر هذا الانشغال للأسف عن أي نتيجة ذات شأن».

***

القفز بالقراءة

«عندما قابلت الأستاذ روبنز الذي عينته كلية لندن للاقتصاد مشرفًا عليّ، لأول مرة بعد وصولي من القاهرة. كان جهلي حينئذ بمقدار جهلي، أمرًا مفيدًا للغاية، إذ لو كنت أعرف قدر هذا الجهل وأعرف في نفس الوقت أهمية هذا الرجل الذي عين مشرفا علي، لو عرفت ذلك لما استطعت أن أفتح فمي

بكلمة واحدة في تلك المقابلة. سألني عما أقرأ الآن فلما قلت له اسم الكتاب، ارتسم على وجهه مزيج من الدهشة وخيبة الأمل. كان الكتاب ك. بولدينج: التحليل الاقتصادي، وهو كتاب جيد فعلًا، ويمكنني الآن أن أنصح بقراءته أي طالب في مقتبل دراسته للاقتصاد، ولكنه كان كتابًا مدرسيًّا يدرس طلبة جامعة لندن أمثاله في السنة الأولى أو الثانية من دراستهم. ولابد أن الأستاذ روبنز كان يتوقع أنني قد تجاوزت هذه المرحلة منذ مدة طويلة. أضف إلى ذلك أنه كتاب أمريكي لا أظن أن الأساتذة الإنجليز كانوا يرشحون مثله لطلبتهم. لم ييأس الأستاذ روبنز لحسن الحظ وقال لي إن هناك خمسة كتب عليّ أن أبدأ بقراءتها. ويبدو أن هذه القائمة هي ما كان ينصح بقراءته أي طالب يبدأ في دراسة الاقتصاد، لاعتقاده أنها تساعد على تكوين قاعدة سليمة وصلبة لفهم طريقة التفكير الاقتصادي. كانت هذه الكتب هي: ألفرد مارشال: «مبادئ الاقتصاد»، وفيكسيل «محاضرات في النظرية الاقتصادية»، وفرانك نايت «المخاطرة وعدم اليقين والربح» وباتنكن «النظرية النقدية»، بالإضافة إلى مجلد نشرته الجمعية الاقتصادية الأمريكية يضم أهم المقالات المتعلقة بنظرية الثمن والتي قدمت مساهمات مبتكرة في هذه النظرية خلال العشرين أو الثلاثين عاما الأخيرة. أعطاني روبنز أيضا نسخًا من بعض الامتحانات القديمة، وطلب مني أن أجيب عنها وأعرض عليه الإجابة. وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب قراءات أخرى غير تلك الكتب الخمسة.

كانت هذه الفترة - على قصرها - من أخصب فترات تكويني العقلي. لقد أدخلتني في عالم جديد تمامًا علي، وهو عالم ساحر وجذاب تعرفت فيه على عادات جديدة في التفكير والكتابة، اقتنعت بها، ثم اعتدت على ممارستها منذ ذلك الحين. أقصد بذلك عادات التفكير العلمي والتعبير عن الأفكار بأقصر وأوضح طريق، دون الاعتماد على المبالغة، أو اللعب بالألفاظ، أو

إثارة العواطف من أجل الإقناع، ومحاولة منع التحيز المسبق من التأثير في سير الجدل وتقديم الحجج، فإذا بالتأثير النهائي للكتاب أو المقال العلمي لا يقل عن تأثير العمل الفني، وإذا بالعواطف تتأثر بسلاسة المنطق ودقته وكأن المرء قد قرأ قصة ممتعة، أو استمع إلى قطعة من الموسيقى الجميلة. لم يكن كل ما قرأته في تلك الفترة، بالطبع، من هذا النوع الراقي. ولكني قرأت خلاله ما يكفي لأن يجعلني قادرًا على التمييز بين النوع الراقي وغير الراقي من الكتابة في علم اجتماعي كعلم الاقتصاد.

يجب أن أعترف مع ذلك بأن ما يكاد يعادل عامًا كاملًا من الأعوام الستة التي قضيتها في إنجلترا في فترة البعثة ذهب في القراءة عن الماركسية. ذلك أني بعد نجاحي في امتحان المعادلة، عهدت الكلية للأستاذ روبنز بأن يكون المشرف على في فترة دراستي للماجستير أيضًا. فلما قابلته للمرة الأولى بعد انتهائي من امتحان المعادلة حاول أن يتبين نوع تفكيري واتجاهه، فوجدني أفتح معه على الفور موضوع الاستعمار البريطاني لمصر ودوره في تعطيل قيام نهضة صناعية في مصر، كما اكتشف فيّ ميولًا اشتراكية وماركسية، وكنت قد دخلت هذه المرحلة من التفكير في السنة السابقة على سفري من مصر. قرر الرجل بينه وبين نفسه، فيما يظهر، أن أفضل سياسة يتبعها معي أن يتركني عدة شهور أقرأ في أي اتجاه أحب، على أن يقترح عليّ من حين لآخر قراءة كتاب يعتقد أنه قد يصلح من مسار تفكيري.

وهذا هو الذي حدث بالفعل. أخذت أقرأ كما يحلو لي وكأنني لست مطالبًا بعمل أي شيء معين أو الحصول على أي شهادة، فإذا بكتاب عن الماركسية يقودني إلى كتاب آخر عنها أيضًا، وإذا بنقد مشهور للماركسية يقودني إلى رد أحد الماركسيين دفاعا عنها. أثناء ذلك كان روبنز يوصيني بقراءة كتاب بعد آخر، ككتاب «المجتمع المفتوح وأعداؤه» لكارل بوبر،

أو كتاب شومبيتر عن «الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية»، وأمثالهما. وكنت عندما أناقشه في إحدى الحجج التي قرأتها ضد الماركسية وأحاول الرد عليها، يرد على بلطف قائلًا: «لا تظن أن باستطاعتك إثنائي عن رأيي، فقد استثمرت الكثير من وقتي وجهدي خلال حياتي الطويلة لصالح الرأي المعارض لرأيك»، ولم يبد منه قط أي ضيق أو غضب من جرأتي الزائدة أحيانًا، وظهوري بمظهر من يظن أنه يعرف الحقيقة كاملة. ولكن رأيي كان يتغير بالتدريج ودون شعور واع مني. ليس بالضبط بسبب قراءتي لكتاب يعادون الماركسية، بل لتعودي خلال هذه الفترة على قراءة الرأي ونقيضه، ومن ثم اكتشافي أن المسألة لا يمكن أن تكون بالبساطة التي كنت أظنها في البداية، وأن الأمر يحتاج إلى تأمل وروية أكبر. على أنني، رغم فتور حماسي للماركسية شيئًا فشيئًا بسبب هذه القراءات، لم أعتبر قط أن الوقت الذي أنفقته في إنجلترا على القراءة في الماركسية كان وقتًا ضائعًا. لقد كانت فترة نشاط ذهني وحماسة في القراءة، ولم يكن وراء قراءتي خلال هذه الفترة أي هدف غير الوصول إلى الرأي الصحيح في هذه القضية أو تلك. ثم جاءت أربع سنوات أخرى من القراءة في الاقتصاد بهدف الحصول على شهادة الماجستير ثم الدكتوراه. وعندما أستعيد في ذهني ما قرأته في هذه الخمس لا يدهشني كثرة ما قرأته من كتب ومقالات في الاقتصاد، فخمس سنوات من الانقطاع للدراسة، وفي مكان مثل جامعة لندن، ليست بالفترة القصيرة. وإنما الذي يدهشني قلة ما أحرزته فيها من تقدم «عقلي» حقيقي نتيجة هذه القراءات في الاقتصاد. نعم لابد أن النفع الذي حققته في السنة الأولى قد تم تدعيمه في السنوات الخمس التالية، ولكن الاكتشاف الحقيقي كان قد تم بالفعل في السنة الأولى. لا شك أيضا أني قد أحرزت بعض التقدم العقلي في سنوات الماجستير والدكتوراه، ولكنه لم يكن بسبب قراءاتي في الاقتصاد بل بسبب قراءات ومشاهدات أخرى. بل إني لا أعتقد أنني

أبتعد كثيرًا عن الحقيقة إذا قلت إن أغلب قراءاتي في تلك السنوات الخمس كانت قراءات عقيمة، اللهم إلا من حيث إنها أدت إلى الحصول على هاتين الشهادتين.

نعم قرأت بعض الكتب والمقالات البديعة في الاقتصاد، خلال هذه الفترة، ولكن أكثر ما قرأته كان قليل الفائدة إلا من حيث تمكيني من الحصول على الشهادة المطلوبة. ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، وكانت لي الحرية المطلقة في تحديد ما أقرأ وما لا أقرأ، دون دافع الحصول على شهادة في هذا العلم أو ذاك، لوضعت لنفسي برنامجًا مختلفًا تمامًا، ربما تضمن بعض الكتب القليلة في الاقتصاد، ولكن الأرجح أنه كان سيتكون أساسًا من قراءة بعض الكتب الكلاسيكية الأساسية في الأدب والفلسفة والتاريخ، مما لم يتح لي قراءة أكثرها حتى الآن. كانت الفائدة التي يمكن أن أحصل عليها أكبر بكثير لو كنت قد قرأت في ذلك الوقت كتاب الأمير لـ «ماكيافيللي» مثلا، أو كتاب جون ستيوارت ميل عن الحرية، وهما مما قرأته بعد ذلك، ولكن من المؤكد أيضا، فيما يبدو لي الآن، أن كان من الأفيد لي أن أقرأ حينئذ كتاب جيبون عن سقوط الإمبراطورية الرومانية مثلا، أو بعض كتب دافيد هيوم في الفلسفة مما لم أقرأه حتى الآن، ولا أظن أنه قد بقى من الوقت ما يسمح لي بذلك، بالمقارنة بعشرات الكتب والمقالات السخيفة في علم الاقتصاد، مما قرأته بالفعل في تلك الفترة، ولم تترك في نفسي أو عقلي أثرًا يذكر.

أعلنت كلية لندن للاقتصاد أنها نظمت سلسلة من عشر محاضرات، يمكن لأي أن طالب بالكلية حضورها، ويلقيها أستاذ متخصص، لتدريب الطلبة على زيادة سرعتهم في القراءة. اهتممت بالأمر إذ كان يضايقني ما لاحظته من بطئي في القراءة بالمقارنة بكثيرين غيري، ولم يقنعني قط الرأي القائل بأن سرعة القراءة تتعارض مع عمق التفكير، إذ لاحظت أن بطئي في

القراءة كثيرًا ما يعود إلى قلة التركيز مع شرود الذهن إلى أشياء قد لا تكون لها أي صلة بالموضوع الذي أقرأ فيه. وهو ما أكده لي ما قرأته في سيرة برتراند رسل الذاتية وهو يتكلم عن الاقتصادي الشهير كينز، إذ قال إنه كان يظن في البداية أن كينز، وإن كان أسرع بديهة منه فإنه أقل منه عمقًا، ثم تبين له أنه كان مخطئًا، وأن كينز ليس فقط أسرع فهما بل وكذلك أعمق فكرا. ذهبت لحضور الدروس فأكد الأستاذ المحاضر لنا نفس المعنى، أي أننا يجب ألا نظن أننا سنخسر شيئا بزيادة سرعتنا في القراءة، وأن البطء كثيرًا ما لا يكون له أي مبرر أو نفع على الإطلاق. ثم بدأ يعرضنا لتمرينات، منها أن يعرض على الشاشة أمامنا باستخدام الفانوس السحري، صفحة بعد أخرى من كتاب ما، وفي كل صفحة يقع الضوء على السطر الأول بينما تبقى بقية الصفحة مظلمة، ثم يتحرك الضوء فيقع على السطر الثاني وحده ويصبح من المستحيل أن نقرأ غيره. وهكذا يتحرك الضوء إلى أسفل، من سطر إلى سطر. ويطلب منا الرجل أن نحاول أن نستوعب من الصفحة التي تضاء سطورها تباعا على هذا النحو، أكبر قدر من المعلومات يمكننا استيعابه. وبعد هذا تزيد سرعة تحرك الضوء، فلا يبقى مُسلّطًا على سطر معين إلا مدة قصيرة ثم تزداد قصرًا، ثم يوزع علينا بعض الأسئلة ليختبر كمية المعلومات التي حصلناها. من التمرينات الأخرى أن يعرض علينا على الشاشة صفحة تحتوي على نقد لكتاب أو فيلم، ولا تبقى الصفحة على الشاشة إلا مدة قصيرة للغاية، ثم يطلب منا أن نقول ما إذا كان هذا النقد في صالح الكتاب أو الفيلم أو في غير صالحه. كانت الفائدة الوحيدة التي حصلتها من اقتناعي برأي المحاضر وزيادة اقتناعي بفائدة الإسراع في القراءة، ولكني لم أستفد منها كثيرًا في زيادة سرعتي في القراءة بالإنجليزية. الأمر الذي أحرزت تقدمًا فيه، ليس بسبب هذه السلسلة من المحاضرات بل بسبب شدة حاجتي، أثناء دراستي بإنجلترا، لتحقيق هذا التقدم، هو القدرة على تكوين رأي بسرعة فيما إذا كان كتاب ما،

أو فصل فيه، أو مقال، يستحق أن أستمر في قراءته أم لا. وهو أمر قد لا يقل أهمية عن سرعة القراءة نفسها. أذكر أنني في إحدى مقابلات مع أستاذه روبنز ذكر لي أن عليّ قراءة كتاب شومبيتر في تاريخ التحليل الاقتصادي. وهو كتاب مشهور، ويتمتع بتقدير الجميع، ولكنه يحتوي على نحو 1200 صفحة من الحجم الكبير والبنط الصغير. فلما سألته بدهشة: «كل الكتاب؟» أجابني بإجابة ظلت عالقة في ذهني وهي: «يجب أن تتعلم كيف تقفز في القراءة» وأظن أنه كان على صواب تماما، فقد اكتشفت، بعد أن تعلمت هذا القفز، حجم الفائدة التي يجنيها القارئ من ورائه، وكيف أني أضعت وقتًا كثيرًا في كتب سخيفة كان من الواجب على تركها في وقت مبكر.

يدهشني الآن أيضا طول الوقت الذي احتجت إليه لكي أتعلم كيف أن عليّ أن أضع ثقتي لا في الكتاب، مهما بدا جذابًا باسمه أو موضوعه، بل في مؤلفه. وأن أدرك أن هناك بعض الكتاب الذين يمكن أن يشعر معهم القارئ بالأمان، فيستطيع أن يطمئن إلى أن أي شيء يصدر عنهم سوف يكون على الأرجح جديرًا بالقراءة ، وأن عدد هذا النوع من الكتاب في أي فرع من فروع المعرفة، أقل بكثير مما نظن، وأن نسبتهم إلى المجموع تميل إلى التضاؤل مع ازدياد عدد من يكتبون الكتب دون أن تكون لديهم في الحقيقة الموهبة اللازمة، بل ولا حتى الأفكار التي تبرر قيامهم بتأليف الكتب أصلًا، ومع ازدياد عدد الحاصلين على الشهادات أو من يقومون بالتدريس، وكذلك مع ازدياد قوة دافع الربح في نشر الكتب وتقدم أساليب الدعاية والترويج لها».

هروبي إلى الحرية

علي عزت بيغوفيتش

«لكي يقرأ المرء كثيرًا يجب عليه إما أن يكون غنيًّا جدًا أو فقيرًا جدًّا، كما يقول أحد المخرجيين السينمائيين.. وسأضيف أو في السجن كما هو الأمر معي»، كانت السنوات التي قضاها الرئيس البوسني علي عزت بيغوفيتش في السجن من أخصب سنيّ قراءاته، والتي كان يهرب فيها من خلال القراءة والكتابة بروحه وفكره من القضبان الفولاذية التي منعت هروب الجسد.

جاء هروبي إلى الحرية ليجمع حصيلة ثلاثة عشر دفترًا سجل فيها تفكيراتٍ بالحرية، وعن الحياة والمصير، عن الناس والأحداث، عن الكتب ومؤلفيها، خلال ألفي يوم وليل طويل، وقسّمها إلى ستة فصول عن الحياة والناس والأدب، عن الدين والأخلاق، وملاحظات سياسية، وإسلامية، وهوامش على كتابه الإسلام بين الشرق والغرب، وعن الشيوعية والنازية وبعض الحقائق التي لا يجوز نسيانها، وأرفق معها ملحق رسائله إلى أولاده، فكما كان الأدب هو هروبه الثقافي إلى الحرية، كانت الرسائل هي هروبه العاطفي.

قراءات

«أنهيت اليوم قراءة (لعبة الكريات الزجاجية) لهيرمان هيسه السبت1989/ 4/ 28م. (يبلغ ابني اليوم تمام الثلاثين عاما، وأمامي تسع سنوات سجن تقريبا)، إنها نص معقد، حتى إن مشاعر اجتاحتني بأنها غابة كثيفة، لا أستطيع عبورها إلا بصعوبة بالغة. إنها أحد أفضل الكتب التي قرأتها، وطبعًا أحد الكتب الأقرب إلى أفكاري ومشاكلي».

***

«القراءة عمل إبداعي تعتمد بكثير أو قليل على القارئ، لأن القارئ يقدم تحليله عن المقروء ويقبله المشاهد بشكل سلبي. عشرة قراء لعشر شخصيات مختلفة لإخوة كارامازوف ينتهون إلى أحكام غير متوقعة كثيرة، وخواطر ذاتية تماما تختلف من قارئ لقارئ. وهنا يكمن الفرق بين قراءة إحدى القصص ورؤية فيلم؛ فبالقراءة نحن نعيد بناء الشخصية أو الصورة، أما في الفيلم فهو معطى، ويقبله المشاهد سلبيًا. عند قراءة الرواية تكون الصورة في ذهن القارئ، وعند مشاهدة الفيلم الصورة على الشاشة. ولذلك نقرأ، لأن الفيلم لا يكون بديلًا عن ذلك».

***

«قرأت اعترافات تولستوي وهوجو ودوستويفسكي وروسو، واستنتجت بأن الجميع، حتى أولئك الذين نعتقدهم عباقرة، لم يكونوا متحررين من العيوب والضعف. الفرق هو بمدى استعداد الناس أن يعترفوا

بذلك أمام أنفسهم وأمام الآخرين، بالمواجهة الشجاعة للأخطاء والخيبات للحياة التي تفسد وتطهر الروح معًا، ويمكن أن يقوم بها الإنسان الكبير والشجاع فقط. لا يوجد بين البشر من هو إنسان كامل، ولكن هناك من هو غير صادق».

***

«عندما نقول: إن عمل كل فنان حقيقي، هو في الحقيقة سيرة ذاتية، فإننا طبعًا لا نعتقد بأن المغامرات التي يقوم بها أبطاله تحدث في حياة هذا الكاتب. إننا نعتقد بأن وصف الحياة الداخلية: الحيرة والشك والعذاب، وخصوصا هذه الأخيرة، وصف الحياة الخاصة؛ لأنه لا أحد في أي وقت لم يصف عذاب الآخر، وهذا غير ممكن. العذاب الذي يصفه الكاتب هو عذاباته الشخصية الماضية أو الحاضرة، ولكن عذاباته ليست غريبة عنه. بالمعنى نفسه فإن كل رواية في حقيقة عملها هي سيرة ذاتية».

***

«القراءة المبالغ بها لا تجعل منا أذكياء. بعض الناس يلتهمون الكتب، وهم يفعلون ذلك بدون فاصل للتفكير الضروري، وهذا الفاصل ضروري لكي يهضم المقروء ويبني ويفهم ويتبنى. عندما يتحدث إليك مثل هؤلاء يطلقون من أفواههم مقاطع من هيجل وهيدجر أو ماركس في حالة أولية غير مصاغة جيدًا. عند القراءة، فإن المساهمة الشخصية ضرورية مثلما العمل ضروري للنحلة والزمن كذلك لكي تحول رحيق الأزهار المتجمع إلى عسل».

***

«المعرفة المفرطة تخنق أحيانا الفكرة الإبداعية. يمكن للإنسان أن يمتلك المعرفة في عدة مجالات، ولكن من غير تنظيم وبدون رؤيا. الكثير من الناس المتعلمين عاشوا وماتوا بدون معرفة حقة، والتي لا تحييها إلا الأفكار. من المقبول عمومًا أن البحث مع فرضية أولية مغلوطة أفضل من البحث بلا فرضية. كومة من المواد الجيدة بدون مخطط تبقى كومة فقط. الفرضية الأولية يمكن أن تكون من الأفكار التي نريد التحرر منها ما دمنا نقوم بالبحث، كما نقوم بالتخلص من الدعائم المساعدة حين ننتهي من بناء العمارة».

***

«في الأدب عظمة البطل ليس في أهميته الاجتماعية وإنما بحجم القضية الأخلاقية التي يحملها البطل. فالشخصية كبيرة إذا تصرفت في الرواية خيرًا أو شرًا. باستقلال عن دائرته الاجتماعية وعنوانه وموقعه. ولذلك؛ فإن الملك في الرواية والمسرحية يمكن أن يكون شخصية غير هامة والخادم بطلًا.

لماذا لا تسير الأمور هكذا في الحياة؟

السبب بأن الكاتب في الأدب يُعرفنا على روح البطل، وفي الحياة نتعرف على الناس، وخصوصاً من الناحية الخارجية. أحد الناس يمكن أن يكون بجوارنا لسنوات ونعتقد بأننا نعرفه، وفي الحقيقة فإن ما نعرفه فيه هو ذلك الشيء الذي لا قيمة أخلاقية له:(الاسم، المهنة، الموقع الاجتماعي، وما شابه) ولكن ما هو هام في الحقيقة وما يخبرنا عنه الأديب عن هذا الإنسان يبقى عادة غير معروف لنا».

«عندما نحاول أن نتمثل الكاتب الجيد، فإننا نفكر عادة بالكفاءات المطلوب أن تتوافر فيه: الخيال، والتجربة، والذكاء، والقدرة على الملاحظة، والفطنة.. إلخ. ولكني قرأت في مكان ما، بأن (تورجنيف) وضع قائمة

بالنواقص التي يجب أن تتوافر في الإنسان لكي يصبح أديبًا. وأثناء التفكير بهذه الطريقة من أنواع التفكير غير المتوقع أو (المعكوس) للأشياء فأعتقد بأنه يجب أن يوضع على رأس قائمة النواقص: الزهو. فلماذا يعتقد الكاتب عموما بأنه من الضروري أن يعلمنا ويربينا أو أن من الضروري أن نعرف كيف يفكر؟ أليس ذلك نوعًا من الزهو؟».

***

«كانت هناك عهود تحرك بها الفن باتجاه العلم، كما أن هناك عهودًا تحرك بها العلم باتجاه الفن. يقول (أرنولد هاوزر) في كتابه (في التاريخ الاجتماعي للفن والأدب): إن هذه حقيقة، ولكن هذان المفهومان لن يتوحدا أبدًا أو يمتزجا، وإذا حصل ذلك، فإن هذا سيعني إما زوال الفن، أو زوال العلم قبل اختفاء الفن. إن أكثر أزمات الرواية جدة (يطلق عليها موت الرواية) هي في الحقيقة اقتراب من الرواية الحديثة من العلم، لأنه في الرواية الحديثة لدينا القليل من القصص، وقليل من الأساطير، والكثير من التعليم والعلوم والفلسفة. وهذه إشارة غير جيدة. ولذلك، فإن الرواية الحديثة تأخرت بالمقارنة إلى التقليدية التي هيمن فيها توازن العناصر التي تجعل الرواية ما هي في الحقيقة. وكما هو معروف، فإن هذا التوجه العلمي نقع عليه مبكرًا في الرواية الطبيعية أواخر القرن التاسع عشر، أي ما يسمى بالرواية التجريبية، والتي كان من أبرز ممثليها إميل زولا».

البقية في حياتك

أنيس منصور

«لوحات تذكارية على جدران الطفولة» هذا هو العنوان الفرعي لسيرة أنيس منصور، عن ينابيع الشعور، وميض الفكر في طفولة كانت الماضي الذي لا يمضي والحاضر الذي لا يغيب.

أغبطه على قوة ذاكرته التي تستحضر حوارات الطفولة بأكملها، مشاغباتها، قراءاتها، إن كان اعتمد عليها ولم يستند إلى أقوال الآخرين، والتي مكّنته من كتابة أكثر من سيرة ذاتية لمختلف مراحل عمره.

تجد فيه حبّ الطفل لأمه، ومخاوفها عليه من كل شيء حتى من الكتب! خواطر الأطفال ورغباتهم، الكثير من عاهات وأمراض وآفات المجتمع العربي المسلم والجهل الذي كان في تيك المرحلة من حياته.

البقية في حياتك، عنوان كالعزاء، كأنه يعزي ذاته ويواسيها على عمر ضائع، ويعدها بعمر آت، وأحلام جميلة ستتحقق. أم أنه ألم ومعاناة عاشها ولم تُنس، فصار يحملها إلى آخر رحلته في الحياة.

كتب في كل مكان!

«كان في بيتنا عدد كبير من الكتب، كانت دائمًا في أماكن مختلفة، في غرفة النوم على المقاعد، في الأركان، تحت السرير، في صناديق وفي مقاطف فوق السطوح، بعض هذه الكتب بعثت بها عمتي إلينا، فلم تجد لها مكانًا في بيتها، وكان من رأيها أنها قد تنفعني إذا كبرت فلم يعد أحد من أولادها يقرؤها، لقد كبروا وعندما وجدتها رحت أقلب فيها فلم أكن قد تعلمت القراءة، ولما تعلمت وانتقلت هذه الكتب معي من مكان إلى مكان عرفت أنها في موضوعات زراعية، إصلاح الأرض وحرثها وبذرها والعناية بالمحاصيل وتربية الدواجن والنحل، فقد كان ابن عمتي طالبًا في كلية الزراعة ثم أستاذا بها. ثم وجدت كتبًا لأحد أعمامي وكان أزهريًّا، ولما حاولت أن أقرأها لم أستطع ولم أفهم؛ فهي عن موضوعات غريبة وبعبارة أغرب، ووجدت كتبًا قديمةً منزوعة الأوراق والأغلفة أيضًا، وعليها آثار التراب والحشرات والقهوة وقد مسح التراب والحشرات الكثير من حروفها وصفحاتها، وكتب فيها شعر كثير ولكن لا أعرف أسماء هذه الكتب، وحاولت أن أحفظ هذا الشعر ولم أستطع؛ فهو شعر صعب. ولذلك كانت روايات الجيب، كشفًا وحدثًا مضينًا؛ فهي حكايات غريبة، وحكايات مثيرة، ومن الصعب أن أترك الكتاب دون أن أكمله في يوم وأحيانًا في جلسة واحدة. وأنا أقرا هذه الروايات واقفًا وجالسًا وناتمًا وأنا آكل وأنا أشرب وأنا أمشي في الشارع. لم أر مثل هذا النوع من الكتب، ورقها أبيض ولها أغلفة ملونة، أحيانا عليها بنات عاريات وفيها لوحات ورسومات، إنها شيء مختلف، ولكن كتب الشعر أنفع وأجمل. لولا أن هذا الشعر الذي أجده في هذه الكتب أو بقايا الكتب صعب جدًا، فلا أنا قادر

على قراءة هذه الكتب، ولا أنا قادر على تجاهلها، فهي دائمًا في يدي وأنا دائما أحاول وأفشل ولم أتوقف عن تقليبها من أولها لآخرها أو من آخرها لأولها، وشكوت لوالدي فوافقني على صعوبتها ووعدني بكتب أفضل، أو أن أذهب أنا إلى المكتبات وأرى ما يناسبني، أو أذهب إلى المكتبة العامة وأسال وأختار، ولكنه وعدني بأنه سيأتي لي بكتب يسهل فهمها وحفظها، كتب فاتحة لشهية القراءة والتذوق والتعود على ذلك، وهذه عبارة والدي.

أما الكتاب الذي لا أعرف اسمه فقد وجدت في أول صفحة منه هذين البيتين، وهذان البيتان قد كهربا كل أعصابي وخيالي وحفظتهما بسرعة، وكنت أفتعل المناسبات لكي أرددهما على مسامع زملائي، ولكن أحدًا منهم لم يكن يعي ما أقول أو يتحمس له، ولم أكتف بذلك وإنما قلتهما لوالدي وظل يضحك. وأنا سعيد بأنني أعرف ما لا يعرف وأنني عندما عرفت وجدت شيئا يبعث على الضحك، أما البيتان فهما:

إن النســـاء شـــياطين خلقـــن لنـــا

نعـــوذ بـــالله مـــن شر الشـــياطين

فهـــن أصـــل البليـــات التـــي ظهـــرت

بـــين البريـــة في الدنيـــا وفي الديـــن

وعرفت من والدي أن هذا الكتاب هو جزء من (ألف ليلة وليلة)، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع عن مثل هذا الكتاب. وحدثني والدي كثيرًا عنه وتمنيت لو قرأته. ولم تكن لي أية تجارب مع المرأة لا في الدنيا ولا في الدين، ولكن أسعدني أن أجد مثل هذا الهجوم على المرأة، فهل كان ذلك دليلًا على أنني ضقت بكل النساء اللاتي عرفتهن: جاراتنا وقريباتنا وصديقات أمي، فما الذي ضايقني منهن؟ هل هذا النوع من الناس؟ من المشاكل؟ من الحكايات

التي تتكرر كل يوم بصورة مملة؟ هل ما تقوله النساء عن الرجال وعن الأزواج وعن الأولاد، هل هي الكلمات التي أسمعها من جدتي ولا يبدو أنها تحترم والدي؟ هل سكوت أمي على مثل هذه الكلمات يجعلني أغضب من أمي أيضًا؟ هل هي تلك الفتاة التي وجدت نفسي في حضنها.. ولم أعد أراها؟ هل هن التلميذات اللاتي ينظرن لي وكأنهن يعرفن ما كان بيني وبين هذه الفتاة على السلم.. أو تحت الكوبري.. هل لأنها اختفت.. هل لأنني وجدت في نفسي ميلًا شديدًا لها ولكل البنات، ولكني لا أجد الشجاعة مثل كل زملائي.. فأنا لا أعرف كيف أتحدث إلى فتاة، وإذا تحدثت فما الذي أقول، وإذا قلت فكيف يبقى الحديث ساعة أو كل اليوم. إن زملائي يتكلمون طول الوقت ولا يتوقفون عن الكلام إلى أية فتاة، ماذا يقولون كل يوم لا أعرف. هل لأنني أشتاق إلى أختي ولا أستطيع أن أراها؟ هل لأنني أحب خالتي ولا أجدها؟ هل لأنني أحب أمي وهي مريضة دائما.. مرهقة.. عصبية.. هل لأنني أحب أبي وأجد أمي تشكو من أنه ليس هناك. هل لأنني أحب أن أكون في حضرة نساء أخريات ولكن أمي تمنعني وتحذرني، فنحن إذا ذهبنا إلى ست أم عزيز، حذرتني من الجلوس طويلًا مع بناتها، وهن جميلات.. ثم إنها عاتبت والدي كيف إنه يصر على ذهابي معه للجلوس وسط الرجال، ثم يطلبون مني أن أذهب وأجلس مع السيدات والبنات، ما هذا الخوف من البنات ومن الزوجات؟ ما الذي يمكن أن تفعله واحدة منهن.. إنني أنظر إلى أصابع البنات فلا أجد مخالب ولا أسنانهن أنيابًا.. وإلى عيونهن لا تخرج منها النار والشرار.. يتكلمن ويضحكن.. ثم إنهن لطيفات ظريفات ناعمات جميلات.. فمن أين يجيء الخطر؟ وما هو هذا الخطر؟

إذن لابد أنهن مخيفات، ولكن ما الذي يمكن أن يفعلنه لمن يجلس معهن أو يستمع إليهن.. إنهن شياطين، أمي تقول والشعراء يقولون وأبي يضحك على

ذلك.. وأنا لا أفهم! ووجد والدي صعوبة شديدة في تفسير أبيات وجدتها في (ألف ليلة وليلة) وكلها تمتدح المرأة، ولكن والدي يعرف مشكلتي، فهناك أبيات تلعن المرأة، وأبيات تمتدحها فأيهما أصح ولماذا؟

مثلا:

ثلاثـــة منعتهـــا مـــن زيارتنـــا

خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق

ضـوء الجبـين ووسـواس الحـلى وما

حـوت معاطفهـا مـن عنـبر عبـق

هـب الجبـين بفضـل الكـم تسـتره

والحـلى تنزعـه مـا حيلـة العـرق؟

مثلا:

قالـوا جننـت بمن تهـوى فقلت لهم

مـــا لـــذة العيـــش إلا للمجانـــين

نعـم جننـت فهاتـوا مـن جننـت به

إن كان يشـفي جنـوني لا تلومـوني!

مثلا:

ورد الكتـاب فـلا عرفـت أنامـلًا

كتبـت بـه حتـى تضمـخ طيبًـا

فـكان موســى قـد أعيـد لأمـه

أو ثـوب يوسـف قـد آتـى يعقوبًـا

مثلا:

تعشـقت ظبيا ناعس الطرف أحورًا

تغـار غصـون البـان منـه إذا مشـى

يمانعنـي والطـير يحظـى بوصلـه

وذلـك فضـل الله يؤتيـه مـن يشـا

مثلا:

بـدت قمـرًا ومالـت غصـن بـان

وفاحـت عنـبرًا ورنـت غـزالًا

مثلا:

كان الحـزن مشـغوفًا بقلبـي

فسـاعة هجرهـا يجـد الوصـالا

مثلا:

نـشرت ثـلاث ذوائـب من شـعرها

في ليلـة فأرتنـي ليـالي أربعـا

واسـتقبلت قمـر السـماء بوجههـا

فأرتنـي القمريـن في وقـت معـا

وآخر صفحة في الجزء المتمزق من (ألف ليلة وليلة) جاء هذان البيتان:

كل ابـن أنثـى وإن طالـت سـلامته

يومـا عـلى آلـة حدبـاء محمـول

وكيــف يلهــو بعيــش أو يلــذ بــه

مــن الــتراب عــلى خديــه مجعــول

ولا أذكر أني رأيت أبي مهمومًا مقهورًا مثل هذا اليوم فأنا حفظت شعرًا لم أسمعه منه وأنا أريد شرحًا لهذه المعاني التي فوق إدراكي أو فوق قدرتي على فهمها. ولقد تحير والدي تماما في وصف جمال المرأة وحب الشعراء لها. ثم تعب جدًّا في شرح لماذا إذا كتبت المرأة خطابًا فإن للخطاب رائحة العطر ومن أين يجيء هذا العطر. ولم أشم للنساء عطرًا في أي وقت. وإنما دائمًا رائحة الصابون النابلسي أو رائحة المطبخ الأرز والبصل والسمن، فما الذي يجعل لها عطرًا إذا أمسكت القلم وكتبت، ولماذا تكتب وكيف تكتب، ثم كيف تبدو كالقمر، وما الذي يعذب الرجال؟ لقد أرهقت والدي تمامًا، ولكنه بقدر ما أسعده أنني بدأت أقرأ، أحزنه أن أبدأ بهذا الكتاب الذي به عبارات كثيرة نابية ووصف جنسي للعلاقات بين الرجل والمرأة، وقد لاحظت ذلك وأدهشني ولم أستطع أن أصارح أحدًا بذلك ولقد أعدت قراءة هذا الجزء من ألف ليلة وليلة مرات كثيرة، وكأنني أنظر من ثقب الباب إلى عالم غريب عجيب، عالم لم أره ولم أسمع عنه، عالم سحري ولكنه في نفس الوقت عالم إنساني مثير، والرجال يقولون شعرًا والنساء، وهناك رقص وغناء وخمور ومعارك وعفاريت وشياطين، حتى العفاريت تقول شعرًا، فما معنى ذلك ولماذا لا أحد يعرف هذا الكتاب. لقد سألت زملائي فلم أجد أحدًا قد سمع بهذا الكتاب!

وكانت أمي تمنعني في كل مرة أمسك كتابًا بالليل. فقد حدث أن غلبني النوم فنمت، فأحرق المصباح الغازي شعر رأسي ورموش عيني، ومرة سقط المصباح وانكسر وكادت تقع حريقة في كتبي وكراريسي وملابسي. ثم إن أمي

نبهتني إلى أن كثرة القراءة ليلًا ونهارًا تضعف البصر.. ثم إنها كتب ليست مدرسية وهذه الكتب لم تنفع والدي في شيء. وأكثر الذين نفعوا في حياتهم، كانت بيوتهم خالية من الكتب. وأن بائعي الحمص والسوداني يمزقون الكتب ويجعلون منها قراطيس.

وأمي تريدني أن أقرأ الكتب المدرسية فقط ولكن ما الذي يمكن قراءته في الإجازة؟ لابد من قراءة كتب أخرى.. ولم تكن من عادة أمي أن تناقشني أو تحاورني. إنها تقول، وكلامها أوامر، وأنا أطيع فقط. وقد سمعت أحد أقاربي بعد أن قلب في الكتب التي وجدها على سريري أنها كلام فارغ. وكيف أشغل نفسي وأنا التلميذ المجتهد المتفوق بمثل هذه الكتب.

وكانت أمي تقول عادة: قل له والنبي، قل له الله يخليك!

وكان يقول ولكن لم أكن أسمع ما يقول ولا أصدقه. ثم إنني حر أقرأ ما يعجبني. أنا حر، أصبحت عبارة أقولها كثيرًا وفي ذلك دليل على نمو شخصيتي وعلى استقلالي بالرأي أو بداية هذا الاستقلال، وكنت أقول لأمي بصورة قاطعة: أنت لك أن أكون الأول، أليس كذلك؟ إن شاء الله سأكون الأول، ولكن ما ينفع وما يضر من الكتب، فأنا وحدي الذي يقرر ذلك.

وكانت أمي تحتج على حريتي هذه، وترى فيها تقويضًا لسلطانها أو نفوذها، وإنني لم أعد ولن أكون الابن المطيع الذي لا يعرف مصلحته ومنفعته، أمي فقط هي التي تعرف. كانت دائمًا تعرف، ويجب أن تبقى كذلك. حاضر يا ماما، هذا ما أقوله دائما، سواءً كنت مقتنعًا أو لم أكن. وأغلب الظن أنني لم أكن. ولكن لا أحب أن أغضبها.

أما الكتاب الذي استولى على خيالي وبهرني وسحرني وأنا لا أعرف ما هذا.. ما هذا الأسلوب أو ما هذه الكتابة.. وما معناها وما اسمها.. ولماذا هي هكذا، فهو كتاب: مقامات الحريري. الكتاب صعب، ولا أعرف له معنى،

وإنما كان الشعر، بعض الشعر أسهل ما في هذا الكتاب، وفي نفس الوقت أصعب ما أعده كل أسبوع لوالدي وأسأله عن المعنى.

مثلا وكنت أقول من الذاكرة دائما ما جاء في المقامات:

وقــع الشــوائب شــنّيب
والدهــر بالنــاس قلــب

إن دان يومًــا لشــخص
ففــي غــد ينغلــب

فــلا تثــق بوميــض
مــن برقــه فهــو خلّــب

واصــبر إذا هــو أضرى
بــك الزمــان وألــب

فــما عــلى التــبر عــار
في النــار حــين يقلــب

وكنت أتعجب لمثل هذه المعاني، وكيف اهتديت إليها، وكيف قالها الحريري.. وفي نفس الوقت أنتظر التفسير من أبي.

يقول الحريري أيضا:

لا تــزر مــن تحــب في كل شــهر
غــير يــوم ولا تــزده عليــه

فاجتــلاء الهــلال في الشــهر يــوم
ثــم لا تنظــر العيــون إليــه

أما معجزة المعجزات فاختياره للألفاظ المتشابهة المتقاربة ثم وضعها كلها في شعر جميل كيف؟

زينـــب زينـــب بقـــد يقـــد

وتـــلاه ويـــلاه نهـــد يهـــد

جندهـا جيدها وطـرف وظرف

ناعـــس تاعـــس بحـــد يحـــد

قدرهـا قـد زها وتاهـت وباهت

واغتـدت واعتـدت بخـد يخـد

فارقتنـــي فأرقتنـــي وشـــطت

وسـطت ثـم نـم وجـد وجـد

فدنـت فديـت وحنـت وحيّـت

مغضبـــا مغضبـــا يـــود يـــود

وعند هذا الشعر والحيرة والدهشة والعجب نصحني والدي ألا أنشغل كثيرًا بمثل هذه الكتب، فليس أوانها الآن، سوف يجيء الاهتمام بعد أن أكبر؛ لأنها تحتاج إلى فهم أعمق ومعرفة باللغة والنحو والصرف والشعر والبلاغة وطلب مني أن أحتفظ بهذا الكتاب، ولكن بعيدًا عن يدي الآن.

وكنت أقرأ في كتاب آخر لا أعرف معنى الكثير مما جاء فيه، اسمه (الكامل) من تأليف أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، ولم يكن كتابًا كاملًا وإنما هو جزء من كتاب كبير، وفيه أن رجلًا نظر إلى زوجته العجوز فوجدها تتجمل فقال لها:

عجـوز ترجـى أن تكـون فتيـة

وقد أنحب الجنبان واحدودب الظهر

تـدس إلى العطـار سـلعة بيتهـا

وهـل يصلح العطار ما أفسـد الدهر

ووجدت هذين البيتين أيضًا:

ومـــا غـــرني إلا خضـــاب بكفهـــا

وكحـل بعينيهـا وأثوابهـا الصفـر

وجـاءوا بهـا قبـل المحـاق بليلـة

فـكان محاقًـا كلـه ذلـك الشـهر!

وكان والدي يشرح ويقول ويحاول أن يقرب هذه المعاني وكان يستعين بالقاموس ولم أكن أعرف معنى القاموس، ولا أن في بيتنا قاموسًا. وعلمني أبي كيف أقرأ لكي أجد معاني الكلمات، وكان ذلك في غاية الصعوبة.

وسألت والدي عن معاني هذه الأبيات التي تحيرت في فهمها. وبعد الذي رأيته على وجهه من الحيرة والقلق وأنا أنتظر وأتطلع ولا أتراجع عن فهم كل هذا الذي جاء في الأبيات التي وجدتها أيضا في كتاب الكامل، قررت ألا أسأله بعد ذلك، لن أسأله، لا أمتحنه.. لا أحرجه.. لا أفرض عليه ما لا يريد.. ولكن أنا لا أقدر على مقاومة رغبتي في أن أفهم وفي أن أعتمد عليه.. وأن أكلمه وأن أشغله معي قال الشاعر:

لم أر مثـــل الفقـــر أوضـــع للفتـــى

ولم أر مثـــل المـــال أرفـــع للـــرذل

ولم أر عـــزا لامـــرئ كعشـــيرة

ولم أر ذلا مثـل نـأي عـن الأهـل

ولم أر مـن عـدم أضر عـلى امـرئ

ذا عاش بين النـاس من عدم العقل!

كأن هذه الأبيات تشير إلى معنى عميق توارى بين الأحشاء ولا يريد أبي أن يفصح عنه، أو يدلني عليه، وفي نفس الوقت لا يريد أن يظهر لي أنه تضايق وأنني دفعته إلى كشف سر دفين. وحاول وحاولت أن أفهم.. وحاول كثيرا. وفهمت بعض الذي قال، فهو لم يقل كثيرًا من المعاني وإنما دار حولها ولم يدخل».

مذكرات
نجيب الكيلاني

استجابةً لطلبات الأبناء وطلاب «الأدب الإسلامي» في كتابة سيرة لرائد هذا الأدب يستعينون بها على إتمام أبحاثهم ودراساتهم، وجد الدكتور نجيب الكيلاني نفسه يستعرض حياته بعد أن ناهز الثانية والخمسين، ليجد فيها أحداثًا بارزةً، وثيقة الصلة بكبريات الأمور في مسيرة الدعوة الإسلامية المعاصرة.

عن طفولته في قرية تعاني القهر والحرمان والجهل، إلى انخراطه في الحركات الإسلامية في مصر، ثم اكتوائه بنيران العذاب والاغتراب والقلق الطويل في السجن، لتبدأ بعده حياة جديدة عاش أكثرها في الإمارات.

قضى أكثر من ثلاثين عامًا في الكتابة، الرواية والقصة القصيرة والبحوث والشعر، اختلط فيها بالعديد من الشخصيات الهامة، ليتحدث عن تجاربه في أكثر من أربع مئة صفحة، لتخرج شهادة مسلم، فلّاح، طالب علم، طبيب، سجين، مهاجر، صديق للقلم، عاش في الثلثين الأخيرين من القرن العشرين الميلادي.

وفرة أعماله ساهمت في فوزه ببعض الجوائز الأدبية، وحضوره الأمسيات الثقافية متحدثا وضيفًا ومحاورًا لكبار الكتّاب العرب في وقته، وساردًا أخبار كثيرة من ذلك في مذكراته.

الملاذ الأخير

«كانت إجازة الصيف في المرحلة الابتدائية - بل في المراحل التالية أيضًا - طويلة، وكان لابد من ملئها، لكن كيف؟ لم يكن في استطاعتي أن أذهب إلى المصايف، أو أسافر إلى المدن، ولذلك فإن الرياضة والقراءة كانا هما الملاذ الأول والأخير.

كنت أعشق لعبة كرة القدم وألعاب القوى، وكان بالقرية مساحات شاسعة تصلح للعب، كما كانت جماعات نشر الرياضة بالقرى، والتي يترأسها الأمير عمرو إبراهيم تؤدي دورًا بارزًا للفلاحين، ولهذا استطعت أن أتقن اللعب الكثيرة مثل رمي الرمح والقرص والجلة، والوثب الطويل والوثب بالبوصة، والجري لمسافات طويلة، كما تقدمت كثيرًا في لعبة كرة القدم، وأصبحت واحدًا من الفريق الرسمي لمدرسة طنطا الثانوية الجديدة، وهو أمل يحلم به الكثيرون، وسافرت للاشتراك في مسابقات بالنادي الأهلي بالجزيرة.

لكن تبقى فترة الصباح والمساء، حاولنا إقامة ناد صغير، وأخذت ألتهم الكتب التهامًا، وكانت معظم قراءاتي في كتب الأدب والدين وبعض المجلات السيارة قديمها وحديثها مثل مجلة الرسالة والهلال والمقتطف والأزهر، وكنت مولعًا بكتب الشعر خاصة.

وكان شيخ الطريقة الصوفية الأحمدية في بلدنا المرحوم الشيخ محمود المداح، وكان رجلًا وسيمًا نظيفًا رقيقًا كأنه ملاك، وكان أنيقًا في جبته الجميلة وقفطانه، مجرد مشاهدته توحي بالراحة والاطمئنان والإجلال، وكنا نقبل يده في حب يقترب من العشق، وكان - رحمه الله - يحبني ويعجب بي لتواجدي

بالمسجد كثيرًا، ولتفوقي في الدراسة، لدرجة أنه اختارني دون غيري، لكي يملي عليّ خطاباته الخاصة التي يرسلها لإخوانه وأصدقائه ودراويشه في مختلف الأنحاء، وبعد أن أنتهي من كتابة الخطاب، يأخذه مني، ثم يوقع عليه بالفقير إلى الله تعالى محمود أحمد المداح، وكان يوصيني ألا أخبر أحدًا بمضمون خطاباته، وبالطبع كانت وصيته أمرًا، ولهذا كنت أحضر مجالس الذكر والحضرات منذ الصغر، وأحفظ المنظومة، التي تبدأ بالبيت التالي:

لأسمائك الحسنى عُبيدك قد ثنى

عنانا له يرجو بها يدرك المنى

كما حفظت معظم بردة البوصيري، كان لإعجابي وارتباطي بهذا الرجل الكثير من الفوائد والسلوك الإيجابي في حياتي في تلك الفترة، على الرغم من أن نظرتي للتصوف والمتصوفين قد تعمقت بالاطلاع والدراسة، وتطورت إلى وضع مقبول لا غبار عليه، ولا شبهة فيها، تحت شعار الآية الكريمة: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾، فسمة المؤمن الحق، الإيمان والتقوى.

إن قراءات الصيف التي ضمّت الكثير من المؤلفات، حتى قصص الجيب والروايات البوليسية والترجمات العديدة، وحفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية، والشعر القديم والحديث، وبعض النصوص البلاغية، وسير القدماء والمحدثين وغيرها، قد زودني بحصيلة كبيرة من المعرفة.

ومن حسن الحظ أن فئة من الجامعيين والخريجين، خاصة في الأزهر الشريف، كانوا يجمعوننا حولهم في القرية أثناء الإجازة الصيفية، وكنا نرى في أيديهم الكتب القيمة، ونسمع حوارهم الثري المفيد، ونتعلم منهم الكثير من النصوص والأحكام الشرعية، والمقارنات الأدبية، والأخبار التاريخية، أذكر

منهم بالذات الأستاذ الفاضل محمد أحمد حسب الله، المدرس والمحقق أيضًا في دار المعارف فيما بعد، فقد كان أكثرهم علمًا وثقافةً ودرايةً، وقد تخرج من كلية اللغة العربية، ثم درس عامين بمعهد التربية العالي بالإسكندرية في علم النفس والفلسفة والتربية، وكان يطلب مني أن أشاركه في قراءة بعض الكتب الهامة أثناء المرحلة الثانوية، أذكر منها كتاب قادة الفكر، ووحي القلم، وأجزاء من دواوين شوقي ومسرحياته وديوان المتنبي وبعض قصائد أبي العلاء المعري. كانت متعتي الكبرى في القراءة .. ويخيل إلي أنني لم أكن لأشبع منها أبدًا، لقد أصبحت نوعًا من الإدمان إن صح التعبير، وعندما أعلم أن فلانًا لديه كتاب ذو قيمة، كنت أفعل المستحيل لاستعارة هذا الكتاب، ولم تكن الحالة المالية تسمح بشراء ما يلزمني من كتب ثقافية خارجية، لكننا كنا نتبادل الكتب كأصدقاء، أو نشترك في شراء واحد منها، أو شراء مجلة من المجلات القيمة كالهلال مثلا، كما كنا نحرص على قراءة مجلدات الرسالة القديمة، ونشتريها من مكتبة «فك الأزمة» الشهيرة في طنطا، ولم أكن أتضايق من الكتب الصفراء مثل بعض الزملاء، بل كنت أحرص أشد الحرص على قراءة البعض منها .

كان للكلمة المطبوعة مفعول السحر في نفسي، لم تكن ملكة التمييز قد اكتملت بعد لدي، لذا كنت أقرأ أي شيء، كما كانت لدي المقدرة على حفظ الكثير من النصوص، وقد بدأت كتابة الشعر - تقليدًا - في وقت مبكر جدًّا، أي في آخر المرحلة الابتدائية.. هكذا بدأت رحلة العلم.. ورحلة الكلمة... الرحلة الطويلة التي تبدأ.. لكنها لا تنتهي أبدًا».

***

«كنت أحب مجلة الرسالة، سواء ما كان يصدر منها آنذاك أو مجلداتها القديمة، وكنت أحرص على قراءة باب الشعر فيها بالذات لأنه كان يضم

نخبة من شعراء العالم العربي، ممن عرفوا بعمق الفكر وجمال الأداء، وعلى صفحات الرسالة عرفت الزيات والرافعي وزكي مبارك ودريني خشبة والزهاوي وأنور المعداوي، وعدد كبير من الكتاب عرفوا بالصدق والأصالة والموضوعية في معظم أعمالهم.

كما حرصت على اقتناء مجلة الهلال، وفيها عرفت أحمد أمين والعقاد والمازني وطه حسين وتوفيق دياب وفكري أباظة والشاعر محمود عماد وعلي الجارم في قصصه التاريخي والعريان ومهدي علام وغيرهم.

كانت كتابات توفيق الحكيم تستهويني بشدة، فهو دائمًا صاحب فكرة ما، ويحرص على تبسيطها وبلورتها بأسلوبه السهل الممتنع كما يقولون، وكان ذكيًّا في حواره، يستطيع أن يفتح آفاقًا عديدةً أمام القارئ، وكانت قصصه القصيرة مبتكرة في موضوعاتها، غنية بصورها الملفتة للنظر، لكنه في رواياته كان يستطرد كثيرًا في السرد، ويتدخل مباشرة في عدد كبير من الأحداث، وكان أيضًا يمعن في تصوير بعض الأحداث والتفاصيل التي تخدش الحياء، ومع ذلك فقد استفدت منه كثيرًا، حتى أن آراءه الفلسفية أو النقدية في كتابه «التعادلية»، وفي كتابه «فن الأدب»، تناول قضايا حيوية من وجهة نظره تبدو شيقة وجادة ومثيرة للجدل .

وشغفت بعمق العقاد ودراساته التحليلية، ومعلوماته الوافية، واطلاعه الواسع، وقدرته الفذة على إبداء الرأي، حول ما يتعرض له من قضايا، كان ينتقد فلاسفة الغرب ومفكريه انطلاقًا من نهم عميق، وقدرة فائقة، وكان جديد الفكرة، جديد الرأي، يأنف من أن يتبني رأي أحد، كان بحق عملاقا في فنه، واثقًا بنفسه لأبعد حدود الثقة، ولا يستطيع أحد أن ينكر مواقفه المشهودة ضد قوى «الزحف الأحمر»، في مصر وغيرها، في وقت استطاعت فيه الماركسية والماركسيون أن يتخذوا لهم مواقع حصينة في ساحة الفن

والصحافة والسياسة والتنظيمات الحزبية الحكومية، فلم يكل العقاد أو يمل، بل ظل مثابرًا في مهاجمتهم، وتعرية مقاصدهم، ولم يتوقف عن دراساته الإسلامية التي ظلت تصدر تباعًا حتى في أحرج الأوقات، وأشدها حساسية.

وكانت نقطة الضعف فيه - وجل من لا يخطئ - هي انتماؤه الحزبي السابق، وعندما حدث الصدام بين حزبه وبين الوفد، لم يتوان عن إشهار سيفه في وجه خصوم حزبه، ولما تدهورت الأوضاع بين القصر الملكي وحزب السعديين والدستوريين من جانب، وبين الإخوان المسلمين من جانب آخر، ورأيناه يعلن حربه دون هوادة، ويتصيد أمورا غريبة لا تمت إلى الحقيقة والواقع والصدق التاريخي بصلة، كتلك المقالة التي كتبها عن الإمام الشهيد حسن البنا يجرحه فيها، ويفترض في نسبة افتراضات مستحيلة لا أساس لها من الصحة إطلاقًا، وهذا ليس رأيي وحدي، بل رأي كاتبين كبيرين من كتاب اليسار هما محمود أمين العالم والدكتور عبد العظيم أنيس، إذ إنهما - رغم عدائهما للإخوان - قد فضحا أفكار العقاد المخترعة من الوهم حول الإمام الشهيد، واتخذوا هذا الإسفاف والزعم الباطل حجة عليه، وهناك آخرون غيرهما ردوا أباطيل العقاد حول نسب الإمام الشهيد - رحمه الله -، ولم يكن يحدث هذا من مفكر كبير مثل العقاد لولا تعصبه الحزبي، وولاؤه غير المشروط لزعماء الحزب، كانت هذه هي نقطة الضعف الأساسية في العقاد.

وهناك أمر آخر لا يمكن إغفاله وهو غضبه الشديد على كل من يوجه إليه نقدًا، والمتصفح لكتاباته النقدية، يجد نماذج محزنة تؤكد ما نرمي إليه، ولقد أتيحت لي فرصة الذهاب إلى ندوة العقاد الأسبوعية في بيته - أيام الجمع - ورأيت بنفسي طبيعة الرجل ورد فعله بالنسبة للأحداث، وسمعته يتحدث عن الرافعي رحمه الله بأسلوب سيئ، وينعته بصفات لا يصح أن

تصدر عنه، كما سمعته يتحدث عن الدكتور زكي نجيب محمود ومعتقده الفلسفي وأفكاره، وقال كلامًا شديد اللهجة، من الواجب ألا يقال، ثم تكلم عن صحافيين وأدباء بنفس الطريقة، ولم يكن أحد من تلامذته الجالسين يرد له قولًا.

وكان من أشد المعجبين به من تلامذته المرحوم الدكتور عبد الحي دياب، وعبد الحي صديق قديم، وكان أيامها طالبًا بدار العلوم، ولا حديث له غير العقاد وآراء العقاد، وحياة العقاد، وجاء مجموعة من الأدباء الشبان يشكون عبد الحي للعقاد، لأنه يتطاول عليهم، وينسب الكثير من الآراء والأفكار لأستاذه العقاد، إنه يضرب بسيفه، ويهاجم بآرائه، ولا يرحم أحدًا، فابتسم العقاد وسأل عبد الحي: هل قلت هذا يا عبد الحي؟ ولما تلعثم عبد الحي، قهقه العقاد وقال مرددًا بيتا من الشعر القديم:

كل يدعـــى وصـــلًا بليـــلى

وليـــلى لا تقـــر لهـــم بـــذاكا

ويبقى رغم كل ذلك جهد العقاد الكبير في مجال الدراسات الإسلامية وشخصيات التاريخ الإسلامي الفذة، لقد ترك موسوعة لا يباريه فيها أحد، وكان له طريقته وأسلوبه الخاص في الدراسة، وعلى الرغم من انتقاد البعض لمنهجه في الكتابة الإسلامية، إلا أنه يظل علمًا بارزًا على مدار التاريخ في هذا الجانب، الذي أشرق بنور الإسلام، وترجم عن مبادئه وأيامه، وأبان عن سر عظمته وانتصاراته.

باختصار.. لقد تركت كتابات العقاد فينا أثرًا لا يمحى، وتعلمنا منها الكثير، وتحفظنا إزاء بعض الآراء التي لم ترتكن إلى دليل قوي، وبرهان أكيد، وهذا الأثر الذي تركه فينا العقاد، قد استطاع أن يغزو آفاقًا أخرى غيرنا، من رجال الفكر والتاريخ في أوربا عندما قرؤوا ترجمة بعض أعماله، كما أنه

- رحمه الله - سدد سهامًا قاتلة للأدعياء من رجال التبشير والاستشراق، أولئك الذين عاشوا يحاربون الإسلام ويناوئونه. وأحببت كتابات محمود تيمور، كان - رحمه الله - يكتب الرواية والقصة القصيرة، والمسرحية وأدب الرحلات، كما كانت له كتابات نقدية قليلة، ولقد أتيح لي أن أجالسه وأحاوره في السنوات الأخيرة من عمره، فرأيت فيه رجلًا مهذبًا نبيلًا متواضعًا، متفرغًا تمامًا للأدب، وكان يحرص أشد الحرص على نقاء العبارة، وجمال الأسلوب، ويستفيد من التراث بذكاء واقتدار، ومن يقرأ مسرحيته «اليوم خمر»، عن امرئ القيس، يجد فيها الحوار القوي، والأسلوب العربي الأصيل الجزل الذي يشع الجو التاريخي لزمن المسرحية، وكان رحمه الله يعيش الأحداث بقلب متفتح، وفكر ثاقب، وأذكر أنه بعد حريق القاهرة الشهير في 26 يناير 1902 كتب قصة قصيرة في مجلة الهلال الشهرية بعنوان «الديك»، يسجل فيها هذا الحدث البارز تسجيل فنان حصيف .. فماذا فعل معاصرو تيمور الكتاب المشهورون، وماذا فعل هو؟ المعاصرون كتبوا شعرًا وقصصًا قصيرة وروايات تصور الحدث المباشر.

أما تيمور في قصته القصيرة «الديك»، فقد لجأ إلى طريقة أخرى.. لقد صور شابًا كسيحًا مريضًا، يجلس على إحدى نواصي شارع فؤاد بالقاهرة يتلقى الصدقات التي يجود بها المارة، لكن عين ذلك التعس كانت دائمًا تنظر إلى الديك المشوي الموضوع في فاترينة زجاجية في مدخل أحد المطاعم الشهيرة.. وريقه يتحلب منذ زمن طويل.. وما إن اندلعت المظاهرات، وشبت الحرائق في شارع فؤاد، وأخذ الدهماء يستولون على البضائع الثمينة وخزائن الأموال، حتى زحف الكسيح المسكين صوب المطعم، وتناول الديك المشوي وارتمى فوقه.. كانت المظاهرات تزحف كالطوفان، وكانت الأقدام تدوسه وتركله.. وما إن هدأت العاصفة العاتية، حتى جاءوا وحاولوا تحري شأن

ذلك الكسيح، وجدوا روحه وقد فارقت جسده.. ووجدوا الديك من تحته هيكلًا عظميًّا.. هكذا كان تيمور الفنان الرقيق الحساس.

وفي مجالات السياسة كنا نقرأ لكتاب عرفوا بالحماسية والعاطفة الوطنية المشتعلة أذكر منهم أحمد أبو الفتح وأحمد حسين وسيد قطب وفؤاد سراج الدين وصالح عشماوي ومحمد الغزالي وغيرهم.

ومن الدوريات الشهيرة التي كنا نتابعها بانتظام تقريبًا، سلسلة اقرأ، لدار المعارف، واكتب للجميع، وقصص للجميع، وكتابي، وكتاب الهلال، وروايات الهلال، ومجلة المختار الأمريكية المترجمة، والكتاب الفضي والكتاب الذهبي وغيرهما.

كما كنت حريصًا على اقتناء مجلة لواء الإسلام، والإخوان المسلمون، والرسالة، ونور الإسلام، والهلال، وغيرهما، كما كنا نتسابق في حفظ الأشعار القديمة والحديثة على السواء.

وكان للروائي الكبير محمد عبد الحليم عبد الله نكهة خاصة في قصصه الرومانسي المؤثر، وتصويره للعواطف الإنسانية، والمآسي المؤلمة، كما كان صديقه المرحوم علي أحمد باكثير يتميز بخطه الإسلامي، وفكره السياسي المبلور، وتعبيره الواعي من خلال مسرحياته وقصصه عن قضايا إسلامية معاصرة، ومشاكل اجتماعية شائعة، ويستلهم التاريخ في الكثير من قصصه ومسرحه.

وأحببت في عبد القادر المازني خفة روحه، ورشاقة أسلوبه، وصوره الساخرة الناقدة، وكشفه عن خبايا النفس وأسرارها، كما كان صادقًا شجاعًا في أدبه الذاتي، وسيرته الشخصية، لولا هنات تؤخذ عليه في أدبه السياسي.

وكرهت أدب سلامة موسى، فهو رغم علمه، ودعوته للأخذ بالأساليب

الحديثة والمنهج العلمي، لم يكن موفقًا، وخاصةً عندما دعا للعامية، ونفر من الدين، وتجاهل قيم الحضارة الإسلامية، بل شكك فيها، ولقد قرأت له الكثير، وفهمت أنه يدعو إلى الانسلاخ من قيمنا وتقاليدنا العريقة، واتباع الأسلوب الغربي في السلوك والأداء والعلاقات الاجتماعية والفردية، وكان خصامي الأبدي معه بعد واقعة شهيرة في كلية العلوم جامعة القاهرة، إذ أجريت مسابقة للخطابة بين طلبة هذه الكلية، وكان هو رئيس لجنة التحكيم، ورأينا وجهه يكفهر ويشحب كلما وقف خطيب متسابق، وبدأ خطبته باسم الله الرحمن الرحيم، واستشهد بعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، ثم يضع قلمه على الورقة ويضع (صفرًا)، فإذا جاء الخطيب ودخل في الموضوع مباشرة دون أن يسمي وضع 10 درجات.. وهاج الطلبة وماجو بعد إعلان النتيجة، أما هو فلم يسكن، بل وقف يعلق على المسابقة ويقول:

«حسبتني وأنا أحضر لكلية العلوم أنني سوف أسمع خطبا تنهج النهج العلمي، وتبعد عن الميتافيزيقا والغيبيات.. فإذا بي للأسف أجد نفسي في كلية لاهوت».

واحتدت المناقشة، وكاد يحدث تشابك بالأيدي، لولا أن الطلبة أصحاب الحق المهضوم أنفسهم تحلقوا حوله، وحموه من غضبة الجمهور، فانصرف سالمًا وهو يسب ويسخط ويلعن.

ومن الأمور المثيرة للدهشة، أن سلامة موسى في أخريات أيامه - عام 1909 على ما أذكر - أدلى بتصريح مضمونه، أنه يتخلى عن الدعوة إلى استخدام اللغة العامية في الكتابة وذلك في سبيل القومية العربية.. هكذا قال.

وعلى الرغم من الكثير الذي كتب عن هذا الرجل في حياته وبعد مماته، وخاصة بالنسبة للمجلات التي ساهم فيها، ودعوته إلى المنهج العلمي، وترويجه لنظرية النشوء والارتقاء، وإلحاحه على اتخاذ العصرية أسلوبًا في

الحياة الحديثة، على النمط الأوربي، واستمساكه بالفرعونية ودعوته الدائبة لها، وقيام بعض الكتاب والأدباء بالسير على نسقه، حتى أن نجيب محفوظ في بداية حياته الأدبية، كتب رواياته الأولى عن العصور الفرعونية، أقول على الرغم من كل هذا، فماذا بقي لسلامة موسى؟ لقد قامت محاولات لإعادة نشر تراثه، لكنه لم يلق القبول، وأنشئت مكتبة باسمه تخليدًا لذكراه، من صنع أسرته، لكن دون جدوى.. لقد كان فقاعة كبيرة روج لها المغرضون وأعداء الإسلام، وسرعان ما انفجرت وذابت دون دوي.

أما خالد محمد خالد فقد خالفته وأحببته، فعندما أصدر كتابه «من هنا نبدأ»، ورد عليه الشيخ محمد الغزالي بكتابه «من هنا نعلم»، كنت حريصًا على تحري الحقيقة، كان خالد يتمتع بقدرة فائقة في اختيار الكلمات الوثابة الموحية المشعة، والأسلوب الحماسي المجلجل، والشعارات والاقتباسات الرنانة، ترى ذلك في اختيار عنوان الكتاب، وفي عنوان كل فصل، وفي المقتطفات التي توضع في بداية كل فصل، حتى النقط وعلامات الاستفهام والتعجب، كان يتأكد منها عند الطبع، واستطاعت كتبه التالية «هذا أو الطوفان»، و«لكيلا تحرثوا في البحر»، أن تجذب الاهتمام، وتجعله من الكتاب المرموقين، وكانت تربطني به صلة صداقة لم يستطع خلاف الرأي الشديد أن يقضي عليها، كان رجلًا صريحًا، لكنه كان قلقًا متوترًا. رغم ثقافته الدينية، وكانت له مواقف مشهودة حينما قال لعبد الناصر في اجتماع المؤتمر القومي، على شاشة التليفزيون والإذاعة وأمام الحشد الكبير، دون خوف:

«يا سيادة الرئيس.. لا علاج لمشكلة الحرية إلا بالمزيد من الحرية»، ويومها قال له عبد الناصر: إن الحكومة قد أفرجت عن كتبه المصادرة، وأنها تركت له الحبل على الغارب.. وخاصة عندما قيل إنه إسلامي الاتجاه.. ثم شيوعي.. ثم.. ثم.. وظل خالد يتحول تدريجيا.. وجدناه يكتب «بين يدي عمر»،

ويكتب عن أبي بكر الصديق، وعن عمر بن عبد العزيز.. ثم يفاجئ قراءه بمقالة شهيرة نشرت في جريدة الأخبار، يعترف فيها بعد قرن من الزمان بخطئه حينما كتب «من هنا نبدأ»، وما تبعه من مؤلفات تهاجم الدين ومنهج الحكم فيه وخلطه بالسياسة وما إلى ذلك، كما اعترف بما ذكره محمد الغزالي من قبل من أنه كان متأثرًا بآراء المستشرقين والمبشرين وأعداء الإسلام.. اعترف بشجاعة، بل إنه بكى في أحد مواقف الاعتذار والاعتراف في التليفزيون.. وكان شجاعًا في اعترافه بالحق، كما كان شجاعًا بالأمس في تمرده.. وأنا لم أكف عن القراءة له سواء في ثورته الجانحة أو عودته إلى الحق، لم يمنعني خلاف الرأي أن أتابع ما يكتب وأجالسه وأناقشه، والواقع أني كنت أتوقع من شخصية كشخصية خالد أن تنزل يومًا إلى الصواب، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي طوال ربع قرن لماذا تأخر عن العودة؟، حتى فوجئت بمقالته وأنا في دولة الإمارات تنشر في الأخبار القاهرية، فحمدت الله، ودعوت له بالتوفيق وطول البقاء.

وقرأت الكثير والكثير لطه حسين، إنه أولًا وقبل كل شيء أديب وفنان أكثر من أي شيء آخر، أديب حتى في تاريخه وفي بحوثه وفي نقده، وله أسلوب أديب متميز بين كتاب العربية لا يشاركه فيه أحد.

وقبل أن نخوض في الحكم عليه، يجب أن تعرف أنه تراجع عن الكثير من آرائه التي أغضبت العلماء والغيورين على الإسلام، تراجع في خطاب رسمي لمدير الجامعة آنذاك أحمد لطفي السيد باشا، وحج بيت الله الحرام، وكتب مؤلفات جديدة تجب ما قبلها مثلما رأينا في «مرآة الإسلام»، و«على هامش السيرة»، و«الوعد الحق»، وغيرها.

لكن الذي لا مراء فيه هو أنه أساء إلى الأزهر وإلى الفكر الإسلامي بالآراء المنحرفة التي تبناها ردحًا من الزمن، وكذلك بترديده لأفكار بعض

المستشرقين المغرضين، وخاصة أن الأوساط الغربية قد روجت لمثل تلك الأفكار، بل إنها تركت بصمات واضحة في الفكر العربي المعاصر نفسه.

ولعل الكثيرين ممن تلقفتهم الحضارة الغربية ببريقها، أو ممن ساء رأيهم في الدين، فانحازوا إلى الشيوعية أو الوجودية، لعل الكثيرين من هؤلاء قد تربوا على فكر طه حسين القديم، وتحليله لأحداث التاريخ الإسلامي، وإبرازه لجوانب مثيرة ومحزنة في علاقات الأشخاص الأوائل في فجر الدعوة الإسلامية.

لكن يبقى طه حسين المتحرر، المدافع عن المعذبين في الأرض، والمتغني بتضحيات عمار وياسر وسمية، والحامل لمرآة الإسلام وعظمته، والمترنم بذكريات البيت العتيق، ومسيرة المد الإسلامي في صباحه وظهره وحتى اليوم. بل إن طه حسين نفسه أنكر ألوانًا من نقده لمعاصريه، وزعم أنه كانت أيام الشباب واندفاعه، وكان حديثه الصحفي يتناول واقعة نقده المرير لشوقي وحافظ، وأسفه العميق على ما بدر منه.

لقد أدى طه حسين دورًا لا شك فيه، وخلّف مدرسة أدبية متميزة، وكان همزة وصل بين ثقافات أجنبية وثقافتنا العربية، وكانت نقطة الضعف فيه هي عداؤه القديم للأزهر ورجاله، ولفقيه المكتب الذي كان يحفظه القرآن الكريم، فتمادى في سوء الظن، وحاول أن يثأر لنفسه، ويثبت أن ذلك الأعمى الضعيف، الذي رسب في الامتحان، أقوى من الأزهر ومن شيوخه، بل أقوى مما يتصورون.. وكانت تجربة.

ولا يشك أحد أن طه حسين في بدايات عمره، ليس هو طه حسين في سني حياته الأخيرة، أي بعد أن تولى وزارة المعارف وأعلن كلمته الشهيرة «التعليم حق للجميع كالماء والهواء».

وللأستاذ أحمد أمين جهد كبير في الكتابة عن الإسلام وتاريخه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وعلى الرغم من استفادته من الترجمات والدراسات الاستشراقية والمؤلفات المتنوعة في عصره وقبل عصره، إلا أنه قدم سجلًا حافلًا، غير أن نظرته لفلسفة الحكم في الإسلام لم تكن سليمة، وخلط السيء بالحسن، ولم يتحر الدقة في أحكامه على العصور المختلفة، وما جد فيها من عوامل خارجية وداخلية، كان ناقلًا أكثر منه محللًا، ولهذا فإن من يقرأ له يجب أن يكون على حذر بالغ، ولا تهوله ضخامة جهده المبذول، وموضوعاته الكثيرة التي تبدو مترابطة، والمؤرخ كما نعلم إما أن يكون متذوقًا ومستوعبًا ومحللًا لأحداث التاريخ، وإما أن يكون مجرد ناقل أو جامع للآراء، وهذا النوع الأخير قد يستسهل أمر إصدار الأحكام السريعة.. وهو أمر في غاية الخطورة، وأرجو ألا أكون مخطئًا إذا قلت إن الأستاذ الكبير أحمد أمين من ذلك الطراز الثاني».

الجمر والرماد

هشام شرابي

بعد سنوات من العمل الأكاديمي في أمريكا، يقرر العودة نهائيًّا إلى لبنان، لكن الجهات العليا ترفض عودته لبلده - الثاني - دون إشعار بالأسباب، ليعود ساحبًا استقالته من الجامعة ومعيدًا الحياة إلى مجاريها، مكتشفًا «كما يفعل كل مثقف عائد لخدمة وطنه، أن الشعب والوطن لا يأبه به وبأحلامه، وأن الواقع يناقض الرؤيا» ويبدأ بكتابة «مذكرات مثقف عربي» كما عنوانها الفرعي.

تبدأ ذكرياته من سفره للدراسة في شيكاغو، وفلسطين في أوج الصراع مع اليهود، مبررًا لنفسه بعد ذلك أنه «مع المثقفين يصارعون على جبهة الفكر ويقاتلون قتال العقل المرير». وصل هشام شرابي إلى أمريكا وتحقق الحلم الذي كان كالرغبة إذا أشبعت، تترك وراءها فراغًا موحشًا. قرر العودة بعد الحصول على الماجستير، بعد سنة كحد أقصى، لتمتد الرحلة لأكثر من عشرين عامًا! ذكريات دراسة التاريخ وتدريسه في الجامعات الأمريكية، والعمل الثقافي، وتحرير مجلة الدراسات الفلسطينية، وأحاديث رفاق الحزب القومي السوري في ظل أشجار الصنوبر، عن الغد وما سيفعلونه من أجل هذه الأمة وعزها، وعن الحقيقة التي جمعوا حياتهم حولها فأصبحت رماداً لا جمر فيه، كل هذه الذكريات جعلت أدونيس يقول عن الكتاب بعد أن راجعه قبل طباعته: «نادرًا ما قرأت نتاجًا عربيًا حديثا هزّني، فتنميت لو أنني كنت صاحبه. هذه الأمنية استبدت بي حين قرأت مخطوطة هذا الكتاب. إنه كتاب آسر».

«في تلك الأيام كان كل منا يعتقد أنه «فلتة» يمتاز عن بقية الناس بذكائه وفطنته. كنا على أحر من الجمر لأن ننهي دراستنا ونبدأ حياة فنية حافلة بالمغامرات والأعمال الكبيرة. ولم أكتشف خطاي وأدرك بأني لست «فلتة» إلا بعد مرور أعوام طويلة من الجهل والغرور.

الآن بعد أن أضعت سنوات ثمينة من حياتي بت أدرك - ودون ما حسرة - أني لست عبقريًّا ولا «فلتة» بل إنسان كسائر الناس، لا أختلف عن زملائي ذكاء أو فطنة. وإني لقانع أن أكون هكذا، قادرًا فقط على تسيير حياتي بنفسي والتغلب على القسر والتشويه اللذين تعرضت إليهما في صغري. وإذا كنت لا ألوم أحدًا لفقدان العبقرية التي اعتقدت أنني أمتلكتها يوما فإنني لا أتمالك أحيانا من التساؤل: لو أن أساتذتي ومن أسهم في تثقيفي كانوا أقل سطوة في معاملتهم لي وأقل خوفًا على مراكزهم ومصادر عيشهم ومكانتهم الاجتماعية، فهل كانت حياتي وشخصيتي تكونان على ما هما عليه الآن؟

قد أغفر للذين أدين لهم بثقافتي جهلهم وغباءهم، لكني لن أغفر لهم غطرستهم، والقساوة المعنوية التي مارسوها في تثقيفي.

كانت النزعة الطاغية في حياتي، في أثناء دراستي الجامعية، هي نزعة «التفلسف». لم يكن بإمكاني آنذاك التفرقة بين الفلسفة والتفلسف، وكنا في دائرة الفلسفة، أساتذة وطلبة، جميعا متفلسفين. وكنت بطبيعتي أميل إلى «فلسفة» الأشياء، أي أن أراها من خلال حجب كثيفة من التأمل والتفكير، وليس بشكل مباشر وعفوي. ولعل هذا هو السبب في أن الحياة كانت تبدو لي غامضةً مشوشةً لا أقدر على تلمسها أو تذوقها ببساطة ومرح، كما كان

يفعل معظم زملائي. فكان كل يوم يمر في حياتي معقدا مليئا بالأحاجي والأحداث المؤلمة نفسيًا. ولا شك أن نوعية الفكر الذي تعرضت إليه في الجامعة الأميركية عزز اغترابي عن نفسي وزاد من ابتعادي عن واقع الحياة الذي كنت أتوق لتفهمه وامتلاكه.

قال سقراط: «إن رأس المعرفة هي معرفة الذات». وهذا بالضبط ما كنا نحن طلبة الفلسفة نظن أننا قطعنا شوطًا بعيدًا في تحقيقه. ولم يخطر ببالنا أن ما كنا نعتقده معرفة الذات إنما كان مجرد أوهام وتخيلات لا صلة بينه وبين الواقع.

كنا نرى هذا الواقع ونعبر عنه بتجريدات مثالية نستمدها من ديكارت وهيجل وكيركيجارد وغيرهم من الفلاسفة. مكنتنا ثنائية ديكارت، مثلا، من وضع العقل فوق الجسد، ومثالية هيجل من إسباغ قيمة نهائية على العقل، وذاتية كيركيجارد من إرساء الحقيقة في «داخلية» الوجود الفردي. (أمس قرأت في كتاب لنورمان براون، «الحياة والموت»، الجملة التالية، التي لو كنت قرأتها في ذلك الحين لاستسخفتها ورميتها جانبًا: إن ما يعرفه الطفل عن وعي كامل يعرفه الراشد باطنيًا باللاشعور، ألا وهو أننا لسنا إلا أجسادًا).

في الإطار الديني المثالي الذي أخذ به مالك وأساتذتنا الآخرون، لم يكن هناك متسع لنمط آخر من التفكير. وطوال دراستي في الجامعة الأميركية لم أسمع اسم كارل ماركس يذكر مرة واحدة كما أني لم أقرأ كلمة واحدة لفرويد. طبعا لو أننا قرأنا ماركس، لكان في ذلك نقض كامل لكل ما كنا نتعلمه ونقول به: بأن الإنسان ليس مجرد روح أو عقل أو ذات باطنية، بل هو كائن اجتماعي يحدده واقع مادي معين و تاريخ محسوس معين، ولو قرأنا فرويد لاكتشفنا بأن ما يدفع الإنسان ويسيره في سلوكه وتفكيره ليست القيم والمثل العليا، التي كان يتحدث عنها أساتذتنا ويبشرون بها، بل قوى ودوافع

داخلية تنزرع في أعماق النفس وتستخدم العقل الواعي وسيلة من وسائلها. وكنت في تلك الفترة أعاني ما كان يعانيه كل شاب في مطلع شبابه: نهمًا إلى المعرفة يرافقه توق للبروز، وعطش للتفوق. وكان اختياري الفلسفة موضوعًا لدراستي نتيجة رغبتي الملحة في أن أتخلص من حالة القلق النفسي والضياع الفكري التي كنت فيها.

وفي مذكراتي، التي أخذت بكتابتها في تلك الفترة، بتاريخ 15 تشرين ثاني 1944، ترد هذه العبارة: «أحاول تحقيق أمرين: أن أتفهم نفسي الداخلية من خلال علم النفس وأن أستعمل عقلي بشكل منظم».

أستغرب هذا القول.. فلا أذكر أني اهتممت بدراسة علم النفس في تلك الفترة، ولا أذكر أني قرأت كتابًا واحدًا في الموضوع، ويا ليتني فعلت! كنت أعتقد أن أنجع وسيلة للتوصل إلى الوضوح الذهني ومعرفة الأمور على حقيقتها هو في دراسة علم المنطق لا علم النفس. وكان أول كتاب قرأته في المنطق لجاك ماريتان، وقد استنزفت قراءته الكثير من وقتي وجهدي، وثابرت على قراءته بالرغم من الملل والنعاس اللذين كانا يهاجماني عند قراءته. ومع هذا كله، لم أفد منه شيئا. ثم وقعت بعد ذلك على كتاب لجون ديوي بعنوان «طلب اليقين». وأعجبني العنوان، فقد كان هذا مطلبي بالذات!

ولكني وجدته مملًا أيضًا، إلا أنه لم يكن في صعوبة كتاب ماريتان، والذي نفّرني من ديوي، هو أسلوبه الذرائعي المتشدد، فوضعته جانبًا قبل أن آتي إلى نهايته.

ونشأ في نفسي نفور من الكتب التي كانت تفرض علينا قراءتها كجزء من المتطلبات الدراسية. هناك عدد من هذه الكتب لم أستطع العودة إليها إلا بعد مرور سنوات عديدة، منها مسرحية شكسبير الشهيرة «ماكبث»، و«الأمير» لمكيافلي، و«الجمهورية» لأفلاطون.

كان أحب الأشياء عند أساتذتنا أن نرفع أيدينا لنطرح عليهم سؤال حول الموضوعات التي كانوا يتكلمون فيها. كنا نرضخ لأفكارهم ونكبت أفكارنا المضادة لأفكارهم ونتباهى أمام زملائنا بترديد أسماء الفلاسفة الذين يذكرونها في قاعة الدراسة. كنا نتحدث عن هؤلاء الفلاسفة ومؤلفاتهم دون أن نكون قد اطلعنا عليها. في سنتي الجونيور والسينيور كان الفيلسوفان المفضلان لدينا هما كيركيجارد وبردياييف. عندما تخرجنا اعتبرنا أنفسنا «وجوديين» من أتباع المدرسة الكيركيجاردية الدينية المثالية. في سنة 1945 غادرنا الدكتور مالك ليصبح وزير لبنان المفوض في واشنطن. وأقمنا له قبل مغادرته حفلة وداع في وست هول خطب فيها عدد من الطلبة والأساتذة وقال جميعهم ما معناه: «إنك أفلاطون ذاهب إلى أميركا لتحقيق فلسفتك. فيا لخسارتنا، وهنيئا لأميركا». ولم يخطر ببالنا آنذاك أن ما سيفعله مالك في الولايات المتحدة هو التخصص في مهاجمة الشيوعية ومدح المسيحية ودعم الحرب الباردة ليعود إلى لبنان ويصبح أيديولوجي اليمين المسيحي المتعصب.

في السنتين الأخيرتين، سنتي الجونيور والسينيور، لا أذكر أننا قرأنا فيلسوفًا واحدًا قراءةً كاملةً، فكنا نستمع إلى المحاضرات عن أرسطو أو ديكارت أو لوك ثم نتصفح كتاب «الأخلاق» أو كتاب «السياسة» أو «التأملات» أو «رسالتان في سياسة الدولة»، وندون بعض الملاحظات وانتهى الأمر.

وبالمقارنة أخذت في أول فصل في جامعة شيكاغو درسين قراءة في دائرة الفلسفة تناول أحدهما كتاب «السياسة» لأرسطو، والآخر كتاب «لفيثان» لهوبز، وعرفت عند ذلك ولأول مرة كيف يقرأ النص الفلسفي.

وبالفعل، كنا نجد صعوبة كبيرة في الجلوس منفردين لقراءة ما كان يتوجب علينا قراءته. في كل حال، لم يكن هناك ما يدفعنا إلى القراءة، فالجو

داخل قاعة الدرس كان مملًا، وفي الخارج كان الإغراء الأكبر هو الجلوس في مطعم فيصل أو الميلك بار، وتبادل الحديث. فلم نتعلم القراءة الجدية، إلا قراءة ما كان كل منا يرغب في قراءته على حدة. ومعظم الذين تخرجوا من الجامعة لا يقرؤون ولا يحسنون القراءة.

ومع ذلك كنا نحب الكتب حبًّا جمًّا، وكنا نتأبطها أينما ذهبنا، كما كنا نشتريها بأسعار باهظة. كان لكل منا مكتبته الخاصة التي كانت بمثابة التعبير المادي عن مركزنا كمثقفين. فكلما كثر عدد الكتب في حوزة أحدنا ازدادت بنظره وبنظرنا، قيمته كمفكر.

وقد أصبح لدي في نهاية دراستي في الجامعة مكتبة تضم مئات الكتب اقتنيتها كتابًا كتابًا ودفعت ثمن كل منها بحرمان نفسي من ملذات عديدة. وضمت مكتبتي معظم المؤلفات الكلاسيكية من هوميروس إلى نيتشه، ومعظمها كان طبعة افريمان البريطانية وراندوم هاوس الأميركية. وكان اقتناء الكتب بالنسبة إلينا أهم من قراءتها، يشكل هدفا بحد ذاته. وكنت دائما أعد نفسي بقراءة الكتب التي كنت أقتنيها عندما تأتي العطلة الصيفية. ومن الكتب القليلة التي قرأتها فعلًا، وتركت في نفسي أثرًا بالغًا: مؤلفات نيتشه المجموعة في مجلد واحد والتي تحتوي على «هكذا تكلم زرادشت» و«هو ذا الإنسان» و«ما بعد الخير والشر» و«روح الموسيقى». وقد تركت أفكار نيتشه وأسلوبه الفلسفي أثرًا لا يمحى في نفسي. وقرأت أيضًا روايتين لدوستوفسكي «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كارامازوف». وبعد ذلك قرأت رواية هرمن ملفل الشهيرة «موبي ديك»، وقصة «كانديد» لفولتير. ومن بين محاولاتي الفاشلة كانت قراءة «الفردوس المفقود» و«الإلياذة»، ولكني نجحت إلى حد ما في تذوق «فاوست» (الجزء الاول) و«الأحاديث مع أكرمن».

كانت هذه القراءات وغيرها، على الصعيد الثقافي العالي، أما على الصعيد الترفيهي فقد تناولت قراءاتي المؤلفين المعاصرين مثل سومرست موم والدوس هاكسلي وإرنست هيمنجواي وافلين واو وجراهام جرين. (ومن الغريب أني بعد صف الفرشمن انقطعت كليا عن قراءة الكتب العربية). ومن الكتب التي قرأتها في تلك الحقبة كتاب سومرست موم «الرباط الانساني» و«القمر وستة بنسات»، اللذان قرأتهما لأول مرة في أثناء مرضي، في سنة الفرشمن، بلذة ما زلت أستعيدها حتى اليوم.

وقرأت لهكسلي كتابه الشهير «العالم الجديد» فلم يعجبني كثيرا، ثم قرأت روايته العظيمة Point Counter Point التي كان من جرائها أني قرأت له بعد ذلك جميع مؤلفاته بلا استثناء ، وفعلت الشيء ذاته بالنسبة إلى مؤلفات هيمنجواي وواو وجرين .

وبعد وفاة هيمنجواي وهكسلي وواو في الستينات توقفت عن قراءتهم كليًا. فقد أحسست أن ذلك الجزء من حياتي الذي ارتبط بهم من خلال كتاباتهم قد انتهى، وانطوت معه المشاعر التي كنت أحس بها نحوهم، وآثرت النسيان، كما يحدث عندما يموت صديق عزيز.

كنا نشكل نحن طلبة الفلسفة - بنظرنا على الأقل - النخبة المتميزة في الجامعة. فقد كنا نحن العاملين في حقل الفكر والفلسفة بينما انغمس زملاؤنا في انهماكات مادية تافهة مثل الاقتصاد والهندسة والكيمياء! وكنا نتصنع الجدية عن غير قصد، فنرفع أصواتنا في نقاشاتنا الفلسفية في الميلك بار، ونسر عندما يجتمع الطلبة حول طاولتنا ليستمعوا إلى نقاشنا ويحاولون مشاركتنا فنتجاهلهم باحتقار. كنا لا نتعاطى الرياضة البدنية عن قصد، لنبرز انشغالنا بأمور الروح. وكنا لا نحضر مباريات كرة القدم، التي كان يشترك فيها فريق الجامعة ويحضرها كل طلبة الجامعة، إلا نادرًا. ولكننا كنا نرتاد

المقاهي والسينما ونقوم بمشاوير طويلة نتبادل خلالها الأحاديث الفلسفية. وفي حين كان زملاؤنا يتعلمون شرب الخمرة ولعب البوكر والسهر في الكيت كات واللبدو، وتعاطي الجنس في البيوت السرية، كنا نكتفي بمتابعة أحاديثنا الفلسفية والأدبية. وكان زملاؤنا كلما جلسوا إلينا يثيرون عن تعمد موضوعات الجنس ويسردون القصص البذيئة، فتتحول جلساتنا إلى مماحكات كلامية تنتهي عادة بانسحاب النخبة المفكرة، بتأفف وغضب».

المنقذ من الضلال

أبو حامد الغزالي

بعد العزلة التي قضاها في الشام، يجيب سائلًا عن غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، ويحكي فيها ما قاسته نفسه في رحلة استخلاص الحقائق بين اضطراب الفرق.

بيّن فيها مسار حياته الفكرية والروحية، وكيفية خروجه من الشك وصولًا إلى خياراته النهائية في الحصول على نور اليقين، والتصديق النهائي.

تحدث فيها عن مذاهب علم الكلام، والفلسفة، بعد أن عادت يداه خائبة من الحصول على اليقين فيهما، لينتهي إلى الصوفية والاعتبارات التي حدّته إليها. وسواءً كانت اعتبارات فكرية، أو سياسية، أو روحية، والتي سيكتشفها القارئ الواعي للكتاب، إلا أنه لا شك في أن غرض الغزالي الأساسي هو إنقاذ الناس من الضلال والإفصاح عن الأحوال، ولا يكون ذلك إلا بنشر حقيقة النبوة، وما بان من خلال هذه الحقيقة.

«كانوا في سالف الأزمنة، على ما نطق به القرآن، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان: آفة في حق القابل وآفة في حق الراد.

1 – أما الآفة التي هي في حق الراد فعظيمة. إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدونًا في كتبهم، وممزوجًا بباطلهم، ينبغي أن يُهجر ولا يذكر، بل ينكر على كل من يذكره، لأنهم إذ لم يسمعوه أولًا إلا منهم، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل، لأن قائله مبطل كالذي يسمع من النصراني قول: «لا إله إلا الله عيسى رسول الله» فينكره ويقول: «هذا كلام النصراني» ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه السلام؟ فإن لم يكن كافرًا إلا باعتبار إنكاره، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه، وإن كان أيضًا حقًّا عنده. وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه حيث قال: «لا تعرف الحق بالرجال بل أعرف الحق تعرف أهله» والعاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقًّا قبله سواءً كان قائله مبطلًا أو محقًّا بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال عالمًا بأن معدن الذهب الرغام. ولا بأس على الصرّاف إن أدخل يده في كيس القلاب وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج، مهما كان واثقًا ببصيرته فإنما يزجر عن معاملة القلاب القروي، دون الصيرفي البصير، ويمنع من ساحل البحر الأخرق، دون السباح الحاذق، ويُصدّ عن مسّ الحية الصبي دون المعزم البارع.

ولعمري لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل وتمام الآلة في تمييز الحق عن الباطل، والهدى عن الضلالة وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها أصلًا، وإن سلموا عن هذه الآفة التي ذكرناها، ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناها في كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه، مؤيدًا بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يهجر، ويترك؟ فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل للزمنا أن نهجر كثيرًا من الحق ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن، وأخبار الرسول وحكايات السلف، وكلمات الحكماء والصوفية لأن صاحب كتاب «إخوان الصفا» أوردها في كتابه مستشهدًا بها، ومستدرجًا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه في كتبهم، وأقل درجات العالم، أن يتميز عن العامي الغمر، فلا يعاف العسل، وإن وجده في محجمة الحجام، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل، فإن نفرة الطبع منه مبنية على جهل عام منشؤه أن المحجمة، إنما صنعت للدم المستقذر، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته فإذا عدمت هذه الصفة في العسل فكونه في طرفه لا يكسبه تلك الصفة، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار. وهذا وهم باطل، وهو غالب على أكثر الخلق. فمهما نسبت الكلام وإن أسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلًا، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم

ردوه وإن كان حقا. فأبدًا يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال. هذه آفة الراد.

2 - آفة القبول: فإن من نظر في كتبهم كـ«إخوان الصفا» وغيرها فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ربما استحسنها وقبلها، وحسن اعتقاده فيها، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه وذلك نوع استدراج إلى الباطل ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر، وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب، وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات وكما يجب على المعزم أن لا يمس الحية بين يدي ولده الطفل، إذا علم أنه سيقتدي به ويظن أنه مثله، بل يجب عليه أن يحذره: بأن يحذر هو في نفسه ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله، وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم، فاستخرج منه الترياق وأبطل السم، فليس له أن يشحّ بالترياق على المحتاج إليه. وكذلك الصراف الناقد البصير، إذا أدخل يده في كيس القلاب، وأخرج منه الإبريز الخالص، واطّرح الزيف والبهرج فليس له أن يشح بالجيد المرضي على من يحتاج إليه، كذلك العالم. وكما أن المحتاج إلى الترياق، إذا اشمأزت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية التي هي مركز السم وجب تعريفه، والفقير المضطر إلى المال إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض، هو سبب حرمانه عن الفائدة التي هي مطلبه وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفًا كما لا يجعل الزيف جيدًا. فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلًا، كما لا يجعل الباطل حقًّا.

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها».

يوميات
فرناندو بيسوا

«كنت دائما قارئا نهما، ومع ذلك، لا أتذكّر أيًّا من قراءاتي» هذا ما يصف به الشاعر والفيلسوف البرتغالي فرناندو بيسوا نفسه، مسطرًّا في يومياته المبكرة التفاصيل الدقيقة لحياته الدراسية، علاقاته، انشغالاته الفكرية والأدبية، بينما في التدوينات المتأخرة من حياته ينحى فيها منحى التحليل والتعليق على الأحداث الصغيرة والكبيرة، الشخصية والعامة، ومن خلالها نتعرف على انخراطه المتزايد في الحياة الثقافية في بلده، رغم سعيه الدائم «إلى أن يكون متفرجًا على الحياة بدون أن يتورط فيها».

ستحتار أثناء قراءة هذه اليوميات والتأملات في تحديد آراء بيسوا، يدافع عن فكرة، ينقضها بعد صفحات، فليس المهم برأيه ما تؤمن به، وإنما كيف تدافع عنه، لهذا كان «اللعب بالأفكار والمشاعر بدا لي دائمًا هو الأسمى في جماليته، أحاول اللعب بهن قدر ما أستطيع».

مليئة يومياته بعناوين الكتب التي قرأها، والمواد التي درسها، وأحوال كتابة بعض نصوصه، لكنها مختزلةً جدًّا بحيث لا يفيد نقلها متفرقة، فقط اكتفيت بحديثه المطوّل قليلا عن القراءة.

الزاد الأدبي

«الزاد الأدبي الأول لطفولتي تمثل في مختلف القصص الغامضة والمغامرات المرعبة. لم أُولِ أبدًا أي اهتمام للكتب المسماة كتب الأطفال والتي تتناول التجارب العاطفية الفجة. لم أجد أبدًا ضالتي في الحياة الصحية السليمة والطبيعية. لم يستهوني الممكن، بل المستحيل بطبيعته.

عشت طفولة هادئة، تربيتي كانت مناسبة. لكن منذ امتلاكي الوعي بذاتي، أحسست فيّ بنزوع فطري إلى الخداع، إلى الكذب الفني؛ مع شغف كبير، فضلا عن ذلك، بما هو روحاني، ما هو سري وملغز، ما هو مُعتم وهو ما يمثّل، بعد كل شيء، مجرد تنويع على ذلك الملمح الأول لذاتي ولشخصيتي التي تبقى مغطاة تماما بالحدس.

***

1904-1905 تأثرتُ بميلتون وبشعراء الحقبة الرومانطقية: بايرون، شيللي، كيتس وتنيسون (وأيضا، في فترة لاحقة، بإدغار بو، القاص بالدرجة الأولى). تأثرات خفيفة أيضا، بمدرسة «البوب». وكارليل في النثر. بقايا مؤثرات لشعراء ثانويين برتغاليين قرأتهم في الطفولة.

1905-1908: إدغار بو (الآن في الشعر)، بودلير، روللينات، أنتيرو، جونكايرو (في القسم المعارض للإكليروس)، سيزاريو بيردي، خوصي دورو، إنريكي روصا.

1908-1909: غاريت، أنطونيو كورييا دي أوليفيرا. أنطونيو نوبري.

1909-1911: الرمزيون الفرنسيون، كاميلو بيسانها

1912–1913 : النزعة السودادية.

قراءة الروايات البوليسية هو ما تبقى لدي من التسليات الفكرية في هذه الحياة. بل إن من بين أسعد الأوقات التي أمضيتها هذه السنة هي تلك التي قرأت فيها كونان دويلي أو أرتور موريسون والتي تمتص وعيي بتمامه.

ذلك أن مؤلفًا لواحد من هذين الكاتبين مع سيجار من 45 للعلبة، وفكرة فنجان قهوة: ثالوث، يجسد اجتماعه اقترانًا للسعادة بالنسبة إلي؛ سعادتي تتركز في هذا. ذلك أن مخلوقًا ذا أحاسيس جمالية وذهنية لا يمكنه أن يطمح إلى أكثر من ذلك في المحيط الأوروبي الراهن.

ما قد يثير دهشتكم ربما ليس كون هؤلاء المؤلفين هم كتابي المفضلين، وإنما لأنني أؤكد ذلك على هذا النحو.

لا أعرف من أكون، وأي مزايا أملك.

عندما أتكلم بصدق لا أدري، عن صدق، عمّ أتكلم. إنني آخر مختلف، يتميز عن ذلك الأنا الذي لا أعلم إن كان موجودًا.

أشعر ألا معتقدات لدي. انشغالي الدائم بي يظهر لي باستمرار خيانات روح لمزاج ربما لا أملكه وذلك الروح لا يؤمن بامتلاكي إياه. أشعر بأنني متعدد.

إني عبارة عن غرفة بمرايا عجيبة لا عدّ لها تتشوه متحولة إلى انعكاسات زائفة، إلى واقع غير موجود في أحد وموجود في الجميع.

وكما أن الحلولي يحس بنفسه موجة، نجمة وزهرة، كذلك أشعر بأنني عبارة عن مخلوقات عديدة. أشعر بي أحيا حيوات غيرية في ذاتي، بكيفية ناقصة، كما لو أن كينونتي متقاسمة بين جميع الرجال، منقوصة، ومفردنة في مجموع من لا أنوات موضوع في أنا مصطنع.

فكرت، لفترة من الزمن في أن أتفرغ لدراسة مستفيضة للأناجيل الأربعة. قرأت بحماس عن الموضوع الذي اشتريته في حالة انخطاف. طلبت الكتب الأخرى متلهفا. لما وصلت لم أقرأها».

***

اعتزال القراءة

«لقد تركت عادة القراءة ورائي. أنا لا أقرأ شيئًا ماعدا الجرائد عرضيًّا وبعض الأدب الخفيف بالإضافة إلى كتاب مرجعي لأجل المسائل التي قد أدرسها والتي قد لا يكون البرهان البحت كافيًا معها.

النموذج الأدبي نسيته عمليًا. بإمكاني أن أقرأ لأجل التعلم أو اللذة. لكن ليس لدي ما أقرأ واللذة التي تأتي من الكتب هي من نوعية يمكن تعويضها بكيفية مفيدة بما يمنحنيه مباشرة التواصل مع الطبيعة وملاحظة الحياة.

إنني أملك اليوم القوانين الأساسية للفن الأدبي. لم يعد شكسبير قادرًا على تعليمي كيف أكون ثاقب الفكر. ولا ملتون على جعلي كاملًا. لقد اكتسب فكري مدىً من التغير والتلوّن يجعلني قادرًا على تقمص أيما انفعال أرغب فيه وعلى الدخول، حسب إرادتي، في أيما وضع ذهني أشاء.

فللمضيّ باتجاه ما هو دائمًا صراعٌ وقلق لا يوجد كتاب يمكن أن يدلنا على طريق مستقيم.

هذا ليس معناه أنني اسْتمرأتُ استبداد الفن الأدبي بي. فأنا لم أقم سوى باستخدامه مُخضعا إياه لخدمتي.

أملك دائمًا كتابًا بجانبي: (أوراق نادي بيكويك بعد الوفاة). كنت قرأت مرات عديدة كتاب السيد ب.ب. جاكوب. انحطاط الرواية البوليسية أغلق

إلى الأبد بابا كان قد انفتح أمامي في الكتابة الحديثة.

لقد تركتُ الاهتمام بالناس ذوي الذكاء المحض؛ ويلز، شيسترتون، سواو؛ أفكار هذه الشخصيات مماثلة لكثير من الأشخاص الذين لا يمارسون الكتابة؛ بنية أعمالهم هي مجموع فارغ.

السوسيولوجا ماهي إلا بلاهة مطلقة. من يستطيع تحمل هذه السيكولائية في بيزنطة الراهنة؟

كتبي جميعها أعمال ذات قيمة مرجعية. أقرأ شكسبير فقط لكي أراجع إشكالية شكسبير، ما عدا ذلك أنا على معرفة به.

اكتشفت أن القراءة هي شكل مُسترَقٌّ من أشكال الحلم. إذا كان عليّ أن أحلم، لِمَ لا أحلم بأحلامي الخاصة؟

إن فقد الاتصال بتفاصيل المحيط هو مَعْلَم بالنسبة إلى فنان الأدب، لأن مهمته هي تجسيد المجموع وليس تفاصيل ذلك المحيط.

قديما كنت أعرف القراءة. اليوم حينما أقرأ أضيع. الميتافيزيقا - خزانة لاحتواء اللانهائي - دائما تجعلني أفكر في تعريف سمعته ذات يوم من فم خادم. أتعرف ماذا تعني خزانة؟ سألته. لم أعد أذكر لماذا؟ نعم، أعرف، أيها السيد، أجابني: هي شيء تحفظ فيه الأشياء.

ما قمت به من أفعال كان موجهًا دائما نحو الداخل، لم ألمس الحياة أبدًا، كلما رسمت إشارة تحولت إلى حلم، إن فكرة سيف أخفّ دائما من السيف.

لقد قدت معسكرات كبيرة. ربحت معارك كبرى، استمتعت بهزائم كبرى؛ كل ذلك بداخلي. استمتعت متجولًا فحسب عبر طريق أشجار الحَوْر، وعبر الممرات الطويلة، مصدرًا أوامر للأشجار ولطيور الجدار، وعبر الممر الطويل الموجود في القصر تمشّيتُ مرارًا مع خطيبتي، لم تكن لي أبدًا خطيبة واقعية».

أدب السيرة الذاتية

لا أحب قراءة الروايات كثيرًا، لكني وجدت المتعة والفائدة في السير الذاتية، إذا أردتُ متعة الخيال قرأت السير غير المعاصرة أو البعيدة عن بيئتي، وإذا أردت اللغة العالية قرأت سير البارعين فيها، وهكذا كنت أبرر لنفسي تقصيري في قراءة الرواية كعادة القراء في التقليل من قيمة ما ينفرون منه من أجناس معرفية، والتعظيم من شأن ما ترغب به ذائقتهم القرائية، وصدق الدكتور عبد الله إبراهيم حين قال في سيرته أمواج: «كنت أضفي قيمة على الأشياء لأبرز أهميتي».

كنت أحرص على تضمين خطة نادي القراءة الذي أنضم له كتابًا من السير الذاتية، فقرأنا ذات مرة سيرة العقاد «أنا» التي جمع مقالاتها الطناحي وقدّم لها بمقدمة جميلة، أذهلتني قراءاته ووصف مكتبته وطريقة ترتيبها وتجاربه مع الكتب، بعد أن تجرعّت مرارة الصفحات الأولى فيها عن القرية وأحوال الطفولة، وحين جاء النقاش اتفق الجميع على هذه النقطة حتى أن بعضهم نفر منها بسبب بدايتها، لكنّي علّقت على أمر آخر، وهو حرص العقاد على رسم صورة مثالية له، وإضفاء هالة من العظمة والتميّز كنت أتصبر عليها من أجل جلسة المناقشة لا أكثر.

قد يتفق كثير من قراء السير الذاتية على أفضلية أيام طه حسين عليها كلها، فحرصت على اقتنائه، ورافقني في عدد من المقاهي في جدة، وبعد أن أنهيتها قلت: حريٌّ بهذا الكتاب أن تكون قراءته فرض عين على ضعيفي الهمة، والنائحين من ظروف الحياة وتوهّم عداوة المجتمع.

قرأت مدحًا من قارئ نهم لسيرة الدكتور صلاح فضل عين النقد، فسجلته ضمن قائمة الكتب المطلوبة، وطفقت أبحث عنه في المعارض والمكتبات سنتين، حتى يئست من الحصول عليه بعد أن قال لي بائع الدار

الناشرة له سابقًا بأنه نفد من مخازنهم ولن يعيدوا طباعته، لكني وجدته صدفة في معرض الكتاب بجدة لدى ناشر جديد، فأخذته مبتهجًا به حتى كدت أنسى اقتناء بقية الطلبات من المعرض. تجاربه متنوعة وأعجبني - حينها - حرصه على عدم التصنيف، فبعد خروجه من الدراسة الأزهرية وابتعاثه وعمله الدبلوماسي والأكاديمي كان واعيًا بأهمية استقلال الباحث والمفكر الذي يسعى للتأثير دون التأثر، لكني وددت لو قلت له - بعد أن أكثر التشكي من عداوات أقرانه - ما قاله أسعد طه في كتابه الماتع «يحكى أن»: «لاحقًا اكتشفت أن ضريبة أن تكون مستقلًا في فكرك بالتمام والكمال، لك أفكارك الخاصة التي تدافع عنها، أنك تكون في مهب الريح، بل في صدارة عواصف قوية قادرة على اقتلاعك والإطاحة بك».

هذه بعض خطواتي في درب السير الذاتية، ولا يخفى على المتابع لساحة الكتب العربية والمطلع على ذائقة القراء الجادّين فيها تفضيلهم لكتب السير الذاتية وكثرة الإقبال عليها، وكذلك وعي المؤثرين بأهمية تدوين سيرهم الذاتية استبقاءً لأثرهم وإمدادًا لأعمارهم. وممن عاش زمنًا مع السير الذاتية حتى قرأ منها ما يملأ قبة الصخرة الأستاذ عبد الله الهدلق، يقول: «حبستُ نفسي في البيت عدة سنوات، وذهبتُ - فيما يشبه الجنون لكنه معرفي - أقرأ في اليوم والليلة أكثر من ثلاث عشرة ساعة، لا يصرفني عن القراءة إلا دموع عيني من فرط الجهد، لم أكن في تلك الأيام أتنفس من رئتي، كنت ألتقط أنفاسي من ثقوب الكلمات.. ولولا أن منّ الله عليّ بالهداية لربما تيبستُ شيئًا فشيئًا حتى صرتُ كما قال كافكا: «حجرًا لقبر نفسي».

لا، لم أكن في تلك الأيام أُسحق؛ لكني كنت أتشكل.. استهواني - فيما استهواني - من هذه الدنيا الغريبة التي فتحها الله علي بعد أن أوصدت دنيا الواقع في وجهي: فنُّ التراجم الذاتية، وما زلت أظن أنه لا يوجد فن آخر

يعدله من فنون هذا التراث الإنساني كله.

نفضت المكتبات العامة والتجارية نفضًا، لم أترك فيها ترجمة ذاتية ذات شأن إلا طالعتها، وكنت أعيد قراءة بعض التراجم أكثر من مرة، كالجزء الأول من أيام طه حسين طالعته عدة مرات، وكان قد أملاه في أيام يسيرة.

وربما طالعتُ السيرة الذاتية في أكثر من ترجمة، كاعترافات جان جاك روسو، طالعتها في ترجمة بدر الدين، وترجمة خليل رامز، في كثيرٍ كثير.

كانت كتب التراجم الذاتية مسلاةً لروحي، أجد فيها العظة والعبرة والمتعة، وكنت أعثر فيها على لطائف من المعارف لا توجد في غيرها، بل لا يظن القارئ أنها من مظان هذه اللطائف».

الحد والماهية:

تعريف السيرة والفرق بينها وبين غيرها لم يُحد بتعريف جامع مانع، لذلك لا داعي للتفرقة بينه وبين أخواته (الذكريات - اليوميات - الاعترافات - الرسائل - الرواية الذاتية) طالما أن الكُتّاب لا يفرقون في تسمية كتبهم بهذه الأسماء، فتجد أحدهم يكتب بما اتفق النقاد على جعله سيرة ويعنونها بيوميات أو مذكرات كسيمون دو بوفوار.

وأكثر ما اشتهر من المسميات: السيرة والترجمة، والسيرة الذاتية أفضل من الترجمة الذاتية لأن الترجمة ليست كلمة عربية أصلية بل هي دخيلة من الآرامية ولم توجد في المعاجم القديمة سوى بلفظ ترجمان، وأيضًا لأنها أصبحت تدل على النقل من لغة لأخرى فاشتهر السيرة الذاتية على الترجمة الذاتية.

وإن كان بعضهم يفرق بين السيرة والترجمة بالطول فالترجمة قصيرة

والسيرة إذا طال حديث المرء عن نفسه، لكن الذهبي سمّى الترجمة النبوية لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في تاريخه الكبير على طولها، والسخاوي كذلك.

لهذا نكتفي بتعريف السير الذاتية بأنها: «حديث المرء عن نفسه».

من التاريخ:

من أقدم ما ينسب إلى أدب السيرة الذاتية عبارة سقراط (400ق.م) الشهيرة «اعرف نفسك بنفسك»، لكن أقدم ما وصل كتابًا كاملًا من هذا الفن هو اعترافات القدسيس أغوسطينوس في القرن الرابع الميلادي، حيث ملأها بأزماته الروحية وحالاته النفسية بلغة عامرة بالقوة والبيان، تظهر فيها صيحات الندم والحنين والتوبة.

وتأتي هذه الاعترافات مما تدعو إليه الديانة المسيحية من فحص للضمير وتعرّف الأسرار والانطواء على الذات من أجل معرفة البواعث الحقيقية، وهذا أحد عوامل انتشار السير الذاتية في الغرب أكثر من العرب.

لكن غالب المؤرخين للسير الذاتية لا يعتدون بما سبق ويعتبرون اعترافات جان جاك روسو في القرن الثامن عشر الميلادي هي أول سيرة ذاتية. وهذا ما شاع في الأوساط الأدبية وحاول ترسيخه المستشرقون، حتى تأثر به أول دارسي السير الذاتية في الوطن العربي وهم: إحسان عباس في فن السيرة، وشوقي ضيف في الترجمة الشخصية.

بعد دراسة فاحصة للأدب العربي يجد الباحث الكثير من السير الذاتية حتى أوصلها الدكتور بكر أبوزيد إلى أكثر من 120 سيرة في كتابه النظائر، وعدّ الباحثون في كتاب «ترجمة النفس» 161 نفسا ممن ترجموا لأنفسهم، وأوصلها عبدالله الحبشي في «معجم العلماء والمشاهير» إلى أكثر من 500

كاتب للسيرة في التراث العربي، ومن أول ما وصل إلينا سيرة الطبيب إسحاق بن حنين التي كتبها في أوائل القرن الثالث الهجري، ونقلها ابن أبي صبيعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، ثم بعده الحكيم الترمذي والرازي وابن سينا والغزالي في «المنقذ من الضلال»، وغيرهم كثير.

وفي بدايات القرن العشرين بدأت تظهر الدراسات الغربية لفن السيرة الذاتية، ومع أنهم تناولوا شيئا من السير العربية إلا أنهم لم يعتبروها ضمن كتب السير الذاتية، وكانوا يبررون بمبررات سخيفة ومتناقضة أحيانًا، فمن الدراسات المعتمدة في السير الذاتية مقالة روزنثال بعنوان (السيرة الذاتية العربية) التي ترجمها عبد الرحمن بدوي في كتابه الموت والعبقرية، ومن الأسباب التي دفعته لإخراج الكتب العربية من صنف السير الذاتية «أنها فقيرة الإحساس بالفرد، وأنها معنية بمنافع خارجية كالدفاع عن مذهب أو التوثيق لسلطان»! وأيضا جورج ميتش في كتابه الضخم تاريخ السيرة الذاتية، يعترف بوجود عدد كبير من السير الذاتية في التراث العربي قياسًا بحالة السيرة الذاتية في القرون الوسطى المسيحية، لكنه يجاهد لإخراجها أو تعييبها بضآلة العاطفة فيها.

روزنثال وإن كان لم يضع قيودًا على تعريف السيرة الذاتية عنده إلا أنه يعيب سيرة ابن منقذ المعنونة بـ «الاعتبار» بكونه غير قادر على التمييز بين الأحداث ذات المعنى والأحداث التي لا معنى لها.

اقتصار الكاتب على الأحداث ذات المعنى يجعله ضعيف العاطفة والشعور بالفردية، وتدوين أخبار خاصة ولكنها ليست ذات أهمية تاريخية ومعرفية يجعله لا يميز بين الأحداث!!

المشكلة في تأريخ السير الذاتية تكمن في مغالطة معرفية وهي محاكمة السابق بمعايير اللاحق، فالغرب بسبب اهتمامهم المتزايد بهذا الفن في العصر

الحديث بدؤوا بوضع معايير وصفات يجب أن تتوفر فيها، بل وضعوا ميثاق السيرة الذاتية الذي يلزم الكاتب بالصدق وبالحديث عن نفسه وإخبار القارئ بأنه يتكلم عن نفسه وإلا لما اعتبر كتابه سيرة ذاتية، ثم بعد ذلك عادوا بالقراءة لسير السابقين وكتبهم وبدؤوا يصنفونها بناء على معاييرهم!

وأيضا من الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة عندهم أنهم يدرسون السير على نموذجهم الخاص وهو ضرورة أن تكشف السيرة عن ذات داخلية تختلف بل تخالف الذات الخارجية! وأن يصرّح الكاتب بخطاياه وفضائحه على طريقة الاعترافات الكنسية، حتى اشترط هذا بعضهم! وهذا غير مقبول لدى الكتّاب في التراث الإسلامي الذي يبدأ الواحد منهم سيرته بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾. وإن كان عدد من المعاصرين باتوا يكتبون بهذه الطريقة الفضائحية مفاخرين بمغامراتهم الجنسية، وغدرهم وخداعهم بالناس!

مغالطات كثيرة فقط من أجل التصريح بأن السيرة الذاتية أوربية الجوهر، وأن العرب كانوا يكتبون أشياء لا تصنف كسير ذاتية لأنهم ضعيفو الشعور بأنفسهم، والغبن هو تسرب هذه الأفكار للكتّاب العرب وإلا لو اقتصر على ترديدها الغرب والمستشرقون لهان الأمر؛ لعِلمِنا بالدوافع المنتجة لهذه الأفكار.

أدب السيرة الذاتية مليء في التراث العربي وإن كان لا يقارن بالعصر الحديث لكنه أيضا ليس بالندرة التي يتهمه بها الغرب، فأغلب الباحثين لم يتناول في دراسته سوى ما لا يتجاوز ثلاثين نصًّا، فشاعت النظرة الاستثنائية لهذه النصوص مما أثّر سلبًا حتى على تاريخ الأدب بشكل عام، ولك أن تتصور أن بعض المؤرخين المعاصرين تجاهل التأريخ لفن السيرة الذاتية

بسبب التأثر بهذه النظرة وأن السير نادرةً لا تستحق الاهتمام!!

من المفارقات أن المتقدمين كانوا أكثر علمًا بفن السيرة الذاتية من المتأخرين رغم قلة توفر الكتب لديهم وصعوبة الحصول عليها، فالسيوطي في القرن العاشر الهجري يُضمّن في مقدمة سيرته الماتعة «التحدث بنعمة الله» من سبقه ممن كتب عن نفسه؛ وكأنه يعتذر للقارئ بأنه ليس بدعًا من المؤلفين وإنما هو مسبوق بغيره فليعذره. هذا مع تدوينه لسيرته في أكثر من كتاب من مؤلفاته يدل على انتشار هذا الصنف من الكتب من قبل زمانه وعلى درايته به وإلا لما تجرأ على ذلك، ثم أتى بعده من سار على نهجه وأصبح تقليدًا عربيًّا لمقدمات السير الذاتية كتابة عدد من السير السابقة.

وفي الأدب العربي الحديث يعد كتاب طه حسين الأيام هو فاتحة مدونة السيرة الذاتية، ثم تواترت بعده نصوص حياتي لأحمد أمين وسبعون لميخائيل نعيمة والبئر الأولى لجبرا.

أما في الأدب السعودي فالبداية الحقيقية كانت من نص أبو زامل لأحمد السباعي عام 1374هـ ثم توسع فيه الكاتب وغير عنوانه إلى أيامي، ويأتي بعده نص كيف كنا لعبد الله الخطيب، ومذكرات طالب لحسن نصيف وغيرهم.

وأختم هذا المبحث بقولي: ليست إطالتي في تأكيد وإثبات وفرة السير الذاتية في التراث العربي وأسبقيتهم من باب الشعور بالنقص الحضاري الذي عابه الهدلق في ميراث الصمت والملكوت على بعض الكتّاب العرب، ولكنه إثبات للحق ولست بمحدثٍ بدعًا من الأقوال، فكما أشرت قريبًا، كثير من الباحثين عربًا وعجمًا أثبتوا هذا من قبل.

أنواع السير الذاتية متعددة، منها:

- **السير الروحانية:** التي تصور تقلبات صاحبها الروحية ابتداءً بشكه ورحلته في البحث عن اليقين الذي يثبت قلبه ويطمئن له، مثل: سيرة الصحابي الجليل سلمان الفارسي، والحكيم الترمذي المعنونة بـ بُدوّ شأني، وسيرة الغزالي الشهيرة المنقذ من الضلال.

- **السير السياسية:** والتي يسجل صاحبها الأحداث والوقائع التي شهدها والمعارك التي خاضها والمناصب التي تولاها والأمراء الذين عاصرهم كسيرة هبة الله بن موسى الشيرازي المؤيد في الدين داعي الدعاة، وسيرة ابن بلقين التبيان، وعمارة الحكمي في سيرته النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية.

- **السير العلمية والتأليفية:** والتي يوثق فيها الكاتب نشأته العلمية وشيوخه الذين درس عليهم ورحلاته في طلب العلم والإجازات التي حصل عليها والكتب التي قرأها وألفها مثل: سيرة ابن سينا في عيون الأنباء في طبقات الأطباء، والبغدادي كذلك، ومن السير المفردة رحلة ابن خلدون شرقا وغربا، والتحدث بنعمة الله للسيوطي، ومن المعاصرين د.محمد الرشيد - وزير التعليم السعودي سابقا - رغم عنوان سيرته الواسع مسيرتي مع الحياة إلا أن أغلبها كان تأريخا لفترة توليه الوزارة.

ولم يضع الكثير من الكتّاب حدودًا فاصلةً بين جوانب حياتهم الروحية والعلمية والعملية فجاءت جامعة بين الأنماط الثلاثة.

دوافع التدوين:

طلبت المجلة الفرنسية «الملاحظ الجديد» من 240 كاتبًا من مختلف بلدان العالم، سرد وقائع يوم من أيامهم وهو 29 إبريل 1994م فكانت النتيجة

صادمة، حيث أن أغلب كتّاب القارة الآسيوية رفضوا الكتابة عن ذاتهم في ذلك اليوم مفضلين الكتابة عن أحداث أكثر أهمية في أيام أخرى، وتضمينها أشياء فلسفية أو شعرية، بينما الكتاب الأوربيين لم يجدوا أي صعوبة في الكتابة عن ذلك اليوم. فكتاب الشرق الذين شاركوا رفضوا الكتابة عن المادة التافهة التي تشكل حياتهم في ذلك اليوم، مفضلين الكتابة في خدمة الأفكار عوضا عن صدى الحياة!

ولعل هذا يعكس رغبة إنسانية وربما دينية للتواصل الإنساني الذي قلل منه التطور التقني والمدن الشاسعة التي قطعت الصلات، فهو شكل فني يبعث على الطمأنينة ويضفي على شبكة التاريخ صورة إنسانية.

قد تكون الأهداف والدوافع من الكتابة واضحة من البداية وهذا يكفل لمنشئ الخطاب الوضوح في العمل، وما ينبغي قوله وما ينبغي تركه، وقد تكون غائبة أو غير مستحضرة في لحظات الكتابة مما يولد تخبطًا في النص وعشوائية في اختيار الحكايات المسرودة. وقد رأيت في جمع الدكتور جوزف لبس في رسالته للدكتوراة «الحب والموت من منظور السيرة الذاتية» جهدًا رائعًا يغني عن كثير من التفريعات في أسباب التأليف، وأضفت الدافع الأخير لوفرته في التراث العربي.

1 – التعبير عن أزمة روحية للارتياح منها:

هذا من أكبر الأسباب ولعله يطغى على البقية ويشترك معهم مهما ادعى الكاتب غيره، يقول علي أدهم في فصول في الأدب والنقد: «أكثر كتب الاعترافات والسير الذاتية باعثها الأزمات النفسية التي تعرض لذوي النفوس شديدة الحساسية والدائمة التفكير في ذاتها وفي الظروف التي تكتنفها».

وفي هذا يقول غوته في سيرته الشعر والحقيقة: «إن كل ما عرف عني ليس إلا أجزاء من اعتراف كبير كان هذا الكتاب محاولة جريئة لتكميله. المسألة أن أُحوّل ما كان يسرني أو يعذبني أو يشغلني إلى قصيدة أو صورة وأخلص من هذا كله إلى بعث الهدوء في قرارة نفسي».

وهذا الشعور يتولد كلما كبر الإنسان في العمر وتجاوز الأربعين، لذا غالب الأدباء يختمون حياتهم بسيرهم الذاتية ما لم يطرأ في حياتهم أسباب أخرى تستوجب تدوين سيرهم كما سيأتي، قال فرنسوا مورياك وهو في الثمانين من عمره: «لمن أكتب هذه الكلمات ما لم أكتبها لنفسي، إني أتمتم وحيدًا كما يفعل العجّز الذين لم يعودوا يجدون أحدا يتكلمون معه».

2- البحث عن معرفة الذات:

الكتابة تكشّف الإنسان، لذلك يحتاج أحيانًا إلى الكتابة عن نفسه ليغوص في أعماقها فيتعرف عليها، يقول ستندال في سيرته حياة هنري برولار: «عليّ أن أدوّن حياتي لربما عرفت أخيرًا حينما ينتهي ذلك بعد سنتين أو ثلاث ما كنت عليه فرحًا أم حزنًا، إنسانًا ذكيًّا أو بليدًا، شجاعًا أو جبانًا، وبالنتيجة هل كنت سعيدًا أم شقيًّا» لأن الإنسان مستغرق في تفاصيل الحياة لا يتوقف ليتعرف على محيطه، لا يصعد للمدرج ليشاهد أحداث حياته ويعلق عليه، فالكتابة تتيح له ذلك.

وإذا عرف نفسه أمكنه معرفة غيره بالقياس عليه؛ فالإنسان مهما تعددت مظاهره يبقى لديه الكثير من المشتركات التي يمكن القياس عليها، يقول إبراهيم المازني في سيرته قصة حياة: «إني لطول اعتباري أن أتدبر نفسي وأدير عيني في جوانبها أصبحت أعتقد أني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم، إذا وسعني أن أكشف لهم عن هذا الإنسان الذي هو أنا، والذي هو كل امرئ غيري أيضا».

3 - لذة التعري!

الحديث عن النفس محبب للجميع ومهما حاول المرء التظاهر بالتواضع وعدم الحديث عن النفس إلا أنه يعود إليها بطريقة أو بأخرى، يقول يحيى حقي في سيرته المختصرة بمقدمة روايته الشهيرة قنديل أم هاشم: «التحدث عن النفس يا له من لذة ساحرة تواضعها زائف. أغلب أحاديثنا بعد كلمتين ليس إلا حديثًا عن الذات، الشكوى أو الافتخار، لكن أحس أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكتمة وهي استجداء تبرير الوجود».

من يطوي آثامه ويكتم أسراره يفقد سلامة القلب وراحة الضمير وبرد الطمأنينة، فإن باح بها ارتاح.

ولهذا عمد الكثير من الأدباء إلى التعري في سيرهم مثل روسو في اعترافاته وتولستوي، ومن العرب عبد الرحمن شكري في اعترافاته أيضا والمازني في قصة حياة.

وممن صرح بهذا ميخائيل نعيمة في سبعون وهو يذكر مسوغات كتابة سيرته: «اللذة التي يلاقيها الإنسان إذا هو تعرى أمام إخوانه من جميع أوزاره وأسراره. فبات وكأنه بيت من زجاج كل ما فيه مكشوف للعيان».

وأكثر ما يبين هذه النقطة هي الأسرار الجنسية إذ لها النصيب الأكبر في السير الذاتية التي يهدف أصحابها إلى التعري مثل أندره جيد في سيرته إذا الحبة لم تمت أعلن شذوذه الجنسي، بل هذا الإعلان هو سبب كتابة سيرته!

4- طلب الوصول إلى الآخرين:

بسبب ما يقع فيه الكاتب والقارئ من عزلة فهو يحتاج إلى مد جسور التواصل مع المجتمع من حوله، فهو لا يستطيع أن يبقى دائما في برجه العاجي أو المكث في قوقعته وسجنه، بل هو بحاجة لأن يطل من فترة لأخرى ليقول

ها أنا ذا موجود. وأفضل خروج من سجن الذات إلى رحابة العالم من خلال السيرة الذاتية مهما دوّن الكاتب من أفكار وآراء في كتب أخرى، وفي تشبيه لطيف يقول توفيق الحكيم: «إن الكاتب عندما يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته لنا يترك رداءه الرسمي ليخرج لنا بثياب البيت في غير كلفة وكأنه صديق. وهذا منتهى الإخلاص منه ومنتهى التكريم لنا» لهذا تجد الكثير من القراء إذا قرأ سيرة ذاتية أعجب بكاتبها فبدأ البحث عن كتب المؤلف الباقية، ويقرؤها وكأنه على علاقة مع المؤلف.

وأحيانا يكون هذا الخروج برغبة أو طلب من الجمهور وليس من الكاتب نفسه، فيستجيب لفضول قرائه. وسواء كان هذا الطلب مجرد حب معرفة المزيد من حياة كاتبهم المفضل كما جاءت الكثير من الرسائل لميخائيل نعيمة يبثون فيها إعجابهم وتوقهم إلى معرفة المزيد عن حياته فيشكر لهم فضولهم ويعترف بحقهم في هذه المعرفة ويرى أن من واجبه تلبية طلبهم فيدون سيرته سبعون. أو تكون محاولة لفهم أعمال الكاتب أو تسلسلها التاريخي أو الرابط بينها كما طُلب من غوته تدوين سيرته لهذا الغرض فكتب سيرته في ثلاث مجلدات أسماها الشعر والحقيقة، وفي ترجمة الحقيقة والخيال. وكذلك غازي القصيبي في سيرته الشعرية يقول: «هدف هذا الكتاب ببساطة أن يكون عونا للباحثين الذين يتعرضون لأشعاري ودليلا أمام قارئ الشعر العادي يسهل له السفر داخل دواويني».

وقد يكون التواصل مع الآخرين لهدف الدفاع عن النفس أو تبرير وتوضيح الأفعال التي فعلها المؤلف، كما فعل روسو في اعترافاته فهو أراد أن يرسم صورته وفق الطبيعة بملئ دقتها ويعرضها على تمام حقيقتها.

أما سلامة موسى فقد سطر سيرته الذاتية لتسوية حساباته مع مجتمعه والتاريخ. فيقول: «قد يكون الدافع الأكبر لكتابة هذه السيرة أني أحس

أني منعزل عن المجتمع الذي أعيش فيه لا أنساق معه في عقائده وعواطفه ورؤاه. وعندئذ تكون هذه الترجمة تبريرًا لمواقفي مع هذا المجتمع وهو موقف الاحتجاج والمعارضة. فأنا أكتب كي أسوي حسابي مع التاريخ. فكتب سيرته تربية سلامة موسى والتي يعتبرها البعض أول كتاب عربي يكتب على غلافه سيرة ذاتية، وإن كان يصعب اعتباره سيرة ذاتية فنية، فنظرة هادئة إلى فهرس الكتاب تكشف عما فيه من استطرادات تاريخية وصفحات لا تمت إلى تجربة الكتب الروحية بصلة: مثل القاهرة فيما بين 1903 - 1907، وذكريات الحرب العالمية الأولى وغيرها من الفصول التاريخية.

ومنهم من يخاف تشويه سمعته فيقرر كتابة سيرته حفاظًا عليها: ومنهم في التراث العربي العالم الصوفي أحمد ابن عجيبة الذي اكتشف أن بعض زملائه وتلاميذه يجمعون له سيرة، و«خوفا من وقوع الإضافة أو الحذف في أعمالهم، عزمت أن أنقل بعون الله ما رأيته بعيني وما سمعته بأذني لأن الخبر ليس كالعيان». ويقول نزار قباني في سيرته قصتي مع الشعر: «أريد أن أرسم وجهي بيدي إذ لا يستطيع أحد أن يرسم وجهي أحسن مني، ولا أحد يستطيع أن يكون فمي أكثر مني».

ويقول شكيب أرسلان وكأنه مضطر إلى تدوين سيرته بأنه لو لم يكتبها سيكتبها غيره لا محالة! فيقول: «رأيت بعد التروي أني مهما اجتهدت في محو نفسي وحاولت إلقاء ستار الإهمال على تاريخ حياتي فلن يعدم الميدان أناسًا يجولون في هذا الموضوع من بعدي فيخبطون فيه خبط عشواء ويزيدون وينقصون بغير علم».

وبالفعل رغم أنه دون سيرته إلا أن أحد الباحثين جمع قصاصات كان ينشرها في المجلات العلمية ونشرها مع تعريف موجز بشكيب أرسلان في كتاب ماتع أشبه بتغريدات العصر.

5- التوثيق التاريخي:

تكمن أهمية كثير من السير الذاتية ليس في حياة ساردها وإنما في الأحداث التي عاصرها ودون أحداثها في هذه السيرة بعضهم عن قصد كان هدفه التأريخ وبعضهم بدون استحضار لهذه الغاية، ومنهم أحمد أمين إذ يبرر لتدوين سيرته بأنه «إنما يؤرخ جانبًا من جوانب جيله وتصف نمطا من أنماط حياتهم، ولعلها تفيد قارئًا اليوم وغدًا مؤرخًا».

والسياسي أحمد الشقيري صنف سيرته لأنه عايش النكبات الثلاث قيام الدولة الصهوينية 1948 والعدوان الثلاثي 1956 وحرب حزيران 1967، ويقول: «جالست الزعماء والأدباء ولو عاد بي الزمن لتمنيت أن أكون معلمًا في روضة خيرًا لي».

6- تحدي الزمان ونشدان الخلود:

وإن كان للزمان النصيب الأوفر في دراسات السيرة الذاتية إذ ينظم السرد فيها ذهابًا ومجيئةً وتقدمًا وتأخرًا، فالسيرة قصة حياة والحياة هي الزمان كما يقول الناقد الفرنسي: «نحن لا نعيش في الزمان وإنما نعيش الزمان، نحن هو، وهو نحن».

ولأن الإنسان وقته محدود على هذه الأرض فمن غروره محاولة بحثه عن الخلود ونشدان البقاء والاستمرار رغم زمنيّته ومحدوديته، فهو يدخل في صراع مع الزمن محاولًا قهره، رادًّا له بعض قهره في الأمراض والآلام والشيخوخة والمرض، فالزمن هو النهر يهرول مسرعا صوب البحر، ولا يسمح للإنسان أن يستحم في مياهه مرتين.

وهذا السبب يظهر من المحاولات الأولى لتدوين السيرة من خلال كتابات الصخور على القبور وتضمينها الأسماء وطرفًا من الحياة رغبة منهم

في مقاومة الزمان وطلبًا للخلود. فالسيرة الذاتية تعبير مباشر وعميق عن غريزة البقاء وتجسيد حي وأصيل لتوق الإنسان إلى الاستمرارية عساه يترك غصنًا ولو هزيلًا في شجرة الإنسانية النامية أبدًا.

يقول ميخائيل نعيمة: «إذ أنكبّ على هذا الكتاب فأستعيد ذكريات ما كان من أمري في هذه الدنيا سأكون عمن يعيش عمره مرتين»، ويقول نزار قباني في قصتي مع الشعر: «كلما غاص الإنسان في لحم الحياة واشتبك بتفاصيلها اليومية شعر بالحاجة إلى تسجيل ما حدث معه، فالإنسان ذو ولع غريب لتسجيل يومياته، وليست كتابة المذكرات سوى نوع من أنواع غريزة البقاء، سوى محاولة لإطالة العمر، ولو على الورق، إذ للإنسان لذتين: لذة أن يعيش التجربة، ولذة في أن يكتب عنها ويمنحها شكلًا».

يقول د. جوزف لبّس: «يا لها من حيلة بارعة! أن ينتصر الأديب على الزمن الجاري بتحويله حبرًا على ورق، مكدسًا الأوراق مضاعفًا الكلمات، مخترعًا وسيلة عجيبة تقلب الزمن إلى مادة ذات أبعاد، تجعله مكانًا!»

السيرة الذاتية بحث عن فردوس مفقود، محاولة لإدراك ما لا يدرك، وحبس المستحيل في شباك الكلمات.

فالكاتب حين يسطر أدبه وخاصة سيرته هو يبحث عن الخلود، وكأنه يقول: أنا أكتب إذن أنا موجود وسأبقى! فالإنسان أقوى من الزمان، والأدب أقوى من الموت! وهل خلّد طه حسين سوى أدبه وأيامه، وروسو باعترافاته! وهيهات لأعاصير الفناء أن تذهب بما سجلته أيادي هؤلاء.

7- شكر نعمة الله:

هذا السبب يتشارك مع كثير من الأسباب السابقة ولكنه كثيرًا ما يذكر في السير العربية وأول من استشهد بآية الضحى في مقدمة سيرته عبد الله بن

بُلُقّين (ت483هـ) التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري وغرناطة، وإن كان ذكرها ابن حزم في كتابه اللطيف طوق الحمامة الذي يعتبره البعض سيرة ذاتية وليس كتابًا في الحب والعلاقات - لكنه ليس كذلك -، ثم انتشر بعد ذلك هذا العرف السيري في الكتب العربية. لكن الأغلب أنه لم ينتشر من كتاب ابن بلقين؛ لأنه لم ينتشر بل ظل مخطوطا بنسخة المؤلف حتى نشرت في ثلاثينيات القرن العشرين حيث وجدت في مكتبة القرويّن بفاس. ومنهم من لم يذكر دوافعه مثل صلاح عبد الصبور في حياتي في الشعر، وأدونيس في سيرته الشعرية، ولكن يمكن أن تُستشف من خلال أحاديثهم فيها، فصلاح مثل سلامة موسى يحاول الانتقام من المجتمع، إذ يقول: «لست شاعرًا حزينًا، ولكني شاعر متألم، لأن الكون لا يعجبني ولأني أحمل في جوانبي شهوة لإصلاح العالم».

لماذا نقرأ السير الذاتية؟

لكل قارئ أسبابه المحرضة على القراءة، والدوافع المحددة لنوع الكتب المقروءة، هنا عدد من الأسباب المحفزة لقراءة السير الذاتية:

- بحثًا عن متعة القصة، فمهما تكن أعمارنا نعود أطفالًا حين تُحكى لنا قصة، فكيف وهي تحكي حياة إنسان حقيقي، نشاهد ضيق ملابس الطفولة عليه، تفخّم صوت المراهقة، شعاع الشيب في منابت وجهه.

- التعرّف على أحوال المجتمعات بعينٍ أكثر مصداقية وإن لم تكن خالية من التزييف، خاصة تلك الأعصر التي لم نبلغها بأعمارنا ولم يخلف لنا أصحابها وثائقيات ولا أفلامًا ولا صوراً فوتوغرافية، ومن أكثر ما يجذبني فيها حيوات المهمشين، عابري السبيل في خارطة التاريخ، الذين لا يَعبأ بهم المؤرخون، أو الحيوات السرية لمن حُبرت في سيرهم الكثير من الصفحات، يقول الهدلق: «في أوراق العمر للويس عوض - هذا الكتاب من أعمق كتب التراجم الذاتية على ما فيه من سوء - يتكشف لنا كذب جيهان السادات بشأن كتابتها لأطروحتها في مقابلتها مع أحمد منصور! وفي مذكرات طبيب عبد الناصر الصاوي حبيب - وهو طبيب جمال عبد الناصر في آخر سنوات حياته - نتبين بعض صدق هيكل، وأنه كان أثيرًا عند عبد الناصر».

- السير الذاتية تعتبر فرعًا من علم النفس كما هي فرع من التاريخ؛ أهميتها تكمن في الإجابة الشخصية بوعي أو بدون وعي على أسئلة علم النفس: لماذا نضحك؟ لماذا نبكي؟ لماذا نكذب؟ لماذا ننسى؟ فالسير المهمة

غالبًا ما تجيب عن هذه الأسئلة بوعي عالٍ، لا يمكن تحقيقه بالرواية إلا للروائيين الكبار.

- قراءة السير تساعد في معرفة طباع الأشخاص ومن ثَم حسن التصرف معهم، كما يقول إبراهيم المازني في سيرته «**قصة حياة**»: «إني لطول اعتباري أن أتدبر نفسي وأدير عيني في جوانبها أصبحت أعتقد أني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن هذا الإنسان الذي هو أنا والذي هو كل امرئ غيري أيضًا».

- معرفة خلاصات الحياة والتجارب لتلافي تكرار الأخطاء، والتنبه من الحفريات في طرق الحياة، يقول عمر فروخ في سيرته اللطيفة «**غبار السنين**»: «ليس من الضروري أن تنتظر حتى يتراكم غبار السنين على كتفيك، بل يكفي أن تنظر إلى الغبار المتراكم على أكتاف الآخرين». ولهذا لا يشترط أن تكون السيرة الذاتية من تأليف كبار القوم أو البارعين في مجالاتهم، فقد يكون لدى البسيط المهمل في واقع الحياة من التأملات والتجارب ما يفوق من كان علمًا بارزًا بين أقرانه. يقول جورج ماي في «**السيرة الذاتية**»: «لا يهم إن كان كاتب السيرة الذاتية ذا قيمة متوسطة أو استثنائية ما دام صادقًا».

- السير أفضل مثال على مقولة العقاد ذائعة الصيت «أقرأ لأن حياة واحدة لا تكفيني»؛ فأنت تضيف حياة هذا الكاتب إلى حياتك بعد قراءة سيرته.

- التلذذ بمتعة التاريخ، فالكثير من السير الذاتية تكتسب أهميتها من معاصرة مؤلفها لفترات تاريخية مهمة، مثل كتاب «**الاعتبار**» **لابن منقذ** حيث اكتسب أهمية من خلال وصفه للكثير من الأحدث في الحروب الصليبية وصلاح الدين وشيء من تاريخ أوروبا في العصور الوسطى وغيرها. وإذا أردت معرفة أحوال الإسكندرية ومراحل تمدّنها فاقرأ سيرة إبراهيم عبد

المجيد ما بعد الكتابة.

- لا تخلو السير الذاتية من مناقشات علمية وآراء معرفية، يذكرها الكاتب إما لأنها تشكل همّاً معرفيًّا عنده، أو يقتضيها سياق الأحداث التي يوردها، إبراهيم السامرائي في سيرته «**حديث السنين**» ناقش تشيّع أبي الفرج الأصفهاني صاحب «**الأغاني**»، وعلّق على كثير من طرائق التعليم في الجامعات وكأنه يسطّر رسالة علمية.

- التقوّي بها على مآسي الحياة ورياحها العاتية، كيف سيكون شعورك بألمك إذا قرأت في «**مذكرات جريح**» لبولس سلامة أنه كان طريح الفراش منذ عشرين عامًا أجرى خلالها أربعة وعشرين عملية! وما مدى رضاك عن عزلتك عن محيطك إذا قرأت في مذكرات محمد الرايس «**من الصخيرات إلى تازمامارت**» تجربة سجنه في زنزانة انفرادية أكثر من ثمانية عشر عاما!

- السير الذاتية: تخفف عنك آلامك، تقلل من نشوة إنجازاتك، تربّت على كتفك: ما حصل لك، حدث أكثر منه إيلامًا لغيرك، وما حققته، سُبقت به. فمعرفتك بمن يشاركك الشعور له وقع في القلب، يقول جلال أمين في «**ماذا علمتني الحياة**»: «قد تفيد قراءة هذا الكتاب في شيء واحد على الأقل، وهو أن يعرف القارئ إن لم يكن قد عرف بعد، أن الناس أشبه كثيرًا، بعضهم ببعض، سواء فيما يتعرضون له من بواعث السرور، أو فيما لا بد أن يصادفوه بين الحين والآخر، من خيبة أمل».

- معرفة خفايا الأعمال، وتفسيرات الرموز الأدبية، أو مبررات تأليف الكتب، يقول الهدلق: «ففي **رحلة جبلية** لفدوى طوقان ما يدل على أثر هذه السيرة على ما كتبته متأدبة قليلة الموهبة في روايتها (الوارفة). وفي «**شظايا من عمري**» لعبد المعين الملوحي أنه هو الذي أشار على سامي الدروبي بترجمة الأعمال الكاملة لدوستويفسكي»، وفي «**يوميات**» فرناندو بيسوا بعضٌ من

مبررات آرائه النقدية، وكذلك فاضل العزاوي استعرض تفاصيل تأليف أعماله في سيرته.

تحديد هدفك من القراءة يساعد العقل الباطن على التركيز عليه واستخراجه من بين الأسطر ولو بالإشارة من المؤلف.

كيف تقرأ السير الذاتية؟

تتفاوت مستويات الاستفادة من الكتب باختلاف كيفيات القراءة بين القراء، هنا بعض الإرشادات التي قد تساعدك في السير في دروب السير الذاتية:

- ابحث عن المشتركات في سير العظماء، لتستنتج القوانين الحياتية. ومنها هذه الحقيقة التي تصرخ بها حالُ كثيرٍ من السير الذاتية وإن لم تنص عليها حروفها: «عندما أحاطت بهم الهزائم رفضوا الاستسلام». بعد أن قرأ جُلّ ما في المكتبات من السير الذاتية يقول عبد الله الهدلق: «ما إن استمررت في القراءة في هذا الفن، ومطالعة هذه التراجم؛ حتى وجدتني أمام حقيقتين تطلان عليّ فلا تخطئهما العين في كل ترجمة ذاتية أقرأها:

1. رأيت أن الذين قرأت تراجمهم الذاتية يجمعون كلهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأزمانهم وأعمارهم وأديانهم، وتفاضل تجاربهم، وتباين مشارب أنفسهم، وتنوع مطارح مقاديرهم: على أن الحياة نصب ومشقة، وأنهم ما نالوا ما نالوه منها إلا بالصبر والتجلد والمغالبة.

2. ثم رأيتهم يجمعون وفيهم: العالم والأديب، والمخرج والفيلسوف، والسياسي والقائد، والممثل والأستاذ، والرسام والمهندس، والتاجر والمريض، والسجين والفقير، ومن شئت وما شئت.. رأيتهم يجمعون كلهم على فساد طبيعة الإنسان، وسوء خلقه، وبشاعة مخبره، وخبث طويته، ورداءة صنفه.. وأنه لم ينلهم من أوصاب هذه الفانية، وأدواء هذا العمر،

وأتراح هذي الروح؛ أشد ولا أشق ولا أكثر إيلاما من صراع الإنسان وحسده وقبحه.

- ابحث في سيرهم عما تخلّوا عنه، ركّز على ما تركه الشخص ليصبح على ما هو عليه، فالإنجازات متلازمة مع عملية التخلي عن عادة سلبية أو التخلص من متع الكسالى، وفي سيرة صلاح فضل «**عين النقد**» مثالٌ رائع على هذه القاعدة. وتذكّر: قد يكون أهم أسباب نجاحك ليس ما تفعل بل ما تترك.

- الخلاف الجوهري بين السير العربية والغربية والذي يجب استحضاره أثناء قراءة السير الذاتية هو أن السير العربية تكتب غالبًا بقانون: «هذه محاسني ونجاحاتي ونعم الله علي، فاقتد بها» والسير الغربية تكتب غالبًا بقانون: «هذه مساوئي وأخطائي فاحذر منها». لذلك لا يتحرج الكاتب الغربي - غالبا - من تدوين ما يشينه، بل يشترطون ذلك، كما يقول جورج أورويل: «لا تعتبر السيرة الذاتية إذا لم يذكر فيها ما يشين!!». لكن العقاد انتقد هذه الفكرة في سيرته «أنا» وقال: «إن الاعترافات وتسجيل السيرة لا يشترط فيها ذكر المعايب وذكر ما يخالف الذات الظاهرة».

- يقول عبيد الظاهري: «عند قراءة سير الناجحين والقدوات تعلّم: كيف وصلوا؟ لتعمل. ولا تكتفِ بإدراك: ماذا أنجزوا لتنبهر».

- إذا كنت تريد التعرف على الكاتب بشكل كامل فلا تكتف بقراءة سيرته الذاتية، بل يجب قراءة كافة أعماله؛ فالأنا أوسع من أن يحتويها كتاب واحد بين دفتيه، ولا تخلو كتبهم الأخرى من الذاتية التي تسطر بعضا من أخبارهم، إبراهيم المازني مثلًا وإن كان سطّر سيرته الذاتية في ثلاثة كتب «**إبراهيم الكاتب**» و«**إبراهيم الثاني**»، و«**قصة حياة**»، إلا أن أحد الباحثين المختصين به يرى أن جميع كتب المازني هي سيرة ذاتية له، وقد صرح المازني

نفسه بهذا في كتابه «**قبض الريح**» فقال: «نحن نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونعرض عليهم جوانب منها في جميع ما نكتب مؤرخين أو مترجمين أو متفلسفين، قصدنا إلى ذلك أم لم نقصد».

- انتبه للأخبار العرَضيّة التي يذكرها كتّاب السير، والتي تضيء زوايا مهمة في مجالات أخرى قد لا تكون من اهتمام الكاتب، كما قال الهدلق: «في سيرة الممثل الهزلي المشهور شارلي شابلن «**قصة حياتي**» حديث أفضت به زوجة آينشتاين لشارلي عن الأيام التي كتب فيها زوجها «النظرية النسبية»، ستحفى قدما محاضر في العلوم وهو يتردد بين أرفف المكتبات فلا يظفر بمثله. وفي سيرة المخرج الإسباني العالمي بونويل «**أنفاسي الأخيرة**» أخبار عن الشاعر الإسباني لوركا - إذ كان صديقه - لعلها لا توجد فيما أفرد عنه من دراسات، وفيها قصة عن هذا الماكر شابلن تكشف عما كان أخفاه في سيرته من إباحيته ودنسه. وفي ترجمة أنيس صايغ لنفسه «**أنيس صايغ عن أنيس صايغ**» فصل حافل عن ياسر عرفات يفرح به مؤرخو السياسة. وفي «**حياة طبيب**» لطبيب النساء القبطي المشهور في وقته نجيب محفوظ - هو الذي سُمّي به الروائي نجيب محفوظ لأنه قام على ولادته حين تعسّرت - قصة طريفة عن اللغوي الكبير حمزة فتح الله، لم يقف عليها باحثان كتب كل منهما بحثًا جيدًا عنه. وفي «**المذكرات**» للعلامة محمد كرد علي أخبار عن الشيخ طاهر الجزائري لا توجد في كتاب. وفي «**الجمر والرماد**» لهشام شرابي تصوير نادر لشخصية أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري الذي أعدمته الحكومة اللبنانية.. وفيها يقف القارئ على المورد الذي استقى منه عبد الرحمن بدوي أغلب رسالته عن الزمان الوجودي».

- معرفة المرحلة التي تغطيها السيرة الذاتية، تساعد في معرفة موقع القناعات التي يصرّح بها كاتبها في حياته، فلا يشترط في السيرة أن تشمل

كل الحياة، على سبيل المثال: جبرا إبراهيم جبرا في «**البئر الأولى**» سجّل سيرة ثلاث سنوات، وفي «**شارع الأميرات**» سنتين، وسيرته الكتابية في «**معايشة النمرة**».

يقول أندريه مورا: «من سيقدم لنا الرجل من كل جوانبه، في الحقيقة لا أحد من كتّاب السيرة الذاتية».

- بعد قراءة سيرة أحدهم لا تتأخر في قراءة ما كتب عنه نقدًا، أو من الفئة المخالفة له؛ حتى تتكون الصورة بشكل متوازن بعيدًا عن التضخيم أو التبجيل وخاصة إذا كان الكاتب أديبًا بارعًا. وقد قرأت «**حياة في الإدارة**» في بداية قراءاتي، فطفقت أدافع عن غازي القصيبي وأمدحه في كل مكان، وأواجه من ينتقده أو يعيبه، حتى قرأت بعضًا من مناكفاته الكثيرة، فتموقع في مكانه الملائم عندي.

- كثيرة هي المفاهيم المغلوطة والتجارب الخاطئة التي مرّ بها كتّاب السير الذاتية، لهذا أحب العودة إلى قراءة السيرة النبوية بعد قراءة السير الذاتية؛ لمحاكمة التجارب المستفادة منها إلى تصرفات النبي ﷺ؛ فهو القدوة الأول والنموذج الأمثل وتصرفاته أولى بالاتباع من غيره.

- ركّز على الخلاصات الحياتية التي يسطرها كاتب السيرة الذاتية بعد تجارب طويلة حتى عصرته الحياة فأخرج استنتاجاته منها، وسواء كانت في القناعات النهائية بعد تقلبات متعددة، أو الأفكار الزائلة بعد أن عصفت بها رياح السنوات. كما قال العقّاد في أنا: «لقد علمتني تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التي ننفرد بها، ولا تغيظهم النقائص التي تعيبنا، وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لا ما يصغرك، لأنه يكبرهم في رأي أنفسهم».

بعض الكتّاب أو المترجمين يجمع هذه الخلاصات في نهاية كتابه تسهيلًا على القارئ، كما فُعل بكتاب يوميات أناييس نن - لا أعلم هو من فعل

الكاتبة أم المترجمة -، لكن لا تعتمد عليها فقط، فقد يهمك من تجاربه ما يراه الكاتب غير مهم.

- عدم التسليم بكل ما يرد في السير الذاتية سواء في مدح الذات أو في ذم الآخرين، فالكاتب وخاصة العربي يحاول قدر المستطاع تحسين الصورة المرسومة عنه، وهذا واضح في دوافعهم للكتابة، لذا تجدهم يبالغون في الثناء على أعمالهم اليسيرة، أو إخفاء بعض ما يشين من تصرفاتهم.

وهذا من منغصّات السير الذاتية، وقد يحتاج إلى التحرّي والبحث قبل التسليم بما ذكره الكاتب، فحتى لو أراد الكاتب أن يقول حقيقة سيرته كاملة لما استطاع لعدة عوامل:

- **الحياء**: فأن يكتب المرء سيرته الذاتية يعني بأن يتعرى أمام الناس، وأن يحدثهم عن نفسه وحياته الخاصة، فأن يتخفف من ملابسه الرسمية ليس بالأمر السهل ولا يجرؤ على القيام به كل أحد. لهذا يقول أحمد أمين في «حياتي»: «لن أقول كل الحقيقية لأن من الحق ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه، وإذا كنا لا نستسيغ عريّ كل الجسم فكيف نستسيغ عري كل النفس». وبرتراند رسل في سيرته الذاتية يقول: «ذكرياتي يشوبها شعور عدم الارتياح ولا أحب أن أعود بالذاكرة إلى ما كنت أشعر به في تلك السنين». فالحياء مانع.

- **تأكيد القوة**: من كتّاب السير من يختار الأحداث الأكثر أهمية في حياته فيُسطّرها حتى تدفع إلى الظن بأنه عظيم، ساحبًا ستار النسيان على حياته العادية ومغفلًا تصوير ضعفه البشري، مع أن لكل إنسان نقاط ضعف ولكل جواد كبوة. وهذا الصنف مما ينفر مبتدئ القراءة بهذا الفن.

ومن هؤلاء العقاد في سيرته حيث يقول: «لقد حاربت الأحزاب وحاربت الملوك. لقد حاربت هتلر ونابليون والمستعمرين والنازية والصهيونية.. وإنني بحمد الله خال من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادي في السن ونظرائي في العمل وشركائي في العصر الذي أعيشه» فهذه المبالغات كانت سببًا في نقد الكتاب من كثير من القراء والزهد به.

وكذلك بولس سلامة في سيرته **مذكرات جريح** يرفض ذكر أعدائه وأقرانه حتى لا يخلدهم التاريخ مثله! فيقول: «يا أيها الأنذال، إني أربأ بنفسي أن أسميكم ولقد عرفني الورق بستانيًّا يوشيه بالورد، ويطيّبه بالبنفسج فكيف أغطيه بالسماد. بل إن هناك سببًا أبلغ وهو ضنّي على أسمائكم أن تدخل التاريخ».

- **خيانة الذاكرة** له، فهو لا يمكنه تذكّر كل شيء؛ لأن تركيبة الذاكرة أن تحافظ على ما تريد، فالذاكرة ليست كالخزانة تستقبل كل شيء وتجمع أي شيء، بل هي كالفنان الذي يختار ويحسن الاختيار فأكثر الحوادث ثبوتًا أقواها تأثيرًا في النفس، كما أن تثبيت الذكريات تابع لمشاغل النفس الحاضرة.

والنسيان له مكانة مهمة في نظرية فرويد النفسية حيث يعتبره دفاعًا عن النفس، فالنسيان حارس الذاكرة، فهي تنسى ما يؤلمها، فلو لم تنس لتحول ذلك إلى صراعات نفسية وأعراض مرضية. وأحمدُ الله على ذاكرتي الهشّة كلما سمعت آهات صديقي الذي تثير أشجانه مع كل رائحة عطر عابرة، أو اسم مشابه لمن احتلّ مكانًا عليًّا عنده. لذا يقول فرنسوا مورياك: «لم أر إلا ما أريد أن أرى، وإذا هذه الصفحات لا تحتوي حياتي كلها».

حياة الإنسان كتاب ممزقة بعض صفحاته.

***

أعتقد أنك امتلكت الآن خريطة واسعة مليئة بدروب القراءة، وإرشادات التعامل مع بعضها، وآمل أن تكون الرغبة قد اجتاحتك للسير نحو بعض الوجهات. انتهت رحلتك في هذا الدرب، وأتمنى لك رحلات سعيدة في المزيد من دروب القراءة.

كما يسعدني مشاركتي تلك الدروب، وآرائك فيها، وفي الكتاب.

Raed.aleid@hotmail.com

Twitter-instgram: @Raed_aleid

مكتبة الملحق:

وقد رتّبتها حسب الأكثر إفادة منه:

- الحب والموت من منظور السيرة الذاتية، جوزف لبس، دار المشرق.
- ترجمة النفس، تحرير: دويت راينولدز، هيئة أبوظبي للثقافة.
- كتابة الذات، صالح الغامدي، المركز الثقافي العربي.
- السيرة الذاتية، جورج ماي، تعريب: محمد القاضي وعبد الله صولة، دار رؤية.
- ذخيرة الذات، محمود عبد الغني، منشورات ضفاف.
- أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع الشمري، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي.

مسرد كتب الدروب:

وقد رتبته حسب الأقرب لي:

- على الجسر، عائشة عبد الرحمن، الهيئة المصرية للكتاب.
- عين النقد، صلاح فضل، دار بتانة.
- رحلة جبلية رحلة صعبة، فدوى طوقان، دار الشروق.
- الأمية، أغوتا كريستوف، ترجمة محمد آيت حنا، دار الجمل.
- أمواج، عبد الله إبراهيم.

- ماذا علمتني الحياة؟، جلال أمين، دار الشروق.
- قصة حياة، إبراهيم المازني، دار الشروق.
- مسار، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال.
- مسيرتي في التأليف، ستيفن كينغ، ترجمة اوليغ عوكي، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- الرائي في العتمة، فاصل العزاوي، دار الجمل.
- المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية.
- سنوات الجوف، عبد الواحد الحميد، مركز عبد الرحمن السديري.
- هروبي إلى الحرية، علي عزت بيغوفيتش، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، دار الفكر.
- الذات بين الوجود والإيجاد، بنسالم حميّش، المركز الثقافي للكتاب
- قصة نفس، زكي نجيب محمود، دار الشروق.
- الكلمات، جان بول سارتر، ترجمة سهيل إدريس، دار الآداب.
- شظايا من عمري، عبد المعين الملوحي، دار الملوحي.
- الجمر والرماد، هشام شرابي، دار الطليعة.
- مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني، كتاب المختار.
- يا صاحبي السجن، أيمن العتوم، دار المعرفة.
- سيرة ذاتية، مالكوم إكس، ترجمة ليلى أبو زيد، دار بيسان.
- سيرة ذاتية، هيرمان هسه، ترجمة محاسن عبد القادر، دار سطور.
- عالم السدود والقيود، عباس العقاد، هنداوي.

- سيرة الوجع، أمير تاج السر، دار أثر.
- زهرة العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق.
- يوميات، فرناندو بيسوا، ترجمة المهدي أخريف، دار توبقال.
- البقية في حياتك، أنيس منصور، دار الشروق.
- الذكريات الصغيرة، جوزيه ساراماغو، ترجمة أحمد عبد اللطيف، دار الجمل.

خريطة الدروب

في البدء 7
على الجسر 10
الأمية 17
الذكريات الصغيرة 24
يا صاحبي السجن 30
أمواج 37
سيرة ذاتية 55
رحلة جبلية رحلة صعبة 67
سنوات الجوف 82
سيرة ذاتية 92
الرائي في العتمة 99
قصة حياة 112
عالم السدود والقيود 118
عين النقد 126
الكلمات 133
سيرة الوجع 142
مسيرتي في التأليف 146
زهرة العمر 152

مسار 165
شظايا من عمري 171
الذات بين الوجود والإيجاد 177
قصة نفس 184
ماذا علمتني الحياة؟ 193
هروبي إلى الحرية 210
البقية في حياتك 215
مذكرات 227
الجمر والرماد 241
المنقذ من الضلال 249
يوميات 253
أدب السيرة الذاتية 259
لماذا نقرأ السير الذاتية؟ 277
كيف تقرأ السير الذاتية؟ 281
مكتبة الملحق: 289

رائد العيد

دروب القراءة

تاريخ القراءة تاريخ قرائها، وسيرتي الذاتية سيرة قراءاتي. منذ قديم الأزل شكّلت المكتبة جزءًا من حياة الإنسان، ولطالما كانت تبنيه وتجهزه لخوض غمار العالم بشكل أفضل. لذلك يأتي كتاب "دروب القراءة" كي يفتح الباب على عوالم كبار الكتّاب ويستعرض قراءاتهم الأولى من خلال سيرهم الذاتية، نُشاركهم معاناة نهم المعرفة، ولذة المعلومة بعد عناء البحث عنها، كي نستفيد من خبراتهم في أدوات القراءة ومهاراتها ونتعرف على اختياراتهم وطرائقها بأساليبهم الخاصة؛ إذ أنهم أفضل من يعبّر عن ذواتهم وعن دروبهم التي تشكّلت مع الأيام كي تترك لنا هذا النتاج الثري. فالقراءة ليست لأوقات الفراغ؛ بل تُفرّغ لها الأوقات.

أثر

ISBN 978-603-91029-5-3

9 786039 102953

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ